المسلمون والروم في عصر النبوة

دراسة في جذور الصراع وتطوره بين
المسلمين والبيزنطيين حتى وفاة الرسول ﷺ

الدكتور
عبد الرحمن أحمد سالم



دار الفكر العربي

دكتور / عبد الرحمن احمد سالم
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

المسلمون والروم في عصر النبوة

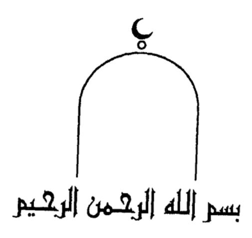
دراسة في جذور الصراع وتطوره بين المسلمين والبيزنطيين حتى وفاة الرسول ﷺ

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت : ٢٧٥٢٧٩٤ - ٢٧٥٢٩٨٤

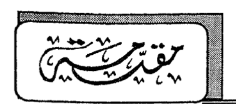
٩٥٣,٠٢ عبد الرحمن أحمد سالم.
رح م س المسلمون والروم فى عصر النبوة: دراسة فى جذور الصراع وتطوره بين المسلمين والبيزنطيين حتى وفاة الرسول «ﷺ»/ عبد الرحمن أحمد سالم. ـ القاهرة : دار الفكر العربى، ١٩٩٨.
١٨٨ ص: خ؛ ٢٤ سم.
بيليوجرافية: ص١٥١ ـ ١٦٢.
يشتمل على فهارس.
تدمك : ٥ ـ ١٠٤٢ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.
١ ـ التاريخ الإسلامى. أ ـ العنوان.

حورس للطباعة والنشر (مهندس/هشام الشربينى وشركاه)
السيدة زينب - القاهرة ت ٥٩٢٥٨١٤٠



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾



- ١ -

يشغل البيزنطيون (أو الروم كما تسميهم مصادرنا العربية) حيزاً بارزاً من هتمامات المؤرخين المسلمين منذ ظهور الإسلام فى أوائل القرن السابع الميلادى حتى سقوط القسطنطينية فى حوالى منتصف القرن الخامس عشر . وقد لا يختلف ثنان حول خطورة الدور الذى لعبه البيزنطيون على مسرح السياسة الخارجية لإسلامية طوال هذه الفترة الممتدة . ولكن الملاحظ أنه على الرغم من تعدد لدراسات الغربية والشرقية على السواء فى مجال العلاقات الإسلامية البيزنطية خلال مراحلها المتعاقبة فإن عصر النبوة - على أهميته البالغة فى هذا المجال - لم حظ بنصيبه العادل من تلك الدراسات . بل إن **«ستراتوس»** ، فى مؤلفه الضخم عنوان : « بيزنطة فى القرن السابع الميلادى » [1] Byzantium in the seventh Centur ، لا يقدّم عن علاقات البيزنطيين بالمسلمين فى تلك الفترة الخطيرة إلا محات خاطفة [2] . ولعل عدم اهتمام الباحثين بتلك المرحلة يرجع إلى أن لمواجهات الميدانية الحاسمة بين المسلمين والبيزنطيين لم تظهر بوضوح إلا بعد وفاة لرسول ﷺ ؛ وأن ما حدث فى عصر النبوة لم يكد يتعدى - فى تقدير الكثيرين - طاق مؤتة وتبوك . غير أننا ينبغى أن نؤكد هنا أمرين :

---

(1) A . N . Stratos , Byzantium in the Seventh Century (in five volumes), translated into English by Marc Ogilvie - Grant and H . T . Hionides Amsterdam , 1968 - 1980 .

(2) Ibid , vol . I, pp . 309, 312 - 314 .

الأول : أن علاقـة الرسول بالروم وأحلافهم من عـرب الشام تجاوزت كثـيراً أحداث مؤتة وتبوك وكانت لها جذورها وأشكالها المعقدة المتشابكة التى عبرت عن نفسها فى صـور مختلفة ؛ **والثانى** : أن علاقـات المسلمين بالروم فى العـصور التاليـة لا يمكن أن تفهم على وجههـا الصحيح إذا نظرنا إليـها بمعزل عن منبعـها الأول وهو عصر النبوة . فالحق أن هذا العصر يمثل أساس تلك العلاقات جميعا . فليس من المسـتغرب ـ إذن ـ أن تقع على كـاهل الباحـثين مهمـة أساسـية وهى محاولة سَبْـرغَـوْر تلك العلاقات فى حياة الرسول ﷺ .

ومنذ كوَّن الإسلام دولتـه فى المدينة كانت ألصق القوى الخارجـية به ـ وأقواها أيضـاً ـ هى دولة الروم . ولما كان الإسـلام فى جـوهره دين دعوة فـقد كـان من الطبيعى أن يحـاول الرسول نشر دعوته بين كل من اسـتطاع الاتصال بهم ، سواء أكانوا داخل شبه الجـزيرة العربية أم خارجها . فمـاذا كان موقف الروم إزاء دعوة الإسلام ؟ هل عـارضوها أو أيدوها أو وقـفوا منها مـوقف الحيـاد ؟ وهل حاولوا توظيف قوى عـرب الشام التابعين لهم لتـحقيق أغراضـهم ؟ وهل يمكن القول إن مواجـهات الرسول ﷺ مع الروم وأحـلافهم ـ وهى التى بلغت ذروتهـا فى مؤتة وتبوك ـ كانت تمثل اتجاها عدوانيا توسعـيا من جانب الدولة الإسلامية ، أو كانت صورة من صور دفع الأذى ورد العدوان ؟ إن هذه الأسئلة وأمـثالها شغلت اهتمام هذا البحث وكان لا بد من محاولة التماس إجابـات علمية مقنعة لها . وفى سبيل ذلك كان علينا أن نتجـاوز الوقوف عند ظواهر الأحداث ، وأن نمتحن مـلابساتها وخلفياتهـا ، وأن نقارن بين الروايات العديدة ـ والمتناقضة أحيـانا ـ فى مصادرنا ؛ وأن نتعرف ـ فوق ذلك ـ على أهم آراء الباحثـين المحدثين حول أبرز القضايا المثارة فى هذا البحث وأن نناقشها بموضوعية وصولا إلى الرأى الذى نطمئن إليه .

ويتكون هذا البحث من تمهيد وستة فصول وخاتمة .

أما **التمهيد** فيتناول - باختصار - حالة الامبراطورية البيزنطية منذ قيامها حتى الفتح الإسلامى مع الإشارة إلى علاقاتها بأهم القوى الخارجية فى تلك الفترة ، وخاصة دولة الفرس . ولا شك أن الإلمام الموجز بأحوال هذه الامبراطورية الشاسعة التى قُدِّرَ للمسلمين أن يحتكوا بها طويلا يعين على مزيد من الفهم لطبيعة المواجهة اللاحقة بين قوتين : أولاهما ناشئة محدودة الحجم والإمكانات وهى دولة المدينة ؛ والثانية كانت تمثل أعظم امبراطورية على الإطلاق عند ظهور الإسلام ، بل ربما قبل ظهوره بطويل .

ويتناول **الفصل الأول** علاقة عرب الشام والحجاز بالبيزنطيين قبل الإسلام . أما عرب الشام فقد مثلهم «الضجاعمة» فى البداية ، حيث مارسوا دور السيادة على جميع القبائل العربية هناك ، ثم حل محلهم الغساسنة فى القيام بهذا الدور . والحق أن الغساسنة ارتبطوا بالبيزنطيين ارتباطا خاصا وكان لهم إسهام ملحوظ فى توجيه الأحداث بالشام ، سواء قبل الإسلام أم بعده ؛ ولذلك حظوا بمزيد من الاهتمام فى هذا الفصل . وقد ناقشنا فى هذا السياق ما تعرضت له علاقة الغساسنة بالبيزنطيين من صعود وهبوط ، ودور العوامل الدينية فى ذلك . كما تحدثنا عن قيادة الغساسنة لعدد مهم من القبائل العربية التى استقرت بالشام مثل لخم وجذام وكلب وجهينة وبلىّ وتنوخ وغيرها ، وكيف كانوا يوجِّهون جهود تلك القبائل لصالح البيزنطيين . والملاحظ أن هذه القبائل قامت بدور بارز فى الصراع المستقبلى بين المسلمين والبيزنطيين .

وأما عرب الحجاز فقد ناقشنا العلاقات المختلفة التى ربطت بينهم وبين البيزنطيين ، وفى مقدمتها العلاقات التجارية ، وأبرزنا - بصفة خاصة - دور مكة فى هذا المجال . كما تحدثنا عن تطلع البيزنطيين للسيطرة على الحجاز ؛ إما عن

طريق أحلافهم الأحباش الذين نجحوا فى إخضاع جنوب شبه الجزيرة العربية لنفوذهم ، أو عن طريق تجنيد بعض العناصر التى تعمل على تنفيذ مخططاتهم من بين عرب الحجاز . ومما ناقشناه أيضاً فى هذا السياق دور الدين فى علاقة البيزنطيين بعرب الحجاز ، وقد وضحنا كيف أن البيزنطيين فشلوا فى محاولة نشر المسيحية بين الحجازيين ؛ هذا مع ملاحظة أن الحجازيين كانوا على إلمام بالمسيحية عن طريق رحلاتهم التجارية إلى الشام ، وهى الرحلات التى أسهم محمد ﷺ فيها بنصيب .

أما **الفصل الثانى** فقد خصصناه لمناقشة علاقة الرسول بالبيزنطيين منذ البعثة حتى صلح الحديبية عام ٦هـ (٦٢٨م) . وقد تحدثنا فى بدايته عن المرحلة المكية وعن محدودية علاقة المسلمين بالبيزنطيين خلالها ، ثم أشرنا إلى محدودية تلك العلاقة أيضاً خلال السنوات القليلة التى تلت الهجرة إلى المدينة ، وهى السنوات التى شهدت انشغال الرسول ﷺ بتوطيد أركان دولته الجديدة ومواجهة التهديدات التى تحيط بها من أعدائها فى الداخل وعلى رأسهم مشركو قريش .

ولكن الجزء الأساسى فى هذا الفصل يتمثل فى دراسة الحملات الإسلامية الأربعة التى توجهت إلى الشام فى العامين الخامس والسادس للهجرة . وأولى هذه الحملات قادها الرسول ﷺ بنفسه ، وهى غزوة دومة الجندل فى سنة (٥هـ) . أما الحملات الثلاثة الأخرى فقد حدثت فى سنة (٦هـ) ، وقاد اثنتين منها زيد بن حارثة إلى حسمى ووادى القرى على التوالى ، وقاد الأخيرة عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل . وقد ناقشنا الملابسات التى أحاطت بهذه الحملات وشرحنا أهدافها ونتائجها ، كما أبرزنا الدور الذى لعبه عرب الشام فى تلك المرحلة - نيابة عن البيزنطيين - فى تضييق الخناق على دولة المدينة ومحاولة إلحاق الأذى بها ، وخاصةً عن طريق اللجوء إلى سلاح الحرب الاقتصادية .

ثم يأتى **الفصل الثالث** ، وقد خصصناه لمناقشة علاقة الرسول بالبيزنطيين من صلح الحديبية حتى سرية مؤتة فى العام الثامن للهجرة ، وهى فترة تصل إلى عام ونصف تقريباً . وقد توزّع اهتمام هذا الفصل بين نقطتين أساسيتين هما :

أولاً : كتب الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء ؛ **وثانياً** : علاقته بالقبائل العربية فى الشام . وبخصوص النقطة الأولى فقد ناقشنا بصفة خاصة ـ وبقدر من التفصيل ـ كتب الرسول عليه السلام إلى هرقل والمقوقس وأمراء الغساسنة موضحين ملابساتها ومضامينها وردود أفعالها . وقد كان من الضرورى ـ فى هذا السياق ـ أن نناقش ما يثيره بعض الباحثين من شكوك حول وثاقة كتب الرسول إلى الملوك والأمراء بصفة عامة ، وقدمنا من الأدلة ما ينقض هذه الشكوك . أما فيما يتعلق بالنقطة الثانية ـ وهى علاقة الرسول بالقبائل العربية فى الشام فى تلك المرحلة ـ فقد أبرزنا محاولاته ﷺ لنشر الإسلام بين هذه القبائل وما أظهره بعضها من ردود أفعال حادة تجاه هذه المحاولات ، وما لذلك من دلالات تتصل بالعلاقات الإسلامية البيزنطية . ولعل سرية «ذات أطلاح» ـ التى ناقشناها بقدر من التفصيل فى هذا الفصل ـ تمثل قمة ما تعرضت له محاولات الرسول فى هذا الميدان من صدٍّ ومقاومة على يد بعض قبائل الشام فى الفترة المشار إليها .

ويتناول **الفصل الرابع** سرية مؤتة التى تُعَدُّ أول مواجهة مباشرة بين المسلمين والبيزنطيين فى ميدان القتال . وقد حاولنا فى هذا الفصل أن نتتبع الجذور الأولى لمؤتة وأن نتعرف على ملابساتها وأهدافها الحقيقية فى ضوء هذه الملابسات ، مع مناقشة ما يطرحه بعض الباحثين المحدثين من أهداف لا تتسق مع السياق الصحيح لهذه السرية . كما تناولنا أيضاً تطورات معركة مؤتة وحكم الباحثين عليها من منظور النصر والهزيمة وناقشنا أهم نتائجها فيما يتصل بمستقبل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين ، وحللنا فى هذا الإطار سرية ذات السلاسل التى حدثت فى أعقاب مؤتة بقيادة عمرو بن العاص .

وفى **الفصل الخامس** الذى أفردناه لغزوة تبوك ناقشنا مقدمات هذه الغزوة والظروف التى أحاطت بها ؛ وفى ضوء ذلك حاولنا أن نتبين أهدافها الحقيقية ، وعرضنا فى الوقت نفسه ما يتردد أحيانا فى المصادر القديمة أو الدراسات الحديثة من أهداف لا تثبت أمام النقد التاريخى . ثم تحدثنا عن ترتيبات الغزوة وتطوراتها، كما ناقشنا الأسباب المحتملة التى جعلت الرسول ﷺ يعود من غزوته دون أن يواجه الروم فى الميدان ، وحاولنا أن نستخلص النتائج القريبة والبعيدة لغزوة تبوك التى تُعدُّ أضخم حملات الرسول ﷺ على الإطلاق .

أما **الفصل السادس** والأخير فيتناول تطور العلاقة بين الرسول والبيزنطيين منذ نهاية غزوة تبوك حتى وفاته ﷺ . وقد أدرنا حديثنا فى هذا الفصل حول نقطتين أساسيتين : أولاهما مدى تقدم الدعوة الإسلامية بين عرب الشام ، وموقف البيزنطيين من ذلك ؛ والثانية بعث أسامة بن زيد . ففى النقطة الأولى تحدثنا عن إسلام بعض الغساسنة وعن صدى ذلك عند قومهم ، كما تحدثنا عن إسلام فروة بن عمرو الجذامى أحد عمال الروم بالشام وعن تأثير ذلك على الامبراطور البيزنطى ، كما ناقشنا محاولات البيزنطيين لاختراق الجبهة الإسلامية وتفتيت وحدتها مستعينين فى ذلك ببعض رؤوس النفاق كأبى عامر الراهب . أما النقطة الثانية فقد اقتضت منا أن نناقش خلفيات بعث أسامة وأهدافه وأن نرصد تطوراته . ورغم أن الرسول ﷺ توفى قبل أن ينجز أسامة مهمته ، مما جعل أسامة لا يتمكن من تحقيق هذه المهمة إلا فى خلافة أبى بكر - رغم ذلك فقد أدرجنا بعث أسامة ضمن الأنشطة الحربية للرسول ؛ فهو الذى وضع خطة البعث وحدد غايته ولم تتبق لأبى بكر إلا مهمة التنفيذ . وقد ناقشنا فى هذا السياق - بقدر من التفصيل - نتيجة هذا البعث وما تركه من صدى لدى البيزنطيين .

وأخيراً تأتى **خاتمة البحث** ، وفيها بلورنا أهم ما توصلنا إليه من نتائج .

- ٣ -

بعـد حديثنا عن أهميـة موضـوع البحث فـى مجـال الدراسات الإسـلاميـة البيزنطية، وبعـد استعراضنا لأبرز النقاط التى اشتملت عليـها فصوله ، نأتى الآن لمناقشة مصادره الأساسية .

وأول ما نلاحظه فى هذا الصـدد أن المصادر التى تشكل الأساس الذى يعـتمد عليه الباحث فى تاريخ العـلاقات الإسلامية البيزنطيـة فى تلك الفترة المبكرة تكاد تنحصر فى المصادر العربية . والجدير بالإشارة أن المصدرين الأساسيين لعصر هرقل وخلفائه فى التاريخ البيزنطى ـ وهما الحوليـة التى كتبها ثيوفانس Theophanes فى أوائل القرن التاسع الميلادى ، والحولية التى كتبها البطريرك نقفور Nicephorus فى نفس الفتـرة تقريبـاً ـ لا يكادان يوجهان اهتـماماً ذا بال إلى عـلاقات البـيزنطيين بالمسلمين فى عصر النبوة .

على أن المصـادر العربيـة ـ رغم تنوعهـا وثرائهـا ـ لا تقدم للبـاحث فى هذا الموضوع ما يشـبع ظمأه تماما ويجيب عن كل تسـاؤلاته . ثم إن تضارب الروايات التى تقدمهـا فيما يتـعلق بكثير من الحوادث التـاريخية المهمة يمـثل سمة بارزة من سماتها ويشكّـل صعوبة كبرى أمام الباحث ؛ هذا فضلاً عن أساليب التعميم التى تغلب على بعض هذه الروايات . ومن هنا فـإن الاستفـادة من تلك المصادر على الوجه الأمثل تحتاج إلى معاناة فى الموازنة والاسـتنباط ، وقد يضطر الباحث أحياناً إلى أن يتولى هو بنفسه ملء العديد من الثغرات عند إعادته تركيب الأحداث .

ومن الطبيـعى أن تأتى مصادر السـيرة المتخصـصة على رأس المصادر العـربية المتنوعـة لهـذا البـحث . ومع أن سيـرة ابن هشـام تمثل أهمـيـة لا يمكن إنكارها لاتسـاعهـا وشمـولها فـإن كتـاب المغـازى للواقدى يأتى فى الدرجـة الأولى من الأهمية. وقد تعاصر الواقدى وابن هشام وإن كان الواقدى أسبق وفاةً ، فقد توفى فى سنة ٢٠٧هـ فى حين أن ابن هشام توفى فى سنة ٢١٣هـ أو ٢١٨هـ على رواية

أخرى . والمعـروف أن سيرة ابن هشـام تلخيص لسيـرةٍ أخرى لم تصل إلينا وهى سيرة محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥٠هـ .

أما الواقدى فقـد استقى مادته العلمية من عدد من الـرجال لعل أهمهم موسى ابن عقبة المتوفى سنة ١٤١هـ ،ومعمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٤هـ ، وأبو معشر المتوفى سنة ١٧٠هـ [١] . وقد استفاد البحث كثيراً من مغازى الواقدى لما اشتملت عليه من إضافات مـهمة فى كثير من الحملات الـتى جرى تناولها ، ونخص منها بالذكر غـزوة دومة الجندل فى سنة ٥هـ ، وسـرية حسمى فـى سنة ٦هـ ، وسرية ذات أطلاح فى سنة ٨هـ .

وإذا كانت سـيرة ابن هشام ومغـازى الواقدى تمثلان مصـدرين من أهم وأقدم المصادر المتخـصصة فى السيـرة فإن مصادر السـيرة المتأخرة لا يمكن إغفـالها نظراً لاعتمادها أحيانا على مصادر لم تصل إليـنا وهو ما يعطيها قدرا من القيمة . ومن بين هذه المصادر «زاد المعـاد» لابن القيم و «جوامع السيـرة» لابن حزم و «الروض الأُنُـف فى شرح سيـرة رسول الله» للسهيلى . ولعل هذا الأخيـر من أقيم المصادر المتأخرة فى السيرة وأنفعها لهذا البحث . وهو فى شرح سيرة ابن هشام .

وتُعَـدُّ موسـوعات الحديث النبوى مـن بين مصادرنا الأساسـية ، ويقف على رأسها الصحيحان : صحيح البخارى وصحيح مسلم ، لمنهجهما التوثيقى المتميز . وتقدم لنا مصـادر الحديث مادة غنية تتـصل ببعض الموضوعات الأسـاسية فى هذه الدراسة ، مثل كتب الرسول ﷺ إلى ملوك العالم وأمرائه ، وسريّة مؤتة ، وغزوة تبوك ، وغير ذلك .

وترتبط كـتب الطبقات وتراجـم الصحابة ارتبـاطاً وثيقـاً بموسوعـات الحديث النبوى؛ وهى بذلك تحتل مكانا مهما بين مصـادرنا حيث تقدم لنا مادة وفيرة حول

---

(١) للمزيد حول ذلك راجـع مقدمة مارسدن جونـس لكتـاب المغازى للواقـدى ، جـ ١ ، ص ٢٤- ٢٩ .

الشخصيات التى كان لها دور فى المواجهات الإسلامية البيزنطية . ويُعَدّ كتاب «الطبقات الكبرى» لمحمد بن سعد ، المتوفى سنة ٢٣٠هـ ، عمدة هذه الكتب جميعا ؛ فهو أسبقها من ناحية ، وأوثقها كذلك ، كما أنه أغزرها مادة ، هذا فضلا عن أنه يبدأ باستعراضٍ ضافٍ لسيرة الرسول ﷺ . وقد استفاد بحثنا كثيراً من كتاب الطبقات الكبرى . وينعكس التأثير الواضح لهذا الكتاب على كل المصادر اللاحقة فى تراجم الصحابة مثل «أُسْد الغابة» لابن الأثير ، و «الإصابة فى تمييز الصحابة» لابن حجر ، و «الاستيعاب» لابن عبد البر .

نأتى بعد ذلك لنوع آخر من مصادر هذا البحث ؛ ويتمثل فى الحوليات التاريخية العامة ، كتاريخ خليفة بن خياط ، وتارخ اليعقوبى ، وتاريخ الطبرى ، وتاريخ ابن خلدون، والكامل لابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وغير ذلك مما لا ضرورة لحصره هنا . ويمثل تاريخ الطبرى ، المتوفى سنة ٣١٠هـ ، أهمية خاصة بين المصادر التاريخية العامة ، نظرا لثراء مادته العلمية وتعدد مصادره. ورغم اتفاق الطبرى مع ابن إسحاق والواقدى فى الكثير فإنه يضيف جديدا إلى ما قدّماه . وتجدر الإشارة هنا أيضا إلى تاريخ خليفة بن خياط المتوفى سنة ٢٤٠هـ ، وتاريخ اليعقوبى المتوفى حوالى سنة ٢٧٨هـ ، فكلاهما - رغم اختصاره - يقدِّم فى كثير من الأحيان مادة مستقلة جديرة بالاعتبار .

ومن المصادر الأساسية أيضاً كتب الفتوح وما يتصل بها من تاريخ البلدان وجغرافيتها . ويبرز فى هذا الإطار كتاب **«فتوح البلدان»** للبلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩هـ ، وكتاب **«فتوح مصر وأخبارها»** لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧هـ . وهذا الأخير يقدم لنا أو فى مادة عن كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس وردود أفعاله . على أننا ينبغى ألا نغفل فى هذا السياق موسوعتين جليلتين هما **«معجم البلدان»** لياقوت الحموى المُتوفى سنة ٦٢٦هـ ، و **«تاريخ مدينة دمشق»** لابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ . أما معجم البلدان فلعله أكثر الكتب فى بابه شمولاً

واستيعاباً ، وهو يقدم لنا نبذة جغرافية تاريخية عن معظم المدن والأماكن التي تعاملنا معها خلال هذا البحث . وأما تاريخ مدينة دمشق فإن ابن عساكر يتحدث في المجلد الأول منه حديثا مسهبا عن فتوح الشام ، وهو يتناول في ثنايا ذلك بتفصيل قد لا يوجد في سواه بداية احتكاك المسلمين بالشام في عصر الرسول ﷺ. فمن بين المباحث المفصّلة في هذا المجلد الأول باب عنوانه : « سرايا رسول الله ﷺ إلى الشام وبعوثه الأوائل وهي غزوة دومة الجندل وذات أطلاح وغزوة مؤتة وذات السلاسل » ، ويقع في ثلاث وعشرين صفحة ؛ وباب آخر عنوانه : « غزاة النبي ﷺ بنفسه تبوك وذكر مكاتبته ومراسلته منها الملوك » ، ويقع في خمس عشرة صفحة ؛ وباب ثالث عنوانه : « ذكر بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد قبل الموت وأمره إياه أن يشنّ الغارة على مؤتة ويُبْنَى وآبل الزيت » ، ويقع في خمس صفحات . ولكن إذا كان تاريخ ابن عساكر ينطوي على منجم غني بالمادة التاريخية فإن على الباحث أن يقوم بمهمة الفحص الدقيق لهذه المادة المتضاربة أحياناً حتى يعرف ما يأخذ منها وما يدع .

وينبغي أن نشير أيضاً في هذا السياق إلى المصادر المتخصصة في أنساب العرب حيث يقدم بعضها مادة أساسية لهذه الدراسة . ولعل كتاب «أنساب الأشراف» للبلاذري أجدر هذه المصادر بالاهتمام ؛ ذلك أن مؤلفه يقدم في ثنايا حديثه عن الأنساب إشارات مهمة تتعلق بكثير من المسائل التي أثرناها في هذا البحث ، كعلاقة المسلمين بالقبائل العربية في الشام ، وكتب الرسول ﷺ إلى الملوك ، والملابسات التي أحاطت بغزوة تبوك ، وسرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل، وبعث أسامة . . . وغير ذلك من الموضوعات التي يضيف فيها البلاذري أحيانا ما يجعل من كتابه المذكور مصدراً لا يسوغ تجاهله .

يبقى أخيراً أن نتحدث عما يمكن أن نسميه بالموسوعات التاريخية ؛ وهي المصادر التي تدور حول المعارف التاريخية العامة . ويبرز في هذا المجال كتاب

«المحبَّـر» لمحمد بن حـبيب المتوفى سـنة ٢٤٥هـ ، وكتاب «المعـارف» لابن قتيـبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ ، وكتاب «التنبيه والإشراف» للمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦هـ .
ورغم الأهمية الكبيرة التى تمثلها هذه المصادر بالنسـبة لموضوعنا فإن كتاب «المحبّر» من بينهـا يحتل مكانة خـاصة ؛ فهـو أقدم هذه المصـادر وأغناها بالمادة التاريخـية اللازمة ، ثم إن مؤلفه محمد بن حبيب كان ـ كما يصفه بعض المؤرخين ـ «حافظا متقنا صدوقا ثقة » [1] . وقد أفدنا من كتاب «المحبر» فى غير موضع ، وخصوصا عند حديثنا عن علاقة الضجاعمة والغساسنة بالبيزنطيين ، وعن وضع المسيحية فى قريش قبل الإسلام وعلاقة البـيزنطيين بها ، وعن بعض الغزوات والسرايا فى بلاد الشام كغزوة دومة الجندل وسرية ذات أطلاح ، وعن كتب الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء .

وربما جاز لنا هنا أن نشيـر إشارة سريعة إلى كتاب آخـر لابن حبيب ليس من كتب الموسـوعات ولكنه من المصادر المتـخصصـة . وهو كتاب «المنمق فى أخـبار قريش» . وقد أفدنا من هذا الكتـاب بصفة خاصة عند حديثنا عن علاقـة عثمان ابن الحويرث بالبيزنطيين وعن محاولة هؤلاء نشر المسيحية فى مكة قبل الإسلام .

* * * * *

فهذا تحليل موجز لأهم المصادر التى اعـتمد عليها هذا البحث . وإنا لنأمل أن نكون قد وُفِّـقنا ـ فى حدود المادة المتاحة ـ إلى تقـديم تصور صحيح عن العلاقات الإسلامية البيـزنطية فى مرحلة من أخطر مراحل تاريخها الطويل .

والله مـــن وراء القـصـد .

د / عبد الرحمن سالم

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، جـ ٢ ، ص ٣٢١ .

تمهيد

يتناول ـ باختصار ـ حالة الامبراطورية البيزنطية وعلاقتها بأهم القوى الخارجية حتى الفتح الإسلامى

لم يمض على ظهور الإسلام فى أوائل القرن السابع الميلادى إلا فترة وجيزة حتى أصبح الصراع بينه وبين الدولة البيزنطية (التى تعرفها مصادرنا باسم دولة الروم) سلسلة متصلة الحلقات لم تصل إلى نهايتها إلا بسقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح فى سنة ١٤٥٣م . فقد دام الصراع ـ إذن ـ بين القوتين العظميين أكثر من ثمانية قرون كان ميزان القوى خلالها يتأرجح بين هذا الجانب أو ذاك . والحقّ أن هذا الصراع بين الدولة الإسلامية والامبراطورية البيزنطية أصبح جزءاً لا يتجزأ من نسيج التاريخ الإسلامى خلال تلك القرون الطويلة بحيث أصبح يتعذر على الدارس فهم كثير من جوانب تاريخنا دون إلمام كاف ببعض الجوانب الأساسية فى التاريخ البيزنطى خلال نفس الفترة . وهكذا أصبحت دراسة التاريخ البيزنطى فى بعض جوانبه جزءاً من دراسة التاريخ الإسلامى .

ومما يعين على فهم حقيقة هذا الصراع وأبعاده وتطوراته فهم جذوره الأولى ودوافعه الحقيقية وفهم الظروف التاريخية التى نشأ فيها . ومن هنا كان لا بد من التعرف الموجز على تطور الأوضاع السياسية للدولة البيزنطية حتى الفتح الإسلامى .

والمعروف أن التاريخ العملى للدولة البيزنطية يبدأ فى سنة ٣٣٠م وذلك حين افتتح الامبراطور قسطنطين الأكبر العاصمة الجديدة للدولة الرومانية ، وهى تلك التى بناها على ضفاف البسفور على أنقاض مدينة بيزنطة القديمة [١] . وقد بدأ

(١) كانت بيزنطة مستعمرة إغريقية قديمة تأسست قبل الميلاد بأكثر من ستة قرون . وقد شهدت عصوراً من الازدهار فى مراحلها الأولى رغم تعرضها لهجمات الأعداء وبالذات من ملوك الفرس ، ثم =

البناء فى نوفمبر سنة ٣٢٤م وتم افتتاح العاصمة الجديدة رسميا فى الحادى عشر من مايو سنة ٣٣٠م [١] .

وهكذا حلت العاصمة الجديدة للدولة الرومانية محل العاصمة القديمة «روما» فسماها قسطنطين «روما الجديدة» . وفى هذه التسمية ما يشير إلى أن قسطنطين لم يرد بنقل العاصمة أن يضع حدا لوجود الامبراطورية الرومانية ، بل إنه أراد ، بالأحرى ، أن يجدّد شبابها ويضمن استمرارها وصمودها لعوامل التحدى ؛ وذلك بأن يهيئ لها عاصمة أكثر تلبية لحاجات الامبراطورية من العاصمة القديمة [٢] . فلم يكن هدف قسطنطين - إذن - أن يجعل من مدينته عاصمة لامبراطورية جديدة ؛ ولكن أن يجعل منها عاصمة جديدة لامبراطورية قديمة [٣] . والجدير بالملاحظة أن الاسم الذى أطلقه قسطنطين على عاصمته وهو «روما الجديدة» لم يُقَدَّر له البقاء وحل محله الاسم الذى ظل يستخدم طوال حياة الامبراطورية وهو القسطنطينية (Constantinople) أى مدينة قسطنطين .

وإذا كان إنشاء القسطنطينية يمثل حدثا من أهم الأحداث فى عهد قسطنطين الأكبر فإن هناك حدثا لا يقل أهمية عنه وهو اعتناق الامبراطور للمسيحية واتخاذها

= خضعت فى النهاية لروما ، ولكنها تعرضت للدمار أكثر من مرة نتيجة الحروب الأهلية داخل الامبراطورية الرومانية أحيانا وغارات القوط أحيانا أخرى حتى جاء قسطنطين الاكبر فأعاد بناءها وجعلها مقرا لمملكته . انظر : الامبراطورية البيزنطية ، تأليف أومان ، تعريب د/ مصطفى طه بدر . طبعة دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٥٣م . من ص ٢ إلى ١٣ .

(1) G . Ostrogorsky , History of the Byzantine State, translated from the German by J. Hussey . Oxfrod, 1968, p. 44 .

ـم العاصمة الجديدة عند نقطة التقاء قارة آسيا وأوروبا ، ويحيط بها من الشرق مضيق البسفور ، ومن شمال القرن الذهبى ، ومن الجنوب بحر مرمرة . وقد أضفى هذا الموقع على القسطنطينية أهمية حربية وتجارية . ويضاف إلى ذلك أن القسطنطينية بحكم قربها من المراكز الهامة للثقافة الهيلينية أتيح لها أن تحتل مكانة ثقافية متميزة . انظر :

Ostrogorsky , op . cit., p . 45; A . Vasiliev , History of the Byzantine Empire, Wisconsin , 1952, p. 60 .

(3) R.H.C. Davis, History of Medieval Europe, Longman, 1988, P.9.

دينا رسميا للدولة [١] . ولسنا هنا بصدد مناقشة الدوافع التى أدت إلى هذا التحول ولا مدى إخلاص قسطنطين فى موقفه ذلك [٢] ، ولكننا نقرر حقيقة يكاد يتفق عليها الباحثون وهى أن اعتناق قسطنطين للمسيحية وما تلاه من بناء العاصمة الجديدة كان نهاية مرحلة متميزة فى تاريخ الدولة الرومانية ونقطة البداية لما أطلق عليه بعد ذلك تاريخ الدولة الرومانية الشرقية أو الدولة البيزنطية .

ويلاحظ بعض الباحثين بحق أن الفترة الممتدة من حكم الامبراطور قسطنطين الأكبر إلى حكم الامبراطور هرقل (الذى تولى فى سنة ٦١٠م) تمثل مرحلة تكوينية فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية [٣] . فخلال هذه الفترة أخذت الامبراطورية تخلص نفسها تدريجيا من المصالح والارتباطات الغربية وتتجه نحو الشرق لتصبح فى النهاية امبراطورية شرقية محددة الملامح [٤] .

ويمكننا تقسيم هذه الفترة ، التى استمرت حوالى ثلاثة قرون ، إلى مرحلتين أساسيتين : **المرحلة الأولى** تبدأ بحكم قسطنطين الأكبر (٣٢٤ ـ ٣٣٧م) وتنتهى بنهاية عهد الامبراطور زينون فى سنة ٤٩١م . أما **المرحلة الثانية** فتبدأ بحكم الامبراطور أناستاسيوس الأول سنة ٤٩١م وتنتهى بظهور موجة الفتح الإسلامى فى عهد هرقل فى الربع الثانى من القرن السابع الميلادى .

والجدير بالملاحظة أن الامبراطورية الرومانية خلال **المرحلة الأولى** المشار إليها

---

(١) يختلف المؤرخون حول تاريخ اعتناق قسطنطين للمسيحية . على أن الراجح أن تنصره يرجع إلى احتلاله لروما فى سنة ٣١٢م . انظر : الامبراطورية البيزنطية ، تأليف نورمان بينز ، ترجمة د/ حسين مؤنس والأستاذ محمود يوسف زايد . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٨ ، ٩ .
وانظر أيضاً : Ostrogorsky , op . cit. , p. 47

(2) Vasiliev , op . cit. , pp. 45 - 50; Ostrogorsky, op. cit. , p. 46 .

(3) Moss, in his article, "The History of the Byzantine Empire : an outline" , published in "Byzantium", ed . by N.H. Baynes and H. Moss (Oxford , 1953) , pp. 3f .

(٤) ومما يذكره جورج أوستروجرسكى Ostrogorsky فى هذا الصدد أن عهد هرقل يمثل بداية التاريخ البيزنطى الحقيقى . انظر : History of the Byzantine State, p. 106 .

ظلت تمثل امبراطورية واحدة حتى أواخر القرن الرابع الميلادى ، أو بالتحديد عند وفاة الامبراطور ثيودوسيوس الأول فى سنة ٣٩٥م ، حيث تقاسم الامبراطورية بعده ابناه أركاديوس "Arcadius" وهونوريوس "Honorius" ، فكان الجزء الشرقى من نصيب الأول ، والغربى من نصيب الأخير [1] . وقد كان ذلك خطوة مؤكدة نحو مزيد من التحديد لملامح الامبراطورية الرومانية الشرقية أو الامبراطورية البيزنطية .

ولعل أهم ما يميز تلك المرحلة الأولى أنها كانت فترة مواجهات دامية بين الامبراطورية الرومانية وبين العناصر الهمجية التى كان أبرزها قبائل الجرمان والهون [2] وقد نجحت إحدى القبائل الجرمانية ، وهم القوط ، فى سنة ٤٧٦م فى

(1) Vasiliev, op . cit., p. 88 .

(٢) نزحت قبائل الجرمان من شمال أوروبا ، وبالذات اسكندناوه . ومن أهم فروعها المتعددة القوط الشرقيون Ostrogoths ، والقوط الغربيون Visigoths ، واللمبارد والوندال والبرجنديون والفرنجة والانجلوسكسون . ولكن القوط كانوا مصدر الخطر الأول على الامبراطورية خلال تلك الفترة بالتحديد . ورغم كثرة الضربات التى سددها القوط ضد الامبراطورية فى تلك المرحلة فلا شك أن أخطرها على الإطلاق تمثل فى استيلائهم على روما عاصمة الجناح الغربى للامبراطورية الرومانية ، وذلك فى سنة ٤٧٦م تحت قيادة الزعيم القوطى أودوفاكار Odovacar ، وكان ذلك بداية انهيار الجناح الغربى من الامبراطورية الرومانية .

وقد استطاع الوندال أن يسيطروا على إفريقية فى سنة ٤٢٩م . كما تمكن الفرنجة من السيطرة على الأجزاء الشمالية من بلاد الغال «فرنسا» . وكان الانجلو ـ سكسون قد بدأوا يستقرون فى بريطانيا .

فقد مثلت العناصر الجرمانية ـ إذن ـ خطراً حقيقياً على الدولة الرومانية فى القرنين الرابع والخامس بما استولت عليه من أملاكها ، وخاصة فى الجانب الغربى أو الأوروبى .

أما الهون فإنهم ينتسمون إلى أصل مغولى ، وقد نزحوا من وسط آسيا بحثا عن الرزق فى الأقاليم الخاضعة للدولة الرومانية بشقيها الشرقى والغربى وأخذوا يشكلون تهديداً خطيراً لأمنها . وكان أعظم قائد للهون خلال تلك المرحلة هو أتيلا Attila الذى عاث فسادا فى شبه جزيرة البلقان ، كما توجّه بحملاته إلى بلاد الغال وإيطاليا . ولكن وفاته فى سنة ٤٥٤م أدت إلى توقف تلك الغارات نهائياً وإلى اضمحلال امبراطورية الهون .

حول الهجمات التى تعرضت لها الامبراطورية الرومانية على يد عناصر الجرمان والهون فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين ارجع إلى : الامبراطورية البيزنطية ، تأليف أومان ، ص ٣٢ وما بعدها ؛ والمسلمون والجرمان ، للدكتور إبراهيم أحمد العدوى ، ص ١٥ وما بعدها . وارجع أيضاً إلى : =

الاستيلاء على مدينة روما ، العاصمة القديمة للامبراطورية الرومانية .

أما **المرحلة الثانية** التى تبدأ بحكم الامبراطور أناستاسيوس الأول فى سنة ٤٩١م وتنتهى بظهور موجة الفتح الإسلامى فى عهد هرقل فقد شهدت تطوراً هائلاً فى تاريخ الدولة الرومانية . وقد أخذ الامبراطور أناستاسيوس الأول (٤٩١ ـ ٥١٨م) بيد بيزنطة إلى القرن السادس الميلادى ، وهو القرن الذى ألقى على عاتق الامبراطورية البيزنطية مهمة الحفاظ على التراث الرومانى والدفاع عن الحضارة الرومانية باعتبارها الوريث الذى لا ينازع للامبراطورية الرومانية التى انهار شقها الغربى فى سنة ٤٧٦م كما أشرنا .

هذا ؛ وقد مرت العلاقة بين الدولة البيزنطية ومنافستها العظمى دولة الفرس خلال عهد أناستاسيوس الأول بمرحلة من التوتر الحاد أدت إلى اشتعال حرب واسعة بين الطرفين فى سنة ٥٠٣م كان مسرحها أرمينيا وبلاد الجزيرة ، وذلك خلال حكم الامبراطور الفارسى قباذ (٤٨٧ ـ ٥٣١م) . وهذه المواجهة التى جاءت بعد فترة سلام طويلة بين الجانبين (من سنة ٤٢٢ إلى سنة ٥٠٣م) انتهت أيضاً بعقد سلام بينهما فى سنة ٥٠٥م ، ولكنه لم يدم طويلاً ، حيث استغل أناستاسيوس فرصة انشغال قباذ بمشاكله الخارجية فبدأ يشن الغارات على الحدود الفارسية ، وكان ذلك بداية لمرحلة أخرى من المواجهات بين البيزنطيين والفرس استمرت حتى الفتح الإسلامى رغم ما كان يتخللها أحيانا من فترات سلام مؤقتة بين الجانبين (١) .

H. Moss, "The Formation of the East Roman Empire 330 - 717" , an article = published in "The Cambridge Medieval History" , vol. Iv, part I, Cambridge, 1966, pp. 27 f . See also, Davis. op. cit, pp. 24 ff. ; Ostrogorsky , op. cit; pp . 55 ff .

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : P. Sykes, A History of Persia (London, 1958), vol. I; pp. 444 ff .

كما تعرضت الامبراطورية البيزنطية فى عهد أناستاسيوس الأول أيضاً لتهديد جديد مصدره البلغار والسلاف (الصقالبة) ؛ وهو التهديد الذى سوف يتصاعد فيما بعد ، وخصوصاً من جانب الصقالبة ، ليصبح مشكلة حقيقية أمام الامبراطور جستنيان وخلفائه . وهذا ما حدا ببعض المؤرخين لأن يعتبروا عصر أناستاسيوس مجرد مقدمة لما يمكن أن يسمى بالفترة السلافية فى شبه جزيرة البلقان [١] .

وقد استطاعت العناصر الجرمانية أن تدعم وجودها داخل الامبراطورية فى عهد أناستاسيوس الأول ، وخاصة القوط فى إيطاليا ، والفرنجة فى بلاد الغال (فرنسا) [٢] .

وهكذا كان وضع الامبراطورية الرومانية فى مطلع القرن السادس الميلادى شديد الحرج ، حيث تكالبت عليها قوى مختلفة لتقتطع أجزاء رئيسية من كيانها المترامى الأطراف .

وعند وفاة أناستاسيوس الأول فى سنة ٥١٨م اعتلى العرش بعده جستين الأول المعروف باسم جستين الأكبر "Justin the Elder" . وقد ابتدأ بحكمه عصر الأسرة المعروفة فى التاريخ البيزنطى باسم «أسرة جستنيان» . وجستنيان هو ابن أخت جستين ، وكان صاحبَ النفوذ الأكبر فى عهد خاله ؛ فالمعروف أن جستين هذا كان جندياً أمِّياً لا يكاد يحسن التوقيع باسمه [٣] . وقد حدث خلال حكم جستين أن غزا الأحباش اليمن (سنة ٥٢٣م) بتشجيع من جستين نفسه . وكان الأحباش أحلاف بيزنطة . وقد كان سبب هذا الغزو ما قام به الملك اليهودى الحِمْيَرى ذو س ضد نصارى اليمن من اضطهاد وتنكيل بهدف التمكين لليهودية هناك . وقد

---

(1) Vasiliev, History of the Byzantine Empire, p. 115 .

(2) Ibid , pp. 110 - 111 .

ظر أيضاً : المسلمون والجرمان ، للدكتور إبراهيم العدوى ، ص ٣٧ ـ ٣٩ .

) الامبراطورية البيزنطية ، تأليف أومان ، ص ٥٢ .

نجح الأحباش فى مهمتهم واستردوا المسيحية فى اليمن (١) .

أما على الجبهة الفارسية فقد استمر جستين على سياسة سلفه العدائية ضد فارس ، فنشبت الحرب بين الجانبين فى سنة ٥٢٤م واستمرت عدة سنوات بعد تولى جستنيان الحكم ، وكانت تدور حول الحدود فى أرمينيا وبلاد الجزيرة ، وكانت الكفة الراجحة فيها بوجه عام فى جانب الفرس (٢) .

والملاحظ على أية حال أن جستين ـ خلال حكمه الذى استمر تسع سنوات ـ لم يترك بصمات واضحة فى التاريخ البيزنطى سوى أنه كان « الواسطة فى وضع أكبر حاكم منذ موت قسطنطين على عرش الشرق » ؛ فقد مات جستين فى سنة ٥٢٧م دون أن يُعْقب ، وأوصى بالعرش من بعده لابن أخته جستنيان الذى كان فى الخامسة والأربعين من عمره حينذاك (٣) .

وقد كان جستنيان هذا ، الذى يعرف باسم جستنيان الأول أو الكبير ، على قدر عال من الثقافة والذكاء والتجربة والطموح . والواضح أن شخصيته طغت على القرن السادس كله فى بيزنطة ؛ فقد حكم ثمانية وثلاثين عاما (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) ؛ هذا بالإضافة إلى أنه كان القوة المحركة للأحداث خلال حكم سلفه جستين (٤) .

وأبرز ما يوصف به عصر جستنيان هو أنه عصر الاسترداد . ذلك أن هذا الامبراطور وجه جهده الأكبر لاستعادة الأقاليم الغربية من الامبراطورية الرومانية ،

---

(١) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ، جـ ٣ ، ص٤٥٧ وما بعدها .

وانظر أيضا : S. Trimingham, Christianity among the Arabs in pre Islamic Times (Librairie du Liban, 1979), p. 289 f.; 294 ff.

(2) P. Sykes, A History of Persia, pp. 444 - 446 .

(3) D. M. Nicol, "Justinian I and his Successors", in "Byzantium : An Inroduction", (Oxfrod, 1981), p. 17 .

(٤) الامبراطورية البيزنطية ، تاليف أومان ، ص ٥٢ .

وهى تلك الأقاليم التى تمثل أهمية خاصة للامبراطورية والتى استطاعت العناصر الجرمانية السيطرة عليها قبل ذلك . وقد نجح جستنيان فى مهمته نجاحاً باهراً فاستعاد إيطاليا ومعظم شمال إفريقيا وجزءاً من إسبانيا ، وأصبح البحر الأبيض المتوسط مرة أخرى بحيرة رومانية [1] .

ولكن الملاحظ أن الحروب الاستردادية التى قام بها جستنيان فى الجبهة الغربية كانت على حساب أمن الامبراطورية فى مناطق أخرى ، وخاصة فى الجبهة الشرقية والشمالية . وقد اضطر جستنيان ـ نتيجة هذه الحروب ـ أن يعقد صلحاً جدّده أكثر من مرة مع امبراطور الفرس العظيم كسرى أنوشروان (الذى حكم من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٧٩م).. وفى سنة ٥٦٢م اتفق الطرفان على عقد صلح مدته خمسون عاماً كان من بين شروطه أن تدفع بيزنطة مبلغاً سنوياً مقداره ثلاثون ألف قطعة ذهبية لدولة الفرس [2] .

أما فى الجبهة الشمالية فقد مثل السلاف (الصقالبة) على وجه الخصوص خطراً حقيقياً على الامبراطورية البيزنطية فى عهد جستنيان ؛ حيث أخذوا يعبرون «الدانوب» كل عام تقريباً بأعداد ضخمة ويتوغلون داخل الأقاليم البيزنطية محطمين كل شىء فى طريقهم . بل إنهم أخذوا يهددون العاصمة ذاتها [3]. ورغم أن قوات جستنيان حاربتهم بضراوة ونجحت أحيانا فى إرغامهم على التقهقر فإنها لم تتمكن من وضع نهاية حاسمة لتهديداتهم نظرا لأن الغرب كان يحظى بالقدر الأكبر من الجهد العسكرى لجستنيان . وقد ظل الصقالبة يمثلون خطرا متصاعدا فى وجه الامبراطورية حتى نجحوا فى عصر لاحق فى أن يستقروا نهائياً فى شبه جزيرة البلقان [4] .

(1) Ostrogorsky, op. cit, p. 71

ظر أيضاً : العالم البيزنطى ، تاليف هسى ، ترجمة د/ رافت عبد الحميد ، ص ١١١ .

(2) Sykes , op . cit , pp. 451 - 454 ; cf. Bury , A History of the Later Rom Empire, vol . II, pp . 79 ff .

(3) Vasiliev, op . cit, p. 140 .

(4) Ostrogorsky , op. cit., p . 72

هكذا يمكن القول إن نجاح جستنيان فى الجبهة الغربية جاء على حساب فشله فى الجبهة الشرقية والشمالية . ويكاد المؤرخون المحدثون يجمعون على أن النجاح الذى أحرزه جستنيان فى الغرب كان نجاحا صوريا يحمل فى طياته بذور الدمار . لقد أراد جستنيان ـ كما يقول «أوستروجرسكى» ـ « أن يجعل من حكمه بداية عصر مزدهر فى دولة الروم فكان نهاية عصر مزدهر » (١) ؛ وما ذلك إلا لأنه مهد السبيل لتدهور الامبراطورية بتوريطها فى حروب استنزافية أنهكت اقتصادها ولم تعد عليها بكبير جدوى فضلا عن أنها أحدثت دماراً مروّعاً فى البلاد المفتوحة (٢).

على أن أعظم ما خلَّد اسم جستنيان الأول فى التاريخ أمران : أولهما عمله القانونى العظيم المتمثل فى إعادة تنسيق وتنقيح القانون الرومانى القديم وإخراجه فى شكل موسوعى عملى يلبى حاجات العصر فأصبح يحتل عند الأجيال التالية مكانة متميزة فى التشريع جعلته يوصف بأنه «أبو القانون» (٣) . أما الأمر الثانى فيتمثل فى إنجازاته المعمارية الرائعة التى يُعَدُّ أبرزها بلا جدال إعادة بنائه لكنيسة «آيا صوفيا Hagia Sophia» (٤) فى القسطنطينية ، التى ما زالت حتى يومنا هذا تحتل مكانا بارزاً بين روائع التحف المعمارية فى العالم ، وهى الآن مسجد السلطان محمد الفاتح باستانبول (٥) .

توفى جستنيان فى سنة ٥٦٥م فى سن الثالثة والثمانين . وقد تعاقب على عرش الامبراطورية البيزنطية بعد وفاته حتى تولى هرقل فى سنة ٦١٠م أربعة أباطرة : أولهم جستين الثانى أو الأصغر " Justin the Younger " (٥٦٥ ـ ٥٧٨م) الذى شهد حكمه مولد الرسول محمد ﷺ فى عام ٥٧٠ (أو ٥٧١م) ، وهو

(1) Ostrogorsky, Loc. cit.

(2) Davis, History of Medieval Europe, p. 57 .

(٣) انظر : الامبراطورية البيزنطية ، تاليف أومان ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٤) ومعناها : الحكمة المقدسة فى اللغة اليونانية .

(5) See Philip Whitting in his article " Byzantine Art and Architecture ", published in "Byzantium : an Introduction" (Oxford, 1981), p. 146 f .

المعروف باسم «عام الفيل» ؛ كما شهد حكمه فى العام ذاته محاولة غزو الأحباش للكعبة من مستعمرتهم فى اليمن بقيادة «أبرهة» وهى المحاولة التى انتهت بالفشل والتى أشار إليها القرآن الكريم فى سورة الفيل (١) . ولم يطل حكم الأحباش لليمن بعد هذا الحادث ؛ فقد استنجد عرب اليمن ـ بزعامة سيف بن ذى يزن ـ بالفرس لمساعدتهم على التخلص من نير الأحباش الذين بدأ غزوهم لليمن فى سنة ٥٢٣م فى عهد جستين الأول وبتشجيع منه كما أسلفنا . وقد رحّب امبراطور الفرس كسرى أنوشروان بهذه الفرصة ورأى فيها خير وسيلة للقضاء على إحدى مناطق النفوذ البيزنطى بالقرب من حدوده . ومن هنا أرسل فى عام ٥٧٥م حملة إلى اليمن قضت على نفوذ الأحباش بها ومكنت للنفوذ الفارسى هناك . وقد ظلت اليمن تخضع لسلطان الفرس منذ ذلك الحين حتى الفتح الإسلامى (٢).

أما ثانى الأباطرة الذين تولوا الحكم بعد وفاة جستنيان وقبل مجيئ هرقل فهو طيباريوس قسطنطينوس Tiberius Constantinus المعروف باسم طيباريوس الأول (٥٧٨ ـ ٥٨٢م) ، وقد كان يعمل رئيساً لحرس القصر فى عهد سلفه جستين الثانى، وكان من ألصق الناس به (٣) . ثم تولى بعده موريس Maurice الذى يكاد يجمع المؤرخون على أنه كان من أعظم حكام تلك الفترة (٤) .وقد ظل موريس فى منصبه عشرين عاماً (٥٨٢ ـ ٦٠٢م) ، ثم ثار عليه الجند بزعامة ضابط صغير الرتبة يُدْعَى فوكاس Phocas ، فأمر هذا بقتل موريس ، ثم نصّبه الجند امبراطورا فى سنة ٦٠٢م . وقد استمر فوكاس فى الحكم حتى ثار عليه هرقل

---

(١) سورة رقم [١٠٥] . وحول محاولة أبرهة غزو مكة انظر : Hitti, History of the Arabs, p. 64 وانظر أيضاً : تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، ص ١٣٠ ـ ١٣٩ . ولمناقشة الآراء المختلفة حول حملة أبرهة وتاريخها انظر : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ، جـ ٣ ، ص ٥٠٧ ـ ٥٢١ .

(٢) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، ص ١٣٩ وما بعدها وانظر أيضاً : Hitti, History of the Arabs, p. 65 f .

(٣) الامبراطورية البيزنطية ، تاليف نورمان بينز ، ص ٤٨ .

(٤) انظر على سبيل المثال : Ostrogorsky, op. cit, p. 80, Nicol, op . cit., p. 29; Vasiliev, op. cit., p . 169 .

وخلعه وقتله فى سنة ٦١٠م ، وبدأ بذلك حكم أسرة جديدة فى التاريخ البيزنطى كان عصرها حافلاً بكبار الحوادث وهى أسرة هرقل .

وقد تكالب على الامبراطورية البيزنطية - خلال الفترة الممتدة من وفاة جستنيان الأول حتى تولىّ هرقل - عدد من الخصوم الألدّاء الذين مثلوا تهديدا حقيقيا لأمنها وسلامتها ، وهم اللمبارد [١] ، والآفار [٢] ، والصقالبة [٣] ، والفرس . ولكن

(١) اللمبارد إحدى القبائل الجرمانية العديدة . وكانوا يقيمون فى الجزء الأوسط من حوض الدانوب فى هنغاريا . وقد استطاعوا فى سنة ٥٦٨م أن يكوّنوا مملكة لهم فى شمال إيطاليا بزعامة ملكهم البوين Alboin وخلعوا اسمهم على تلك المنطقة التى عرفت باسم «لمبارديا» . وقد عجز الأباطرة البيزنطيون عن القضاء على مملكة اللمبارد ، ولم ينجح فى ذلك إلا ملوك الفرنجة بعد قيامها بأكثر من قرن ونصف . راجع : الامبراطورية البيزنطية ، تأليف أومان ، ص ٩٠ - ٩١ وانظر أيضاً :
Vasiliev, History of the Byzantine Empire, p. 172; Bury, A History of the Later Roman Empire , vol . II, p. 160 ff .

(٢) الآفار سلالة بدوية تترية من آسيا الوسطى . وقد ظهروا كقوة مؤثرة فى الساحة البيزنطية فى عصر جستنيان ، ولكن جستنيان استطاع أن يروضهم ويتخذهم حلفاء له ضد أعدائه الكثيرين . ثم بدأ الآفار يطمعون فى اتخاذ موطن دائم لهم فى الجزء الجنوبى من حوض الدانوب داخل الأراضى البيزنطية ، فاضطر الامبراطور جستين الثانى فى سنة ٥٧٤م أن يدفع لهم فدية مقابل تخليّهم عن هذا المطلب . ولكن خطر الآفار لم ينته تماماً بل ضموا صفوفهم إلى الصقالبة وأخذوا يعبرون الدانوب فى أعداد هائلة قبيل نهاية القرن السادس الميلادى وفى أوائل السابع طلبا للاستقرار فى أراضى الامبرطورية . انظر :
Vasiliev, op. cit., p. 171 f.

(٣) رغم ظهور الصقالبة فى الأراضى البيزنطية منذ أوائل القرن السادس الميلادى فى عصر الامبراطور أناستاسيوس الأول كما أشرنا سابقاً ، ورغم تزايد خطرهم على بيزنطة بصورة واضحة فى عصر جستنيان فإنهم لم يصبحوا مشكلة تستعصى على الحل إلا بعد وفاته . وكانت شبه جزيرة البلقان هى مطمحهم الأكبر ؛ فقد أخذوا يعبرون نهر الدانوب فى أعداد لا مثيل لها فى الجزء الأخير من القرن السادس وأوائل السابع واستوطنوا فيما عرف بعد ذلك باسم يوغوسلافيا واليونان . وقد خاض الامبراطور «موريس» ضدهم بعض المعارك الناجحة ابتداء من سنة ٥٩٢م ولكنه لم يستطع أن ينتصر عليهم انتصاراً حاسماً . ثم انتهى صراع موريس ضد الصقالبة بقتله على يد جنده فى سنة ٦٠٢م حين أصدر الامبراطور أوامره بأن يقضى الجيش الشتاء القارس شمالى نهر الدانوب . وقد نصب الجيش «فوكاس» امبراطورا فى نوفمبر سنة ٦٠٢ بعد مقتل موريس . ومنذ ذلك الوقت بدأ الاحتلال الصقلبى لشبه جزيرة البلقان على نطاق واسع . ولم يفلح الامبراطور هرقل - قاهر الفرس - فى وضع حد لهذا الغزو الذى اقتطع جزءاً من أهم أجزاء الدولة البيزنطية . راجع : =

المؤكـد أن الفرس كـانوا أقـوى هؤلاء الخصـوم شكيمـة وأكـثرهم تهـديداً لأمن البيزنطيين . وقد ذكرنا أن جستنيان عقد معهم فى سنة ٥٦٢م معاهدة سلام مدتها خمسون عاماً تعهد فيها بدفع فدية سنوية كبيرة ، وذلك حتى يستطيع توجيه جهده الأساسى للجبـهة الغربية . ولكن جـستين الثانى رفض أن يستـمر فى دفع الفدية التى التزم بها جـستنيان ظنا منه أن كسرى أنوشروان الذى كـان فى حدود السبعين من العمر حـينذاك سوف تقعده شـيخوختـه عن خوض حرب انتقـامية ، «ولكن الأسد العجوز كان ما زال يمثّل عدوا خطيراً » [1] ، فقد نشبت الحرب بين القوتين العظميين فى سنة ٥٧٢م وقـادها أنوشروان بنفسه . ثم واصل سـياسته الهجـومية أيضاً ابنه وخلـيفتـه هرمز الرابع (٥٧٩ ـ ٥٩٠م) [2] . وقد استـمرت هذه الحرب عشرين عـاما أحرز الفرس فى بداياتها بعض الانتصـارات ، واستولوا على «دارا» من بلاد الجزيرة [3] ، وتوغلوا فى سوريا ووصلوا بغاراتهم حتى أبواب أنطاكية [4] ولكن الصراع الداخلى على العرش فى فارس اضطر كسرى الثانى «خسرو برويز» ، الذى تولى الحكم فى سنة ٥٩٠م ، إلى عـقـد الصلح مع الامبـراطور البيـزنطى مسوريس والتنازل لـه عن بعض الأراضى [5] . وكان خـسرو برويز قد استـعان بموريس فى ذلك الصـراع الداخلى من أجل تأمين عرشـه فلم يتباطـأ موريس عن ساعدته [6] ، فـحفظ له خـسرو هذا الصنيـع . ثم تطورت الأحداث فى بيـزنطة

Ostrogorsky , History of the Byzantine State, pp. 82, 93 ff. ; Nicol, Justinia and his successors, p.31 ff.

(1) Sykes , A History of Persia, vol. I, p. 456 .

(2) Ibid., p. 476 .

كانت الجزيرة Mesòpotamia فى الفترة الرومانـية البيزنطية منطقة موزعـة النفوذ بين الفرس والروم ظلت كذلك حتى الفتح الإسلامى . انظر :

M. Canard, the article "Al - Djazira", in : "The Encyclopedia of Isla New Edition .

(4) Sykes, op. cit., p. 456 . (5) Vasiliev, op. cit., p. 171 .

١ دار هذا الصراع الداخلـى بين خسرو برويز وبين قـائد جيشـه بهرام . وكانت الغلـبة فى البداية لبـهرام فاضطر «خسرو» إلى اللجوء إلى الامبراطورية البيـزنطية حيث رحب به «موريس» وأمدّه بقوة بيزنـطية =

بصورة شجعت خسرو برويز على التدخل ؛ ذلك أنه عندما ثار فوكاس على موريس فى سنة ٦٠٢م وعزله وقتله اتخذ خسرو ذلك الحادث ذريعة للهجوم على بيزنطة حيث ادَّعى أنه يريد الثأر لمقتل صديقه وحليفه «موريس» (١) . وهكذا نشبت الحرب مرة أخرى بين الطرفين فى سنة ٦٠٣م بعد صلح دام عشر سنوات ، وكانت أشد عنفاً وضراوة . واقتحم الفرس دفاعات الحدود ووصلوا فى زحفهم إلى ولايات آسيا الصغرى نفسها ، واستولوا على قيصرية Caesarea ، واقتربوا من القسطنطينية (٢) . ولم يكتف «فوكاس» بوقوفه عاجزاً أمام هذا الطوفان الفارسى ، بل زاد على ذلك بأن فرض حالة من الرعب والفزع على رعاياه ، وخاصة فى القسطنطينية ، ولم يكن يتورع عن القتل لأدنى شبهة (٣) . وقد أدت هذه الظروف كلها بسكان القسطنطينية إلى الاستنجاد بنائب إفريقية ، وهو هرقل المسنّ ، الذى كان يحمل لقب إكْزَرْك Exarch ، ليخلصهم من براثن الطاغية . وكانت ولاية إفريقية فى ذلك الوقت بمنأى عن الفتن والاضطرابات . فاستجاب هرقل لهذا النداء وأرسل ابنه الشاب ـ واسمه هرقل أيضاً ـ على رأس أسطول إلى القسطنطينية لتنفيذ المهمة . ولم يجد هرقل الابن صعوبة تذكر في دخول العاصمة والإطاحة بفوكاس الذى لم يجد من يدافع عنه ، ففتك به جنود هرقل . وفى الخامس من أكتوبر سنة ٦١٠م تم تنصيب هرقل الابن امبراطورا فى كنيسة «آيا صوفيا» على يد بطريرك القسطنطينية ، فبدأ بذلك حكم أسرة من أشهر الأسر فى التاريخ البيزنطى كله ، وهى أسرة هرقل (٤) .

= استطاع خسرو بمساعدتها أن يسترد عرشه وأن يقضى على الثائر . انظر : Sykes, op . cit ., p. 478 f.

(1) For more details see, A.N. Stratos, Byzantium in the Seventh Century , vol. I, pp. 57 - 59 .

وانظر أيضاً : العالم البيزنطى ، تاليف هسّى ، ص ١٢١ ، ١٢٢.

(2) Sykes, op.cit., p. 480 f. See also, Ostrogorsky, op. cit., p. 85 .

(٣) راجع : الامبراطورية البيزنطية ، تاليف أومان ، ص ١٠١ .

(4) Ostrogorsky, op. cit., p. 85 .

ولم يتوقف الفـرس عن عقاب الامبـراطورية البيزنطيـة بعد مصرع «فـوكاس» الذى قتل حـليفهم فـيمـا يزعمون ؛ بل اسـتأنفـوا هجومهم المدمـر على أراضى الامبراطورية بعد فترة قصيرة من تتويج هرقل . ففى سنة ٦١١م زحفوا إلى شمال الشام واحتلوا أنطـاكية التى كانت أهم مدينة رومـانية فى آسيا وعـاصمة الولايات الآسيوية فى الامبراطورية البيزنطية (١) . وبعد ذلك بقليل احتلوا دمشق. وبعد أن أكملوا غزوهم لسـوريا تقدموا نحو فلسطين واحـتلوا بيت المقدس فى سنة ٦١٤م بعد حصار دام عشرين يـوما فأنزلوا بأهلها مذبحة مروِّعة راح ضحيـتها ستون ألفا أو يزيدون (٢) . وقد انضم يهود بيت المقدس إلى الفرس واشتـركوا اشتراكاً فعلياً فى هذه المذابح (٣) . ومما زاد من هول الصدمـة فى نفوس البيـزنطيين أن الفرس اسـتـولوا على الصليب المقـدس ، وهو الذى يـعرف بـاسم صليب الصلبـوت ، وحملوه مـعهم إلى المدائن Ctesiphon عاصمة امبراطوريتـهم ، كما أخذوا معهم عـددا هائلا من الأسـرى وفيـهم بطريرك بيت المقـدس (٤) ثم توغّل الـفـرس فى ولايات آسيا الصغرى وكانوا قاب قوسين من القسطنطينية (٥) وقد توّجوا فتوحاتهم بالزحف إلى مصر والاسـتيلاء على الإسكندرية عاصمـتها فى سنة ٦١٨ (أو سنة ٦١٩م) . وكان سقوط مصر فى يد الفرس ضربة هائلة للامبراطورية البيزنطية لأن مصر كانت تمثّل مخزن غلال الامبراطورية (٦) . والجدير بالذكـر أن القرآن الكريم أشار إلى هذه الأحداث فى قـوله تعالى : ﴿الـٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ (٧) .

---

(1) Streck - H . A . R. Gibb, the article "Antakiya" in "The Encyclopedia of Islam" , New Edition .

٢) راجع التفاصيل فى : Sykes, op. cit., p. 482; Vasiliev, op. cit., p. 195

٣) يروى أن ستة وعشرين ألفا من اليهود (وفى رواية أخرى : ستة وثلاثين ألفا) انضموا إلى القائد الفارسى شهر براز فى حصاره لبيت المقدس . انظر : Stratos, op. cit., p. 108; Sykes, Loc. cit

(4) Vasiliev, Loc . cit.; Sykes, Loc. cit .

(5) Vasiliev, op . cit., p. 196 .

(6) Idem .

(٧) سورة الروم : ١ ـ ٤ .

ولم يستطع هرقل أن يتخذ خطوة حاسمة ضد الفرس إلا فى ربيع عام ٦٢٢م، وهو العام الذى شهد هجرة محمد ﷺ من مكة إلى المدينة . فبعد أن جنّد هرقل أعدادا هائلة من المحاربين وأعدَّهم إعداداً جيداً للقتال قاد فيما بين عام ٦٢٢ و ٦٢٨م عدة حملات مظفرة ضد الفرس ، استطاع فى أولاها أن يطردهم من آسيا الصغرى وأن يهزم قائدهم شَهْرْ بَرَاز Shahr - Baraz هزيمة منكرة ، ثم استطاع فى حملة أخرى أن يسترد بلاد الجزيرة ، وكان الفرس قد استولوا عليها أثناء حكم فوكاس ، وألحق هزيمة ثانية بالقائد «شهر براز». أما حملته الأخيرة والحاسمة فقد كانت فى ١٢ من ديسمبر سنة ٦٢٧م واستطاع خلالها أن يسحق قوات الفرس فى معركة «نينوى» Nineveh بالقرب من مدينة الموصل الحالية بالعراق ،وأن يزحف إلى الولايات الفارسية نفسها ويعود محملا بنفيس الغنائم [١].

وقد حدث من التطورات الداخلية فى فارس فى تلك الأثناء ما عجَّل بخضوعها الكامل لإرادة هرقل . فقد ثار على «خسرو برويز» ابنُه «قباذ شيرويه» Kawad Sheroe ، المعروف بقباذ الثانى ، وخلعه ، وتولى مكانه فى الخامس والعشرين من فبراير سنة ٦٢٨م . وبعد ذلك بعدة أيام مات «خسرو برويز» فى ظروف غامضة . وأيقن «شيرويه» أنه لا جدوى من مواصلة سياسة أبيه ، فأرسل إلى هرقل يستعطفه ويعرض عليه الصلح ، فأجابه هرقل إلى طلبه بشرط أن يتخلى عن كل ما استولى عليه الفرس من الأراضى البيزنطية وأن يطلق سراح جميع الأسرى البيزنطيين وأن يدفع غرامة حربية وأن يرد جميع ما أخذه من نفائس كنائس بيت المقدس بما فى ذلك الصليب المقدس ، فلم يجد شيرويه بدا من الإذعان لشروط هرقل ، وتم توقيع الصلح فى ربيع سنة ٦٢٨م [٢] .

---

(١) لمزيد من التوسع ارجع إلى :

Sykes, op. cit; pp. 483 - 486; Vasiliev, op. cit; pp. 197 - 198 ; Ostrogorsky, op. cit., pp. 100 - 103 .

وانظر أيضاً : الدولة البيزنطية للدكتور السيد الباز العرينى ، ص ١٢٧ .

(٢) الامبراطورية البيزنطية ، تاليف أومان ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ . ولمزيد من التفاصيل راجع : =

وهكذا عاد هرقل إلى القسطنطينية بين مظاهر البهجة ومواكب النصر بعد ست سنوات قضاها فى ميدان القتال [1] وفى ربيع سنة ٦٣٠م توجه إلى بيت المقدس حيث أعاد «الصليب المقدس» الذى استرده من الفرس ، إلى مكانه فى احتفال مهيب أقيم فى الحادى والعشرين من مارس سنة ٦٣٠م [2] . وبهذه النهاية المظفرة أسدل الستار على تلك الحرب الضروس التى بدأت فى سنة ٦٠٢م وكادت تعصف بكيان الامبراطورية البيزنطية .

وقد كانت فتوح هرقل هذه من العظمة بحيث يقارنها بعض المؤرخين بفتوحات الإسكندر الأكبر [3] . وكان يبدو للعالم كله فى ذلك الوقت أن بيزنطة قد تربعت على عرش القوة والسيادة . وقد أرسل عاهل الهند مهنئاً هرقل ، كما أرسل ملك الفرنج «داجو بيرت» يطلب عقد سلام دائم مع امبراطورية الروم [4] . ولكن القدر كان يخفى لهرقل مفاجأة من نوع آخر ؛ فبعد حوالى عامين من إحراز نصره النهائى على الفرس فى معركة «نينوى» انطلقت الشرارة الأولى فى المواجهة الإسلامية البيزنطية عند مؤتة (سبتمبر سنة ٦٢٩م) ؛ وبدأت بذلك مرحلة جديدة ومتميزة فى التاريخ البيزنطى .

A. N. Stratos, Byzantium in the Seventh Century, vol . I, pp. 226 - 230 =

(١) الدولة البيزنطية ، للدكتور السيد العرينى ، ص ١٢٨ .

(2) Ostrogorskg, History of the Byzantine State, p. 104 .

(3) Vasiliev , History of the Byzantine Empire , p. 197 .

(4) Ibid; p. 199. See also, Stratos, op. cit ; pp. 308 - 309 .

الفصل الأول

علاقة عرب الشام والحجاز بالبيزنطيين قبل ظهور الإسلام

بدأت العلاقة بين العرب والبيزنطيين قبل ظهور الإسلام بعدة قرون . وهذا طبيعى ؛ فقد كانت حدود الجزيرة العربية تتاخم أقاليم الدولة البيزنطية فى الشام وبلاد الجزيرة ، كما أن مصر نفسها ـ رغم بعدها النسبى ـ لم تكن بمنأى عن تلك العلاقة .

وقد كان الطرف البيزنطى فى الغالب يمثل العنصر الفاعل فى هذا الاحتكاك ، سواء على المستوى السياسى أم الاقتصادى أم الدينى . . . إلى آخره . وليس ذلك بمستغرب ؛ فقد كانت الامبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت تمثل أعظم القوى فى العالم كله ، لا نستثنى من ذلك قوة الفرس التى كانت تنافسها فى العظمة ، وربما تفوقت عليها فى أحيان قليلة . ومن هنا كان التأثير البيزنطى على العرب أكثر وضوحاً وتأكيداً من التأثير الفارسى .

وقد آثرنا أن نقصر حديثنا فى هذا الفصل على علاقة عرب الشام والحجاز بالبيزنطيين دون أن نتعدى ذلك إلى الحديث عن عرب اليمن والعراق والجزيرة لأن علاقة الأولين بالبيزنطيين قبل الإسلام كانت لها انعكاساتها الواضحة على مجرى العلاقة بين المسلمين والبيزنطيين فى عصر الرسول ﷺ .

أولاً : علاقة عرب الشام بالبيزنطيين :

كان من عادة البدو فى شبه الجزيرة العربية ـ وبالأخص فى المناطق المتاخمة لحدود الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية ـ أن يقوموا بغارات سريعة على الحدود لم يكن هدفها الغزو والتوسع بل مجرد النهب والسلب . وقد كانت هذه الغارات

أشبه شيء بحرب العصابات أو حرب عمادُها الكروالفر ؛ وهو جانب لم تكن الامبراطوريتان العظميان على خبرة كبيرة فيه . وهكذا وجد البيزنطيون والفرس أن خير وسيلة لحماية حدودهما من تلك الغارات هي اصطناع بعض القبائل العربية وتوطينها في أراضي الامبراطوريتين وإسناد مهمة الدفاع عن الحدود إلى تلك القبائل التي عرفت كيف تتعامل مع هؤلاء البدو وتضع حدا لهجماتهم . ويضاف إلى ذلك أن الصراع المزمن بين البيزنطيين والفرس أغرى كل طرف بالاستعانة ببعض العناصر العربية تعزيزاً لموقفه ضد الطرف الآخر .

ولا شك أن أبرز من استعان بهم البيزنطيون من عرب الشام ـ تحقيقاً لتلك الأهداف ـ هما الضجاعمة والغساسنة .

(أ) الضجاعمة والبيزنطيون :

كان الضجاعمة ـ كما يرى معظم المؤرخين ـ أول من عمل في خدمة البيزنطيين من القبائل العربية (١) . والضجاعمة (أو الضجاعم) عرب من قبيلة سليح التي تُعدُّ فرعا من قضاعة ، إحدى القبائل اليمنية المشهورة (٢) وقد هاجر الضجاعمة من اليمن إلى الشام في وقت مبكر لا تحدده المصادر واستقروا في إقليم حوران (٣) . ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن تلك الهجرة حدثت في حدود عام ٢٣٠م (٤) . ومن هنا يمكن القول إن وجود الضجاعمة بالشام سبق الوجود البيزنطي نفسه .

والواضح أن الضجاعمة اتصلوا بالرومان وتعاونوا معهم في صد غارات البدو وفي الحرب ضد الفرس . ولا يمكن التسليم بما يرويه بعض المؤرخين ، مثل ابن

---

(١) انظر مثلا : كتاب المحبّر لابن حبيب ، ص ٣٧٠ ؛ ومعجم البلدان لياقوت ، جـ ٢ ، ص ٢٩٦ ؛ والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا ، جـ ١ ، ص ٧٢ . وانظر أيضاً :

Hitti, History of Syria, p. 401 .

(٢) وينتسب الضجاعمة إلى ضجعم بن سعد بن سليح . انظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، ص ٤٥٠ .

(3) Hitti, Loc . cit .

(4) De Lacy O' Leary, Arabia before Muhammad, p. 162 .

قتيبة والمسعودى وغـيرهما ، من أن الرومان ملّكوا هؤلاء العرب الأوائل على من سواهم من عـرب الشام بعد أن دخلوا فى النصـرانية [١] ؛ لسبب بـسيط هو أن الدولة الرومانية ذاتها فى ذلك الوقت لم تكن قد دخلت فى النصرانية [٢] .

وقد كـان من الطبيـعى أن يستمـر الضجاعـمة فى أداء نفس الخـدمات للدولة البيزنطية وريثة الدولة الرومانية ؛ بل إن حاجة هؤلاء إليهم قد أصبحت بكل تأكيد أكثر إلحاحا نتيجة ازدياد غارات البدو واشتداد الصراع على الجبهة الفارسية .

ولا نجد فى مصادرنا تحقيقاً وافياً عن تاريخ الضجاعمة أو تفاصيل العلاقة بينهم وبين الرومـان ثم البيـزنطيين ، بل إن ما تقـدمه لنا المصـادر فى هذا الشأن يـبدو مضطربا إلى حد كبـير . فيذكر ابن قتيبة مـثلا أن أول من دخل الشام من العرب سليح (الذين ينتمى إليهم الضجاعمة) فملّك عليهم ملك الروم رجلا منهم يقال له لنعمان بن عمرو بن مالك [٣] ؛ على حين يذكر المسـعودى أن تنوخ من قضـاعة كانوا أول من نزل الشـام من العرب وتحالفوا مع ملوك الروم فـملّكوهم بالشام ، وكان أول من ملك منهم النـعمان بن عمـرو بن مالك . ثم يضيف المسـعودى أن قبيلة سليح وردت الشام بعد ذلك فـغلبت على تنوخ « فملّكتها الروم على العرب لذين بالشام » [٤] . ولعل مدى الاضطراب واضح فى هاتين الروايتين ؛ فالنعمان بن عمرو بن مالك عند ابن قتيبة هو أول ملوك سليح (أو الضجاعمة) ، فى حين أنه هو نفسه عند المسعودى أول ملوك تنوخ الذين أزالتهم سليح بعد ذلك عن مُلْك لشام .

والذى نطمئن إليه ـ من خلال تضارب المصادر ـ أن الضجاعمة بطن من سليح

١) المعارف لابن قتـيبة ، ص ٦٤٠ ؛ ومروج الذهب للمسعـودى ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ ؛ والبدء والتاريخ للمقدسى ، جـ ٣ ، ص ٢٠٨ .

٢) راجع : De Lacy O' Leary, loc . cit .

٣) المعارف لابن قتيبة ، ص ٦٤٠ ؛ والبدء والتاريخ للمقدسى ، جـ ٣ ، ص ٢٠٨ .

٤) مروج الذهب للمسعودى . جـ ٢ ، ص ١٠٦ .

التى تنتمى إلى قبيلة قضاعة اليمنية ، وكانوا أول من نزل الشام من العرب وتحالفوا مع الرومان ثم البيزنطيين . وأثناء اتصالهم بالرومان لم تكن المسيحية قد ظهرت بينهم لأن المسيحية لم تبدأ فى الانتشار بين عرب الشام إلا فى غضون القرن الرابع الميلادى [١] .

(ب) الغساسنة والبيزنطيون :

وعندما ضعف «الضجاعمة» بالشام حل محلهم الغساسنة أو بنو غسان ، الذين يعرفون أيضاً ببنى جفنة ، ولعبوا نفس الدور الذى لعبه الضجاعمة مع البيزنطيين. وينتمى الغساسنة إلى قبيلة الأزد اليمنية ؛ فهم بنو مازن بن الأزد الذى ينتهى نسبه إلى كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . أمَّا غسان الذى ينسبون إليه فهو - كما تذكر معظم مصادرنا - اسم لماء نزلوا به فى اليمن أو فى الشام وشربوا منه فعرفوا به [٢] . ولا نعرف على وجه القطع تاريخ هجرة الغساسنة من اليمن إلى الشام ؛ وإن كانت مصادرنا تربط عادة بين هذه الهجرة وبين انهيار سد مأرب باليمن . ولما كان التاريخ الدقيق لانهيار سد مأرب غير معروف فإن تاريخ هجرة الغساسنة إلى الشام غير معروف كذلك [٣] . ويرجح بعض المؤرخين المحدثين أن

---

(١) حول انتشار المسيحية بين عرب الشام ارجع إلى :
De Lacy O' Leary, Arabia before Muhammad, pp. 163 - 164 .

(٢) مروج الذهب للمسعودى، جـ ٢ ، ص ١٠٦ ؛ والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ، جـ١ ، ص ٧٢. والمعروف أن قبيلة كهلان بن سبأ التى ينتمى إليها الأزدهى إحدى القبيلتين المشهورتين من قبائل يعرب ابن قحطان اليمنية ؛ والأخرى هى حمير . ومن أشهر بطون الأزد - بالإضافة إلى بنى غسان - الأوس والخزرج الذين عرفوا فى الإسلام باسم «الأنصار» . ويفهم من كلام المسعودى (مروج ، جـ ٢ ، ص ١٩١) أن الأوس والخزرج داخلان فى غسان . انظر أيضاً : معجم البلدان لياقوت جـ٤ ، ص ٢٠٣ . وإلى هذا يشير حسان بن ثابت بقوله :

إمَّا سألت فإنا معشر نُجُبٌ ... الأزد نسبتنا والماء غسان

انظر : العقد الفريد لابن عبد ربه ، جـ ٣ ، ص ٣٠٠ . ولكن المشهور على كل حال أن الغساسنة يراد بهم بنو مازن بن الأزد دون غيرهم .

(٣) راجع : المفصّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ، جـ ٣ ، ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

هذه الهجرة بدأت فى حدود عام ٢٥٠م [١] .

وقد ظل الغساسنة زمنا فى الشام يخضعون للضجاعمة ويدفعون لهم الإتاوة التى كان هؤلاء يجبونها للرومان ثم البيزنطيين . فلما قويت شوكة الغساسنة رفضوا الإذعان للضجاعمة ، وحدث بين الجانبين صراع للقُوَى كانت الغلبة فيه للغساسنة ، فأخرجوا الضجاعمة من الشام ، ودان لهم العرب المقيمون هناك ، فعقد معهم البيزنطيون حلفا قام مقام حلفهم مع الضجاعمة [٢] .

ويكتنف الغموض التاريخ المبكر للغساسنة وتضطرب مصادرنا بهذا الشأن . فنحن لا نعرف على وجه اليقين من هو أول ملوك الغساسنة ولا التاريخ الذى حكم فيه ؛ فنجد حمزة الأصفهانى مثلا يذكر أنه جفنة بن عمرو مزيقيا بن عامر ابن ماء السماء [٣] ، فى حين أن ابن حبيب يسميه ثعلبة بن عمرو بن المجالد [٤]. أما عند ابن قتيبة والمسعودى فهو الحارث بن عمرو [٥] ؛ ولكن المسعودى يذكر نسبه كاملاً [٦] ، بينما يسميه ابن قتيبة الحارث بن عمرو بن محرق ويلقبه بالحارث الأكبر .

ومن جهة أخرى يذكر أبو الفدا أن ابتداء ملك الغساسنة كان قبل الإسلام بأكثر من أربعمائة سنة [٧] ، ولكن حمزة الأصفهانى يذكر أن الغساسنة استمروا فى ملكهم ستمائة وست عشرة سنة [٨] .

---

(1) J. Glubb, The Life and Times of Muhammad, pp. 46 - 48; cf., Hitti , History of the Arabs, p. 78 .

(٢) كتاب المحبر لابن حبيب ، ص ٣٧١ .
(٣) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ، ص ٩٠ .
(٤) كتاب المحبر ، ص ٣٧١ . وانظر أيضاً : تاريخ ابن خلدون ، جـ ٢ ، ص ٣٢٤ .
(٥) المعارف لابن قتيبة ، ص ٦٤٢ ؛ ومروج الذهب للمسعودى ، جـ٢ ، ص ١٠٧ .
(٦) وهو الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن - وهو غسان - بن الأزد ابن الغوث .
(٧) المختصر فى أخبار البشر ، جـ ١ ، ص٧٢ .
(٨) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء، ص ٩٦ . وانظر أيضاً : العقد الفريد لابن عبد ربه، جـ٣ ، ص ٣٠٣ . وهذا يعنى أن ابتداء ملك الغساسنة كان قبل الإسلام بحوالى ستة قرون ؛ وهى رواية لا تبدو منسجمة مع ما يقرره الباحثون بخصوص وراثة الغساسنة للضجاعمة .

وتختلف مصادرنا اختلافا أشد فى إحصاء عدد ملوك الغساسنة ؛ فهم عند ابن عبد ربه سبعة وثلاثون ملكا [١] ، وعند حمزة الأصفهانى اثنان وثلاثون [٢] ، وعند أبى الفدا واحد وثلاثون [٣]، وعند ابن قتيبة والمسعودى أحد عشر ملكا [٤].

ولعل السبب فى هذا الخلاف ـ كما يذكر جرجى زيدان ـ يرجع إلى أن الغساسنة كان يتعاصر بينهم أحيانا أميران أو أكثر ، كل أمير يتولى فرعا من القبيلة [٥] ، فكان بعض المؤرخين يأخذ فى الاعتبار كل هؤلاء الأمراء ، وكان بعضهم لا يعُدُّ إلا أوسعهم سلطة أو من خلع عليه البيزنطيون لقب الملك .

ورغم اختلاف مصادرنا وتضاربها فيما يتصل بالتاريخ المبكر للغساسنة ومدة حكمهم وعدد ملوكهم فإنها تجمع على أنهم هاجروا من اليمن إلى الشام فى وقت لاحق لانهيار سد مأرب وأنهم خضعوا فى البداية لسلطان الضجاعمة من قبيلة سليح ، الذين كانوا يمثلون التحالف العربى مع الروم فى الشام ، ثم استطاع الغساسنة أن ينتزعوا السلطة من الضجاعمة وأن يحلوا محلهم فى قيادة التحالف العربى مع الروم .

وقد قام التحالف بين الغساسنة والبيزنطيين فى البداية على أساس أن يمد البيزنطيون الغساسنة بأربعين ألف مقاتل إن تعرضوا لهجوم من العرب خارج الشام؛ وأن يمد الغساسنة البيزنطيين بعشرين ألف مقاتل إن تعرضوا لهجوم مماثل من العرب ، على ألا يتدخل الغساسنة فى الصراع الدائر بين البيزنطيين والفرس [٦] . والواضح أن هذا التحالف تطور فيما بعد بحيث أصبح الغساسنة يضطلعون بمسئولية الدفاع المباشر عن الحدود السورية ضد أى هجوم عربى ، كما

---

(١) العقد الفريد ، جـ٣ ، ص ٣٠٣ .
(٢) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ، ص ٩٦ .
(٣) المختصر فى أخبار البشر ، جـ١ ، ص ٧٢ - ٧٣ .
(٤) المعارف لابن قتيبة ، ص ٦٤٢ - ٦٤٤ ؛ ومروج الذهب للمسعودى ، جـ٢ ص ١٠٩ .
(٥) انظر حول ذلك : العرب قبل الإسلام لجرجى زيدان ، ص ٢١٢ .
(٦) كتاب المحبر لابن حبيب ، ص ٣٧١ ؛ وتاريخ ابن خلدون ، جـ٢ ، ص ٣٢٤ .

أصبحوا يشتـركون اشتراكا فعلياً مع البيـزنطيين فى حروبهم ضد فارس ، بل إنهم كانوا يتولون أحيـانا ـ نيابة عن البيزنطيين ـ مهمة تأديب اللخـميين أحلاف الفرس فى العراق (١) .

وقد اعـتنق الغساسنة المسيـحية فى غـضون القرن الرابع الميلادى وقـاموا بدور ملحوظ فى نشرها بين العرب ، وخصوصاً فى إقليم الشام ومدينة نجران باليمن (٢) ولكن الملاحظ أن المسيحيـة التى اعتنقها الغساسنة كـانت على المذهب المونوفيزيتى Monophysitism (اليـعـقوبى فـيـمـا بعد) المخـالف للمـذهب الأرثوذكـسى أو الديوفيزيتى Dyophysitism وهو المذهب الرسمى للامبراطورية البيزنطية (٣) . وقد كان ذلك سببا من أسباب التوتر الذى شاب العـلاقة بين البيزنطيين والغساسنة فيما بعد ، وبالأخص خلال القرن السادس الميلادى ، كما سنوضح ذلك فى موضعه .

ولم يكن للغساسنة موطن ثابت بالشام بل كان لهم معسكر متنقل . ومع ذلك فقد ارتبط اسمـهم بعدد من الأماكن لعل أبرزها إقليم حوران وعاصـمته بصرى ، وإقليم الجولان وعاصمته الجابية . كـما أقاموا بالبلقاء واليرموك ، ومنهم من نزل لبنان وفلسطين . وقد مثلت بصرى أهم مركز دينى للغساسنة ، بينما مثلت الجابية أهم مركز سياسى لهم ، كمـا كان لمدينة جلق جنوبى حوران دور سياسى ملحوظ

(١) راجع : الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم للدكتورإبراهيم أحمد العدوى ، ص ٢٠ .

(2) Irfan Shahid, in his article "Ghassan", in " The Encyclopedia of Islam ", New Edition . See also, Hitti, History of Syria, p. 401 .

(٣) تقوم العقيدة المـونوفيزيتية فى المسيحية علـى أساس أن عيسى عليه السلام ذو طبيعة واحـدة هى الطبيعة الإلهية . أما طبيعته البشرية فقـد تلاشت تماما فى طبيعته الإلهية . والمصطلح فى أصله اليونانى يتكون من جزأين هما : (mono) بمعنى الواحد ؛ و (physis) بمعنى الطبيعة ، فمعنى المصطلح ـ إذن ـ الإيمان بمبدأ الطبيعة الواحدة . أما العقيدة الأرثوذكسـية أو الديوفيزيتية فهى تقوم على أساس أن عيسى عليه السلام ذو طبيعتين لا خلط بينهما ولا تغير فـيهما ولا انقسام ؛ فهو إله كامل وإنسان كامل ، أى أنه متحد مع الله فى جوهر الألوهية ، ومتحد مـعنا في جوهر الإنسانية . فكلمة «الديوفيزيتية» تتكون من جزأين هما : (Dyo) بمعنى «مزدوج» ؛ و (physis) بمعنى «طبيعة» . راجع :

G. Krüger, "Monophisitism" , in " Encyclopedia of Religion and Ethics " , vol . 8, pp. 812 - 813; Johnson , A History of Christianity, p. 92 .

فى تاريخ الغساسنة [1] .

وقد كان نفوذ الغساسنة يتزايد بمرور الوقت ، كما كان نطاق العلاقات بينهم وبين البيزنطيين يتسع تدريجيا وتتعدد الخدمات التى يقدمونها لهم ، وكان تاريخهم أيضاً يزداد وضوحاً وتحديداً . ومن الممكن القول إن نفوذ هذه الأسرة بلغ ذروته فى غضون القرن السادس الميلادى ، وخاصة خلال إمارة الحارث بن جبلة الذى حكم من حوالى سنة ٥٢٩ إلى ٥٦٩م واتخذ من الجابية مقرا له . وهذا الحارث ، الذى يلقب بالأعرج ويعرف أيضاً بالحارث بن أبى شَمِر أو الحارث الرابع ، كان معاصراً للامبراطور البيزنطى جستنيان الأول (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) الذى أنزل الحارث بأرفع مكان حيث عينه واليا على كل القبائل العربية بالشام ، ومن هنا خلع عليه لقب : فيلارق Phylarch ، الذى يعنى رئيس الأسباط أو شيخ القبائل ، كما أنعم عليه برتبة البطريق Patricius التى كانت تالية لرتبة الامبراطور [2] .

إن أهمية المنصب الذى تقلده الحارث تتجلى بوضوح إذا وضعنا فى الاعتبار تزايد عدد القبائل التى كانت قد استقرت بالشام حينذاك . وقد كان الحارث مسئولاً عن الإشراف على هذه القبائل وتنسيق جهودها وتوجيه خدماتها لصالح البيزنطيين . والملاحظ أن معظم هذه القبائل كان ينتمى لعرب اليمن (القحطانيين) الذين ينتمى إليهم الغساسنة . فقد اتخذت الشام موطنا فى ذلك الوقت فروعٌ من

---

١) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى ، ص ٩٠ وما بعدها ؛ معجم البلدان لياقوت ، جـ١ ، ص ٤٤١ ؛ مروج الذهب للمسعودى جـ ٢ ، ص ١٠٩ ؛ المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا، جـ ١ ، ص ٧٢ ، خطط الشام لمحمد كرد على ، جـ ١ ، ص ٦٦ . وانظر أيضاً :
Hitti, History of Syria, p. 403 .

(٢) أمراء غسان لنولدكه ، ص ١٢ وما بعدها ؛ خطط الشام لمحمد كرد على ، جـ ١ ، ص ٦٧ ؛ المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ، جـ٣ ، ص ٤٠٦ - ٤٠٧ . وانظر أيضاً :
Hitti, History of Syria, p. 402; and the same's History of the Arabs, p. 79 .
ويرى نولدكه فى المصدر السابق أن ما يزعمه مؤرخو العرب وبعض مؤرخى اليونان مثل بروكوبيوس Procopius من ان جستنيان منح الحارث لقب ملك أو Basilius غير صحيح لأن هذا اللقب كان خاصا بالقياصرة دون سواهم .

قبائل لخْم وجُذَام وكلب وجُهينة والقَيْن وبهراء وبليّ وتنوخ وسليح وعاملة وغيرها من قبائل اليمن . كما عاشت هناك - على نطاق أضيق - فروع من بعض القبائل العدنانية وبالأخص ذبيان [١] وقد استقرت هذه القبائل فى مواطن مختلفة اشتهرت بها فى الشام مثل أذرح ووادى القرى ودومة الجندل ومقنا ومعان وحماة وشيزر وغير ذلك من الأماكن [٢] وسوف يلعب الكثير من هذه القبائل دوراً بارزاً فى المواجهة بين المسلمين والبيزنطيين فى عصر الرسول ﷺ .

هكذا قام الحارث بن جبلة بدور أساسى فى قيادة التحالف العربى مع البيزنطيين فى الشام فاستحق التكريم الذى خصه به البيزنطيون . وقد كان من أكبر الخدمات التى أداها الحارث لبيزنطة إلحاقه الهزيمة بالمنذر الثالث بن ماء السماء ملك الحيرة اللخمى وحليف الفرس فى سنة ٥٤٤م ، ثم هزيمته للمنذر مرة أخرى والقضاء عليه فى سنة ٥٥٤م فى المعركة التى يرى البعض أنها «يوم حليمة» فى مصادرنا العربية [٣] كما استطاع الحارث أن يضبط زمام الأمور فى إقليم الشام خلال انشغال جستنيان بحروبه الاستردادية وأن يقوّى دفاعات الشام ضد هجمات اللخميين والفرس [٤] .

---

(١) حول الوجود العربى فى الشام قبل الإسلام ارجع إلى : خطط الشام لمحمد كرد على ، جـ١ ، ص ٢٤ وما بعدها . وانظر أيضاً :

De Lacy O' Leary, Arabia before Muhammad, p. 162 f .

(٢) من بين الأماكن الأخرى المشهورة : حمص ودمشق وجرباء وتيماء وتدمر .

(3) Hitti, History of the Arabs, p. 79; Trimingham, Christianity among the Arabs in Pre - Islamic Times, p. 185; Irfan Shahid, "Ghassan", in "The Encyclopedia of Islam", New Edition .

وانظر أيضاً : الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم للدكتور إبراهيم العدوى ، ص ٢٠ . وحليمة المشار إليها هنا هى بنت الحارث بن جبلة ؛ وقد وعد الحارث بتزويجها لمن يقتل ملك الحيرة وأعطاها طيبا وأمرها أن تطيب من مرّ بها من جنده . وفى يوم حليمة ورد المثل : « ما يوم حليمة بسر » . لمزيد من التفاصيل ارجع إلى : أيام العرب فى الجاهلية لمحمد احمد جاد المولى وزميليه ، ص ٥٤ وما بعدها .

(٤) امراء غسان لنولدكه ، ص ٢٠ ، والمفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ، جـ ٣ ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

فليس من المستغرب - إذن - أن يُسْبغ الامبراطور جستنيان على الحارث كل مظاهر الحفاوة والتكريم عندما زار الأخير القسطنطينية فى سنة ٥٦٣م (١) ؛ وكان من بين مظاهر هذا التكريم إصدار الامبراطور أمرا بتعيين يعقوب البراذعى (مطران الرها) مطرانا للكنيسة المونوفيزيتية فى سوريا ؛ وهى الكنيسة التى كان ينتمى إليها الغساسنة ومسيحيو العرب فى الشام بصفة عامة . وقد أصدر الامبراطور هذا الأمر نزولا على رغبة الحارث . ومنذ ذلك الحين اكتسبت الكنيسة السورية لقب الكنيسة اليعقوبية وحمل أتباعها لقب «اليعاقبة» (٢) .

وقد كان الحارث بن جبلة يقوم أحيانا بمهمة السفارة بين العرب المقيمين خارج الشام وبين الامبراطور البيزنطى . وكان العرب فى أنحاء الجزيرة العربية يعرفون له مكانته تلك ويطلبون وساطته فى جلائل الأمور . يروى المؤرخون بهذا الصدد أن امرأ القيس - أمير شعراء الجاهلية - طلب من الحارث بن جبلة أن يساعده فى الوصول إلى بلاط جستنيان ليستعين به ضد أعدائه من بنى أسد الذين قتلوا أباه حُجْر بن الحارث ملك كندة بمنطقة نجد . وقد استجاب جستنيان لوساطة الحارث فدعا امرأ القيس إلى القسطنطينية فى حدود عام ٥٣٠م وأمَدّه بجيش كثيف ليدرك به ثأره ويسترد ملك أبيه ، ولكن امرأ القيس توفى بأنقرة - أثناء عودته - دون أن يبلغ هدفه (٣) . وإلى بعض هذا يشير فى قوله فى إحدى قصائده المشهورة :

---

(١) أمراء غسان لنولدكه ص ١٨ .

(2) Trimingham, Christianity among the Arabs in pre - Islamic Times, p. 183; Hitti, History of Syria , p. 402 .

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر : Hitti, History of the Arabs, p. 85 . وانظر ايضا : أيام العرب فى الجاهلية لمحمد أحمد جاد المولى وزميليه ، ص ١٢٢ ، ومادة «امرؤ القيس» فى دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) ، بقلم إيوار Huart .

ولو شاء كان الغزوُ من أرض حمير ولكنه عَمْداً إلى الروم أنْفَرا

بكى صاحبى لما رأى الدربَ دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له : لا تبك عينك ! إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا [١]

وبعد وفاة الحارث بن جبلة فى سنة ٥٦٩م تولى ابنه المنذر إمارة الغساسنة حتى سنة ٥٨١م [٢] . وقد شهد حكم المنذر مولد محمد ﷺ فى سنة ٥٧٠م (أو ٥٧١م) . ولم تكن العلاقات بين البيزنطيين والغساسنة خلال حكم المنذر بنفس المستوى الذى كانت عليه من الود والمتانة خلال حكم أبيه الحارث . وقد عاصر المنذر حكم اثنين من الأباطرة البيزنطيين هما جستين الثانى (٥٦٥ ـ ٥٧٨م) وطيباريوس (٥٧٨ ـ ٥٨٢م) . وقد كان البَوْن شاسعا بين جستين الثانى وسلفه جستنيان الأول فى بعد النظرة وحسن السياسة . فرغم أن كلا الرجلين كان من أنصار الأرثوذكسية وقرارات مجمع خلقيدونيه [٣] فإن جستين الثانى لم يعرف هوادة فى مطاردة المخالفين وشن حملة اضطهاد ضدهم . ونتيجة لذلك تعرض المونوفيزيتيون أو اليعاقبة فى سوريا لإجراءات قمعية شديدة . ولما كان الغساسنة

(١) ديوان امرئ القيس بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (طبعة دار المعارف) ، ص ٦٥ - ٦٦ . والشاعر فى البيت الأول يقيم العذر لنفسه فى استعانته بملك الروم على بنى أسد دون أن يغزوهم بقومه من اليمن «أرض حمير» ؛ فهو يريد أن يشنع عليهم ويبين شرفه وفضله لمشاركة ملك الروم له . والمقصود بالدرب فى البيت الثانى هو درب طرسوس المؤدى إلى بلاد الروم ، وصاحبه هو عمرو بن قميئة اليشكرى الشاعر الذى رافق امرأ القيس فى رحلته تلك. نفس المصدر ، هامش ٣٣ و٣٤ من ص ٦٥.

(2) De Lacy O' Leary, Arabia before Muhammad, p. 165 f.

(٣) عقد مجمع خلقيدونيه (The Council of Chalcedon) فى مدينة خلقيدونيه بالقرب من القسطنطينية فى سنة ٤٥١م . وقد أدان هذا المجمع العقيدة المونوفيزيتية وأكد أن المسيح عليه السلام إله كامل وإنسان كامل ، اى أن له طبيعتين لا خلط بينهما ولا تغير فيهما ولا انقسام . وقد أصبحت قرارات هذا المجمع فيما بعد هى الأساس الذى تعتمد عليه كل التعاليم الدينية للكنيسة الأرثوذكسية . راجع حول ذلك :

Vasiliev, History of the Byzantine Empire, p. 105; Johnson, A History of Christianity, p. 92; H. Grégoire, in his article " The Byzantine Church ", published in " Byzantium ", ed . by Baynes and Moss , p. 99 .

هم أكبر أنصار المذهب اليعقوبى وأخلص المدافعين عنه فقد شملتهم لعنة الاضطهاد الدينى فى بيزنطة على يد الامبراطور جستين . ولم ينجُ الأمير الغسانى المنذر بن الحارث من هذه اللعنة ، بل ولم يشفع له عند الامبراطور ما أداه له من خدمة جليلة حين سحق الهجوم الشرس الذى شنه ملك الحيرة اللخمى قابوس بن المنذر على الحدود السورية فى سنة ٥٧٠م (١) . لقد حاول جستين الثانى التخلص من المنذر بتدبير مؤامرة لاغتياله كان مصيرها الفشل وكان من أخطر نتائجها إعلان الغساسنة الثورة على البيزنطيين . ولكن استئناف الهجوم الفارسى على الحدود البيزنطية فى أواخر حكم الامبراطور الفارسى كسرى أنوشروان جعل البيزنطيين يستميلون الغساسنة ويخطبون ودهم ليضمنوا عونهم فى ذلك الصراع . وعندما توفى جستين الثانى فى سنة ٥٧٨م حاول خلفه « طيباريوس » أن يكسب ولاء الغساسنة تلبية لمتطلبات الصراع ضد الفرس. وفى عهد هذا الامبراطور زار المنذر ابن الحارث القسطنطينية (فى حوالى سنة ٥٨٠م) بصحبة اثنين من أبنائه، فاستقبله طيباريوس بكل مظاهر الحفاوة وألبسه التاج تكريما له،واعترف به ملكا على العرب كما فعل جستنيان مع الحارث الرابع. ولكن طيباريوس لم يلبث أن شك فى ولاء المنذر بعد عودته إلى الشام، متهما إياه بالتفاهم مع الفرس، فدبر مؤامرة للقبض على المنذر ونفذها بنجاح فى حفل افتتاح إحدى الكنائس فى حُوارين (بين دمشق وتدمر) فى سنة ٥٨١م ، وحُمل المنذر أسيرا إلى القسطنطينية حيث أدين بالخيانة ونُفِى إلى صقلية . وفى نفس الوقت أصدر طيباريوس الأمر بإيقاف المعونة

---

١) يرجح كثير من المؤرخين المحدثين أن هذه المعركة بين الغساسنة واللخميين هى التى تعرف فى مصادرنا العربية باسم « يوم عين أباغ » . انظر مثلا :خطط الشام لمحمد كرد علي ، جـ١ ، ص ٦٧ ؛ أمراء غسان لنولدكه ص ٢٧ وما بعدها ؛ وانظر أيضاً : De Lacy O' Leary, op. cit; p. 165 ولكن المصادر العربية بصفة عامة تشير إلى حدوثها بين الحارث بن جبلة الغسانى والمنذو بن ماء السماء اللخمى . انظر الكامل لابن الأثير ، جـ١ ، ص ٥٤٠ . وانظر التفاصيل فى : أيام العرب فى الجاهلية لمحمد أحمد جاد المولى وزميليه ، ص ٥١ وما بعدها . ومهما يكن من خلاف حول اسم المعركة فإن الذى لا خلاف حوله أن المنذر بن الحارث الغسانى أنزل هزيمة ساحقة باللخميين فى عهد الامبراطور جستين الثانى .

المادية السنوية التى كانت بيزنطة تدفعها للغساسنة [١] . وقد كان لهذا التصرف الغادر صداه البعيد المدى بين عرب الشام عموماً فضلا عن الغساسنة الذين أسخطهم ما حل بأميرهم فأعلنوا الثورة على البيزنطيين بقيادة النعمان ، أكبر أولاد المنذر بن الحارث؛ ولكن الامبراطور موريس الذى تولى السلطة سنة ٥٨٢م تمكن بالغدر والحيلة من أسره وإرساله إلى القسطنطينية ، فى سنة ٥٨٢ أو ٥٨٣م [٢] ، وقد أعقب ذلك حالة من الفوضى والاستياء بين عرب الشام ، ففقد البيزنطيون تقريباً ما كان لهم من ولاء عربى فى هذا الإقليم . فعند ما اجتاح الغزو الفارسى الشام فى سنة ٦١٣ ـ ٦١٤م لم يقدِّم الغساسنة ولا العرب عموما فى الشام عونا للبيزنطيين ضد الفرس ، ولا نجد فى مصادرنا إشارة واضحة عن دورهم خلال تلك الحرب . ويمكن القول إن الغزو الفارسى للشام وجه ضربة قاسية لإمارة الغساسنة وأفقدها مبررات استمرارها . فقد قامت هذه الإمارة ـ كما سبق القول ـ بهدف صد غارات بدو الجزيرة العربية على حدود الشام ومساعدة البيزنطيين فى حروبهم ضد الفرس . وقد قلب الغزو الفارسى كل هذه الموازين بإخضاعه بلاد الشام لحكم آل ساسان . ومع ذلك فقد ظل الغساسنة يحظون بتأييد عرب الشام رغم زوال التأييد البيزنطى الرسمى[٣] . ولكن الواضح أن هرقل ـ بعد أن هزم الفرس وطردهم من الشام ـ حاول أن يصل مرة أخرى ما انقطع بين البيزنطيين وعرب الشام بصفة عامة ، وبينهم وبين الغساسنة بصفة خاصة . فيذكر مؤرخونا

---

(١) ويبدو أن هذه المعونة أعيدت مرة أخرى فى عهد هرقل فى ظروف مختلفة (انظر ما يلى ، ص ٤٦) ؛ أو لعل قطع المعونة عن الغساسنة لم يعن قطع المعونة عن بقية القبائل العربية التى كانت تدور فى فلك بيزنطة فى الشام . انظر حول ذلك :

Glubb, The Great Arab Conquests , p. 125 .

(٢) لمزيد من التفاصيل حول العلاقة بين الغساسنة والبيزنطيين فى عهد المنذر بن الحارث وابنه النعمان ارجع إلى : المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على جـ ٣ ، ص ٤١٢ - ٤١٧ . وانظر أيضاً :

Trimingham, Christianity among the Arabs, pp. 185 - 187; Hitti, History of Syria, p. 403 f. ; De Lacy O' Leary, Arabia before Muhammad, p. 165 f.

(3) Glubb, The Life and Times of Muhammad, p. 52; Timingham, op. cit; p. 187 .

عددا من أمراء الغساسنة بالشام ممن كانوا نُوأباً لهرقل حين أرسل الرسول ﷺ كتبه إلى الملوك والأمراء [١]. على أن المؤرخ البيزنطى «ثيوفانس» يحدثنا أن هرقل - بعد الحملة الإسلامية فى مؤتة - أمر بقطع المعونة البيزنطية عن عرب الشام مما أغراهم بالانضمام إلى المسلمين فيما بعد [٢] . ولكننا نلاحظ - مع ذلك - أن جبلة بن الأيهم، آخر ملوك الغساسنة بالشام ، كان فى صفوف البيزنطيين فى معركة اليرموك (فى خلافة عمر بن الخطاب) . ثم أسلم ، ولكنه ارتد بعد قليل ولحق بالروم [٣]. ومن هنا يمكننا أن نستنتج أن هرقل - حتى بعد حملة مؤتة - كان حريصاً على ألا يفقد تماما ولاء الغساسنة ومن يلوذ بهم من عرب الشام ؛ فقد كان يدرك أهمية هذا الولاء فى توجيه الصراع القادم بينه وبين المسلمين .

ثانياً : علاقة عرب الحجاز بالبيزنطيين :

لعل أهم ما كان يربط عرب الحجاز بالبيزنطيين هو العلاقات التجارية ؛ فقد اشتهر الحجازيون - وخاصة سكان مكة - بنشاطهم التجارى . وكان أبرز ما اتجهت إليه رحلاتهم التجارية هى أقاليم الدولة البيزنطية ، وفى مقدمتها إقليم الشام ، وذلك فى رحلة الصيف الشهيرة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم [٤] . ولا شك أن إقليم الشام كان المصدر الأول للغلال بالنسبة لعرب الحجاز . وقد أصبحت مكة مركز النشاط التجارى فى منطقة الحجاز بحكم موقعها على طريق القوافل بين اليمن والشام ولوجود بئر زمزم بها [٥] وفى البداية كانت مكة مجرد معبر لتجارة

---

(١) انظر مثلا : تاريخ الطبرى ، جـ٢ ، ص ٦٤٤ ، ٦٥٢ ، تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ، ص ٧٨ ؛ التنبيه والإشراف للمسعودى ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ؛ جوامع السيرة لابن حزم ، ص ٢٩ - ٣٠ .

(2) Theophanes, Chronographia, p. 335 . See also, Stratos, Byzantium in the Seventh Century, p. 314 .

(٣) حول الروايات المختلفة لقصة ارتداد جبلة ولحاقه بالروم راجع : المعارف لابن قتيبة ، ص ٦٤٤ ؛ الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ، جـ١٥ ، ص ١٦٢ - ١٦٣ ؛ العقد الفريد لابن عبد ربه ، جـ١ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ؛ المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ، جـ١ ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٤) سورة قريش : ١- ٤ .

(5) De Lacy O' Leary, Arabia before Muhammad, p. 183 .

الحبشــة واليمن فى طريقها إلــى أقاليم الدولة البيزنطيــة ، ثم لم يلبث المكيون أن ضربوا بسهم وافر فى هذا النشاط التجــارى ، فكانوا يترددون على الحبشة واليمن وأقاليم الــدولة البيزنطــية بأصناف السلع التى تنتــجهــا هذه البقــاع . وكان طريق الحجاز التجارى ينتهى إلى حدود الدولة البيــزنطية عند مدينة أيلة (العقبة حاليا) ، ثم تتجه القوافل من هناك إلى مدينة غزة على البحر الأبيض المتوسط أو إلى مدينة بصرى جنوبى دمــشق . وقد أتاحت مــدينة غزة للتجــارة العربيــة طريق الاتصال بتجارة البحر الأبيض المتوسط [١] . ولا شك أن هذه الصلات التجارية بين الحجاز والدولة البيــزنطية أفــسحت المجال للتــأثير السيــاسى والدينى والثقــافى من جانب البيزنطيين .

ولابد من الإشارة فى هذا الســياق إلى أن البيــزنطيين نجحوا فــى السيطرة على جنوب شبه الجزيرة العربية عن طريق أحلافهم الأحباش فى سنة ٥٢٥م وذلك حين أثار اضطهــاد الملك اليــهــودى الحــمــيــرى ذى نواس [٢] لنصــارى اليمن ســخط الامــبراطور البــيزنطى جــستين الأول فــاتصل بملك الحــبشــة المعــروف باســم «ألا أصبحة» [٣] وطلب منه التدخل لإنقــاذ النصارى هناك ، فاســتجاب ملك الحبــشة وأرسل إلى اليمن جيشاً ضخماً نجح فى هزيمة ذى نواس وقتله والقضاء على مُلْك الحميريين [٤] .

(1) Ibid, p. 187 .

(٢) وهو المعروف فى النصوص النصرانية باسم " Damnus " وبصيغ أخرى مشابهة . راجع : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ، جـ٣ ، ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣ ، ٤٦٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٦٣ .

(٤) حين بدأت المسيحــية تنتشر فى اليمن ـ وبالأخص فى نجران ـ نتيجة جهود الغســاسنة والأحباش ، ثم نساطرة الحيرة أيضاً (على نطاق أضيق) احس ملوك اليمن من الحميريين بفداحة الخطر الذى يهددهم لان انتشار المــسيحية يعــنى تهيئة المناخ للســيطرة الحبشيــة أو البيزنطية على بلادهم ، فــقرروا القضاء علــيها باعتناقــهم اليهودية باعتبــارها دينا سماويا يمكن أن يقــاوموا به دينا سماويا آخر . ثم أخــذوا يضطهدون النصارى ، ووصل الاضطهاد ذروته علــى يد ذى نواس ، وهو أشهر ملوك اليمن الحــميريين . وعندما علم ذو نواس باستنجــاد النصارى بالبيــزنطيين والأحباش واستــعداد هؤلاء لغزو اليمن اســتشاط غضــبا واقتحم نجران مركز النصرانية الأساسى فى اليمن وخــيّر أهلها بين نَبْـذ النصرانية أو الموت حرقا فاختار=

ورغم وجود روايات أخرى فى هذا الصدد [١] فإن الذى لا جدال حوله أن غزو الأحباش لليمن كان بمباركة الامبراطور البيزنطى وتأييده ، وذلك لما فى هذا المشروع من خدمة مصالح الامبراطورية البيزنطية إذ يتيح تحويل المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية إلى منطقة نفوذ بيزنطية بدل أن تصبح نهبا لمطامع الفرس . وقد كانت الأهمية التجارية لليمن وإشرافها على باب المندب من بين الأسباب التى جعلت البيزنطيين أكثر حرصاً على السيطرة على ذلك الإقليم . والواضح أن غزو الأحباش لليمن أتاح لهم ولأسيادهم البيزنطيين السيطرة على البحر الأحمر وعلى التجارة الأفريقية والهندية [٢] .

إن ما يمكننا أن نخلص إليه هنا أن هذا النفوذ البيزنطى فى جنوب شبه الجزيرة العربية أتاح للبيزنطيين أن يتطلعوا إلى توسيع دائرته ليحاولوا الوصول به إلى شمال شبه الجزيرة . وقد كانت مكة مركز الثقل فى هذا الإقليم أو «أم القرى» كما وصفها القرآن الكريم [٣] . ومن هنا حاول البيزنطيون السيطرة على مكة حين شجعوا أحلافهم الأحباش على غزوها وعلى محاولة هدم الكعبة لما تمثله من ثقل دينى وسياسى واقتصادى فى شمال شبه الجزيرة بل فى شبه الجزيرة كلها . وهكذا يمكننا القول إن السيطرة على مكة كانت تعنى تحويل شبه الجزيرة العربية كلها إلى منطقة نفوذ سياسى واقتصادى للدولة البيزنطية وحليفتها دولة الحبشة وإلى السيطرة

= الكثيرون منهم الموت . ويقال إنه أهلك من أهلها حوالى عشرين ألفا ؛ فهم أصحاب الأخدود الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم [سورة البروج : ٤ - ٨] طبقا لأشهر الروايات . راجع : تاريخ الطبرى، جـ٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٥ ؛ والكامل لابن الأثير ، جـ١ ، ص ٤٣١ - ٤٣٢ ؛ وتاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى ص ١٠٦ ، وجامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى ، جـ٣٠ ص ٨٤ - ٨٥ . وانظر أيضاً :

Trimingham, Christianity among the Arabs, pp. 289 , 299, note 2 .

(١) راجع : تاريخ الطبرى ، جـ٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٧ .

(2) Cf. , De Lacy O' Leary, Arabia before Muhammad, p. 120 .

(٣) سورة الشورى : ٧ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . والقرية فى التعبير القرآنى يراد بها المدينة .

الكاملة على الطريق التجارى من اليمن إلى مكة والشام [١] ، وبهذا يمكنهم إحكام السيطرة على التجارة الهندية والأفريقية والعربية . وقد باءت هذه المحاولة بالفشل كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم [٢] .

ومع ذلك لم ييأس البيزنطيون من تكرار محاولتهم من أجل السيطرة على شمال شبه الجزيرة العربية عن طريق سيطرتهم على أهم قاعدة فيه وهى مكة . يروى ابن حبيب بهذا الصدد أن عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ـ من قبيلة قريش ـ ذهب إلى الغساسنة بالشام وطلب منهم أن يعيِّنوه ملكا على قريش فأجابوه إلى ذلك . فلما اعترض أهل مكة على ذلك بحجة أن عثمان بن الحويرث رجل سفيه تراجع الغساسنة عن قرارهم . ولكن ذلك لم يوهن من عزم عثمان ؛ فقد ذهب إلى ملك الروم [٣] وعرض عليه الأمر قائلاً : « إنى من أهل الكعبة ومن أهل بيت الله الحرام الذى تحج إليه العرب . وإنى كلمت ابن جفنة أن يجعل لى على قومى سلطانا فأَقْسرهم على دينك ، فبغى علىّ رجال من قومى فَرَشَوْه فأخرجنى . وإنى جئت إليك .. فإن كتبت لى كتابا وجعلت لى عليهم سلطانا قسرت لك العربَ حتى يكونوا على دينك . فكتب له قيصر عند ذلك وكساه .. وقال له : لا سلطان لابن جفنة عليك » . وتنتهى الرواية إلى أن عثمان بن الحويرث ذهب بكتاب قيصر إلى ابن جفنة فدفعه إليه ، ولكنه مات قبل أن يخرج من عنده ، « فقال كثير من الناس : سقاه سما وحسده وظن أنه غالبه على ملكه » [٤] .

---

(١) مطلع النور للأستاذ عباس محمود العقاد ، ص ١١٤ .

(٢) سورة الفيل : ١ – ٥ .

(٣) لم يحدد لنا ابن حبيب من المقصود بملك الروم فى القصة المذكورة . والجدير بالملاحظة أن عثمان بن الحويرث هو ابن عم ورقة بن نوفل وكان معاصرا له . فقد حدث ذلك إذن قبل الإسلام بوقت غير طويل ؛ ربما فى عهد الامبراطور طيباريوس أو موريس .

(٤) انظر القصة بتفاصيلها فى : كتاب المنمق لابن حبيب ، ص ١٧٨ – ١٨٥ . ويذكر ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب ص ١١٨ أن عثمان بن الحويرث أراد التملك على قريش من قِبَل قيصر فامتنعت قريش من ذلك ، فرجع إلى الشام وسجن من وجد بها من قريش ، فأوعزت قريش إلى عمرو بن جفنة الغسانى أن يسمّ عثمان ، فسمّه ، فمات بالشام .

نستخلص من هذه الرواية إن صحت ـ ولا مانع من صحتها فى الجملة ـ عددا من النقاط الأساسية :

النقطة الأولى أن البيزنطيين وأحلافهم الغساسنة كانوا يتمتعون بين عرب مكة خصوصا ، وعرب الحجاز عموما ، بقدر من المكانة التى جعلت واحدا من هؤلاء العرب يلتمس عونهم فى تعيينه حاكما على قومه .

والنقطة الثانية أن البيزنطيين كانوا حريصين على أن يحولوا الحجاز إلى منطقة نفوذ لهم ، إن لم يكن بصورة مباشرة فعن طريق من يديرها بالتفاهم معهم والتبعية لهم كما كان وضع اليمن تحت حكم الأحباش .

والنقطة الثالثة أن البيزنطيين كانوا يتخذون الدين وسيلة من الوسائل التى حاولوا عن طريقها بسط نفوذهم على شبه الجزيرة العربية . وقد كان ذلك وراء حرصهم على السيطرة على مكة التى مثّلتْ ببيتها الحرام أكبر رمز من رموز العرب الدينية فى ذلك الوقت . فلا شك أن السيطرة على مكة كانت تعنى محاولة القضاء على ذلك الرمز . وتجدر الإشارة هنا إلى ما يرويه كثير من المؤرخين من أن الأحباش حين سيطروا على اليمن حاولوا صرف العرب عن الحج إلى الكعبة ببناء كنيسة فى صنعاء سموها «القليس» [١] ، ولعل ذلك كان بمباركة البيزنطيين وتشجيعهم . وينبغى أن نشير أيضاً فى هذا المقام إلى أن عثمان بن الحويرث الذى قام بمحاولة إخضاع مكة للبيزنطيين كان من بين القلائل الذين اعتنقوا المسيحية من قبيلة قريش [٢] .

ويبدو أن البيزنطيين كانوا حريصين على دعم أواصر الصلة بينهم وبين قريش

---

(١) انظر مثلا : تاريخ الطبرى جـ٢ ، ص ١٣٠ ؛ وسيرة ابن هشام ، جـ١ ص ٤٣ ؛ والكامل لابن الأثير، جـ١ ، ص ٤٤٢ ؛ وتاريخ ابن خلدون جـ٢ ، ص ٧١ - ٧٢ ، والقُلَّيْس ـ بضم القاف وتشديد اللام المفتوحة ، أو القَلِيس بفتح القاف وكسر اللام المخففة ـ جاءت من الكلمة اليونانية ekklesia بمعنى الكنيسة. انظر : Trimingham, Christianity among the Arabs , p. 304 .

(٢) المحبر لابن حبيب ، ص ١٧١ ؛ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ، ص ٤٩١ .

حماية لمصالحهم فى عاصمة الحجاز ؛ بل إن هناك من الروايات ما يشير إلى أن البيزنطيين كانوا عونا لقريش فى سعيها للسيطرة على مكة ؛ فمن ذلك ما يرويه ابن قتيبة من أن قصى بن كلاب سار إلى مكة « فحارب خزاعة بمن تبعه وأعانه قيصر عليها » [١] . والمعروف أن بطون قريش كانت تنزل فى البداية حول مكة وفى شعاب جبالها ولم تكن مجتمعة تحت قيادة واحدة . وكانت مقاليد الأمور فى مكة فى يد خزاعة . فلما جاء قصى بن كلاب (المتوفى فى حدود سنة ٤٨٠م) نجح فى توحيد قريش تحت قيادته ثم سار بهم لحرب خزاعة فهزمها ، وخلت له مكة فقسمها بين قومه قريش وأنزلهم منها منازلهم التى أصبحوا عليها [٢] . وكان ذلك فى سنة ٤٤٠م [٣] . والواضح أن البيزنطيين كانوا يرمون من وراء عونهم لقصى بن كلاب إلى إيجاد حليف قوى لهم فى مكة يضمنون عن طريقه تكوين منطقة نفوذ لهم فى قاعدة الحجاز الكبرى وتأمين مصالحهم السياسية فى شمال شبه الجزيرة العربية . ويبدو أن هذا الهدف لم يتحقق بصورة كاملة عندما تولت قريش ـ بقيادة قصى بن كلاب ـ مقاليد الأمور فى مكة ؛ ومن هنا كرر البيزنطيون محاولاتهم للسيطرة عليها . وقد اتضح ذلك فيما أشرنا إليه سابقاً من وقوفهم وراء الأحباش فى محاولتهم غزو الكعبة ، ثم فى وقوفهم وراء عثمان بن الحويرث عندما سعى ليصبح حاكماً على مكة يدير شئونها باسمهم .

ونأتى الآن إلى مناقشة نقطة مهمة يثيرها ما سبق أن أشرنا إليه من اعتناق عثمان بن الحويرث للمسيحية ؛ وهى تتلخص فى هذا السؤال : ما المدى الذى وصلت إليه علاقة الحجازيين بالمسيحية قبل الإسلام ؟ وما انعكاس ذلك على علاقتهم بالبيزنطيين ؟

المعروف أن أهل مكة على الأخص كان لهم اتصال بالمسيحيين فى أقاليم الدولة

---

(١) المعارف ، ص ٦٤٠ ـ ٦٤١ . وانظر أيضا : M. Watt, Muhammad at Mecca, p. 13

(٢) تاريخ الطبرى ، جـ٢ ، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٨ .

(٣) تاريخ الإسلام السياسى للدكتور حسن إبراهيم حسن ، جـ١ ، ص ٤١ .

البيزنطية عن طريق التجارة . كما كان لبعضهم صلات تجارية بالحبشة التى كانت تنتشر فيها المسيحية المونوفيزيتية . وقد كان من بين الأسباب التى قدمها المؤرخون لاختيار الحبشة مُهَاجَرا للمسلمين فى عصر الرسول ﷺ أنها كانت « متجرا لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاغا من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا » (١) . فمن الطبيعى أن يتصل أهل مكة والحجازيون عموما بالمسيحية ، بل وأن يجدوا دافعاً اقتصادياً لاعتناقها لأنها كانت دين البلاد التى انصرفت إليها جملة تجارتهم . وقد عبر عن هذه الفكرة عثمان بن الحويرث عندما حاول إقناع قريش بقبول تعيين البيزنطيين له حاكماً على مكة (٢) . ولكن الواضح أن المسيحية لم يكن لها وجود ملحوظ فى منطقة الحجاز قبل الإسلام ، ولم يوجد فى قاعدة الحجاز ذاتها ـ وهى مكة ـ إلا عدد ضئيل جداً من المسيحيين لا نكاد نعرف منهم على وجه اليقين غير عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى الذى أشرنا إليه الآن ، وابن عمه ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزى الذى يذكر عنه المؤرخون أنه « تنصّر واستحكم فى النصرانية وقرأ الكتب » (٣) . ويذكر المؤرخون أيضاً بهذا الصدد عبيد الله بن جحش . ولكن عبيد الله هذا شهد بداية الدعوة الإسلامية وأسلم ثم هاجر إلى الحبشة وتنصَّر هناك (٤) . أما زيد بن عمرو بن نفيل فالثابت أنه كان أحد الحنفاء ولم يتحول إلى النصرانية (٥) . ولعل من بين أهم الأسباب التى جعلت أهل مكة لا يُقْبلون على المسيحية إدراكهم لأهمية الكعبة فى جعل مكة مركزاً من أهم المراكز

---

(١) تاريخ الطبرى جـ٢ ، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ . و « رفاغاً من الرزق » أى سعة فيه .

(٢) مطلع النور للأستاذ عباس العقاد ، ص ١١٥ .

(٣) المحبر لابن حبيب ، ص ١٧١ . والملاحظ أن ابن حزم يذكر من بين متنصرة قريش شيبة بن ربيعة بن عبد شمس . انظر : جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٩١ . ولكن تنصر شيبة أمر مشكوك فيه ، ونحن نعرف أنه قتل مع من قتل من مشركى قريش فى غزوة بدر .

(٤) المحبر لابن حبيب ، ص ٧٦ ، ٨٨ ، ١٧٢ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٧١ . وتجدر الإشارة هنا إلى أن اليعقوبى فى تاريخه (جـ١ ، ص ٢٥٧) يذكر أن من تنصر من قريش قوم من بنى أسد بن عبد العزى ، ولكنه حين يسميهم لا يذكر منهم غير عثمان ابن الحويرث بن أسد وابن عمه ورقة بن نوفل بن أسد .

الدينية والسياسية والاقتصادية فى شبه الجزيرة العربية ؛ وهذا هو ما منّ الله به عليهم فى قوله سبحانه : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ (١) . فلم يكن من المعقول أن يتخلى أهل مكة عن هذا المركز ببساطة ليعتنقوا دينا يجعلهم يدورون فى فلك الدولة التى كانت تمثل معقل المسيحية فى العالم كله فى ذلك الوقت وهى الدولة البيزنطية . هذا فضلا عن أن المسيحية بتفريعاتها اللاهوتية وقضاياها المتصلة بالطبيعة الإلهية والبشرية فى السيد المسيح لم تمثّل إغراءً كبيراً للعقل العربى الميال إلى الوضوح بطبيعته ، العَزوف عن أمثال هذه التعقيدات التى يتعذر عليه أن يسيغها . وفى نفس الوقت لم تكن هناك أسباب سياسية أو اجتماعية قوية تجعل عرب الحجاز يقبلون على المسيحية كما كان الأمر بالنسبة لعرب الشام مثلاً .

ومهما يكن من أمر فالواضح أن عدم تفشّى المسيحية بين عرب الحجاز لم يؤثر على علاقاتهم التجارية بالدولة البيزنطية ؛ بل إن هذه العلاقات كانت فى نمو مطرد حتى جاء الإسلام . كما لم يترتب على ذلك توتر سياسى أو عسكرى ملحوظ بين الجانبين . ولكن لابد أن نلاحظ فى الوقت نفسه أن الحجازيين - رغم عدم تفشّى المسيحية بينهم - كانوا على إلمام كبير بها عن طريق احتكاكهم التجارى المتصل بأقاليم الدولة البيزنطية والحبشة ، وعن طريق تأثير الغساسنة والعرب المسيحيين بالشام عموماً . ومن الأمور الدالّة فى هذا السياق ما يرويه المؤرخون م أن محمداً ﷺ عندما صحب عمه أبا طالب فى رحلة تجارية إلى الشام وهو ف سن التاسعة أو الثانية عشرة التقى فى مدينة بُصْرَى براهب يقال له «بحيرَى» وهو الذى تنبأ بمبعث النبى ﷺ (٢) . كما خرج فى رحلة أخرى إلى الشام وهو فى سن الخامسة والعشرين ، فى تجارة لخديجة بصحبة غلامها ميسرة وقابل فى

(١) سورة القصص : ٥٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ، جـ٢ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ؛ وسيرة ابن هشام ، جـ١ ، ص ١٩٤ - ١٩٦ . وتذكر بعض المصادر أن اسم «بحيرى» هو جرجيس ، وقيل سرجيس (أى سر جيوس) ؛ وعلى هذا يكون بحيرى لقبه . انظر : إنسان العيون للحلبى جـ١ ، ص ١٩٣ .

بُصْرَى أيضـاً راهباً يقال له «نسطورا» صـدرت عنه نبوءة مماثلة [1] . والذى يعنينا من هاتين الروايتين هنا هو مـا تشيران إليـه مما كان يحدث فى العـادة من احتكاك دينى بين الحجازيين ومسيحيى الشام عن طريق العلاقات التجارية ؛ ذلك الاحتكاك الذى شهد محـمد ﷺ بعضه فى طفولته وشبابه ، ولا شك أنه اسـتمر حتى زمن الفتوحات الإسلامية .

*****

نلخص ما مضى فنقول : إن عرب الحجـاز كانت تربطهم بالبيزنطيين علاقات قوية ، وخصـوصاً على المستـوى التجارى . وقد حاول الـبيزنطيون غـير مرة أن يفرضوا هيـمنتهم السياسيـة على الحجاز ، إما بصورة مـباشرة أو غير مـباشرة ، ولكن دون جدوى . وكانت مكة عـلى الأخص محور محاولاتهم باعـتبارها أهم مركـز فى الحجـاز على المسـتوى الدينى والاقـتصـادى والاجتمـاعى . ورغم أن المسيحية كـانت دين البيزنطيين فإن أتباعها بين الحجـازيين كانوا قلة ضئيلة ، ولعل ذلك كان راجعا إلى ما اتسـمت به المسيحية من تفريعات لاهوتية لـم يكن يُسيغها العقل العربى الميال بطبـيعته إلى البساطة والوضوح ؛ كما أن مكة عـاصمة الحجاز كانت تتمتع بمكانة دينية متميزة بين العـرب جميعا نظرا لوجود البيت الحرام بها ، فلم يكن من السهل على الحجازيين أن يتخلوا عن تلك المكانة سعيا وراء دين كان اعتناقه سيحولهم من متبوعين إلى تابعين . ولكن الواضح أن الحجازيين كانوا على قدر من الإلمام بالمسيـحية عن طريق الغساسنة ، أحلاف البـيزنطيين ، الذين كانت

---

(١) عيـون التواريخ لابن شـاكر الكتبـى ، جـ١ ، ص ٣٧ - ٣٨ ، وإنسان العيـون للحلبى ، جـ١، ص ٢١٦ . وتتجه الدراسات الاستشراقية بصفة عامة إلى الاعتقاد بأن قصة لقاء الرسول ﷺ بـ «بحيرى» و «نسطورا» ذات صبـغة أسطورية . ولكن ليس هناك فى الواقع سـبب موضوعى يبـرر التشكيك فى حقيقة حدوث هذا اللقاء ، رغم أن اسم الراهبين أو تفاصيل ما دار فى لقائهما بالرسول ﷺ قد يكون موضع مناقشة . انظر حول ذلك : مادة «بحيرا» فى دائرة المعـارف الإسلامية (الطبعة العربية) ، بقلم فنسنك ، جـ٦ ، ص ٣٣٩ - ٣٤١ . وانظر أيضاً :
M. Watt, Muhammad, Prophet and Statesman, p. 3 .

تربطهم وشـيجـة قربى بأهل يثـرب من الأوس والخزرج ؛ وعن طريق الـرحلات التجارية المتعاقبة إلى أقاليم الدولة البيـزنطية فى مصر والشام ، وإلى الحبشة حليفة بيزنطة . وقد كـان البيزنطيون يحظون لـدى الحجازيين بعظيم المكانة ووافر الهـيبة باعتـبارهم قـوة كبرى على المسـتوى السـياسى والاقتـصادى والعـسكرى ، وكان تأثيـرهم على الحجـازيين أكثـر وضوحـاً وقوة من تأثيـر الفرس نظرا إلى الـقرب الجغـرافى وعـمق الروابط التجـارية . وظل الأمر على ذلك حـتى جـاء الإسلام وبدأت العلاقات بين الجانبين تنحو منحى جديداً .

****

الفصل الثاني

الرســول والبيزنطيــون منــذ البعثــة
حتى صلح الحديبية ٦١٠م - ٦هـ / ٦٢٨م

أولاً : المــرحلــة المكيــة :

قد لا نبـالغ إذا قلنا إن الفترة الواقـعة بين مبـعث الرسول ﷺ فى سنة ٦١٠م وبين وفاته فى سنة ٦٣٢م (١١هـ) تمثل أخطر مرحلة فى التاريخ الطويل للعلاقات الإســلامـيــة البيــزنطية ؛ لا من حـيث حـجم المواجهـات التى دارت خلالهـا بين المسلمين والبيزنطيين ، بل من حيث تمثيلها الصحيح لجذور الصراع بين الطرفين ، ثم من حيث تأثيرها على توجيه دفة الصراع بينهما على مدى أكثر من ثمانية قرون تالية . ومن هنا يمـكننا أن نقول باطمئنان إن فـهم أية مرحلة من مـراحل التاريخ المترامى للعلاقات الإســلامية البيزنطية لا يمكن أن يكتمل دون فـهم صحيح لجذور تلك العلاقات وتطورها فى عصر الرسول ﷺ .

ومن الطبيعى أن تكون الفترة المكية من حياة الرسول ﷺ خالية من كل ما يثير عداء دولة الروم أو يؤدى إلى المواجهة بينها وبين المجـتمع الإسلامى الناشئ . فقد ظلت الدعوة الإسلامـيـة فى مكة تعيش فى طى الكتمـان ثلاث سنين ، ثم عندما دخلت فى مرحلة العلن جاء الأمر الإلهى للرسول بأن ينذر عشيرته الأقربين . ثم أخـذت الدعوة تتـسع رويداً رويداً وتكتـسب مـزيدا من الأتبـاع ، ولكنهم الذين وصـفهم القـرآن الكريم بأنهم ﴿قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [1] يخـافون أن يتخـطفهم الناس . وقـد هاجر عدد غـير قليل من هـؤلاء إلى الحبشـة فى السنة الخامسة للبعثة تحت ضغط الأذى والاضطهاد . ومع أن الحبشة كانت دولة مسيحية

---

(١) سورة الأنفال : ٢٦ .

وكانت موالية لامبراطورية الروم - كما أسلفنا - فقد أحسنت استقبالهم . ولم يكن هناك من المبررات ما يدعو دولة الروم إلى أن تتوجس خيفة من هؤلاء الذين فروا من أذى قومهم ولجأوا إلى دولة حليفة . وقد كانت دولة الروم فى ذلك الوقت تعيش محنة الغزو الفارسى المدمر الذى بدأ فى سنة ٦٠٣م واستمر ما يقرب من عشرين عاما ، ولم يكن يدور بخلدها على الإطلاق أن يتعرض أمنها يوما لأى تهديد مصدره شبه الجزيرة العربية .

ومما يلفت النظر أن المسلمين فى المرحلة المكية من حياة الرسول ﷺ - وهى الفترة التى شهدت ذروة الصراع الفارسى البيزنطى - كانوا يتعاطفون مع البيزنطيين باعتبارهم أهل كتاب . أما المشركون فقد كانوا يتعاطفون مع الفرس . ويروى بهذا الصدد عن ابن عباس قوله : « كان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان »[1] . وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة من سورة الروم ، وهى من السور المكية : ﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[2] . ويروى أن أبا بكر الصديق عند نزول هذه الآيات « لقى رجالاً من المشركين فقال لهم : إن أهل الكتاب سيغلبون فارسا . قالوا : فى كم ؟ قال : فى بضع سنين » . ولكنهم طلبوا من أبى بكر أن يحدد لهم عدداً معيناً من السنين ، « فسمَّى أبو بكر سبع سنين . . . فلما رجع أبو بكر أخبر رسول الله ﷺ الخبر ، فقال له رسول الله ﷺ : لم فعلتَ ؟ فكل ما دون العشر بضع . . . ثم أظهر الله الروم على فارس زمان الحديبية . . . ففرح المؤمنون بظهور

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، جـ١ ، ص ٣٥٧ .

(٢) سورة الروم : ١ - ٥ وراجع التمهيد ، ص ٣٠ . وحول الآراء المختلفة فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ ارجع إلى : تفسير الطبرى (طبعة المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٢٩هـ) جـ٢١ ، ص ١١ وما بعدها .

أهل الكتاب » [1] .

هكذا كان إحساس المسلمين فى مكة نحو الروم مقارنا بإحساسهم نحو الفرس. وقد أثبتت الأحداث بعد بضع سنين صدق الإخبار القرآنى ؛ ففى العام الذى هاجر فيه الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ـ وهو عام ٦٢٢م ـ بدأ هرقل حملاته الانتقامية المظفرة ضد فارس ـ كما ذكرنا فى التمهيد [2] ـ وتوّج هذه الحملات بانتصاره الساحق عليهم فى معركة «نينوى» فى ديسمبر سنة ٦٢٧م ، مما اضطر امبراطور الفرس الجديد « قباذ شيرويه » إلى أن يعقد صلحا مهينا مع هرقل خضع فيه لكل شروطه ، وذلك فى سنة ٦٢٨م ، وهو عام الحديبية (٦هـ) .

ثانياً : بعد الهجرة حتى صلح الحديبية : ١ـ٦هـ (٦٢٢ ـ ٦٢٨م)

تمت الهجرة من مكة إلى المدينة فى سبتمبر ٦٢٢م . وقد كانت المهمة الأولى أمام الرسول ﷺ والمسلمين خلال الفترة التى أعقبت الهجرة مباشرة هى توطيد قواعد الدولة الجديدة وترسيخ الأسس التى يقوم عليها بناؤها الداخلى .ولا جدال في أن مصدر التهديد الأول للدولة الإسلامية الناشئة حينذاك كان يكمن فى كيد المكيين لها وتربصهم بها . ومن هنا كان على المسلمين خلال تلك الفترة أن يرصدوا مخططاتهم وأن يجهضوا كل محاولاتهم لنسف بنيان الدولة الإسلامية . وقد تطور الموقف بين الجانبين بعد الهجرة بقليل فأدى إلى أخطر مواجهة بينهما فى بدر ؛ وذلك فى رمضان من العام الثانى للهجرة . والحق أن الانتصار الساحق للمسلمين فى بدر كان له صدى كبير ، لا فى شبه الجزيرة العربية وحدها ، بل خارج حدودها كذلك ؛ فقد كان القرشيون بمكة على صلة تجارية وثيقة بأقاليم الدولة البيزنطية ، وبالأخص إقليم الشام . وكان من النتائج المحققة لظهور القوة الإسلامية بعد بدر تأثر تجارة القرشيين مع الشام بصورة بالغة ؛ فقد كانت هذه

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، جـ١ ، ص ٣٥٦ .

(٢) راجع ما مضى ، ص ٣١ .

التجارة تمر على المدينة ذاهبة إلى الشام وقادمة منه ، فبدأ المسلمون بذلك يتحكمون فى تجارة أهل مكة مع البيزنطيين ؛ وهذا أدى بالضرورة إلى أن يتسامع الناس خارج شبه الجزيرة العربية بتلك القوة الجديدة التى ضربت قريشا فى الصميم وأن يضعوها فى اعتبارهم . ولعل البيزنطيين كانوا أول المهتمين بتلك القوة لأنهم كانوا أكثر المتأثرين بها خارج شبه الجزيرة ؛ فلم يعد الحجاز الآن منطقة نفوذ تجارى لبيزنطة كما كان من قبل .

ورغم أن المسلمين ، بعد انتصارهم فى «بدر» ، تعرضوا للهزيمة فى «أحد» سنة ٣هـ فإنهم سرعان ما إستعادوا مكانتهم وأكدوا هيبتهم من جديد ؛ فلم يجرؤ مشركو قريش على مواجهتهم فى غزوة «حمراء الأسد» بعد «أحد» مباشرة ؛ كما لم يجرؤا على مواجهتهم أيضاً فى غزوة «بدر الموعد» (التى تعرف كذلك ببدر الآخرة) فى شعبان سنة ٤هـ . ثم جاءت نكسة المشركين أو الأحزاب فى غزوة الخندق فى شوال سنة ٥هـ لتؤكد أمام الجميع أن الدولة الإسلامية الناشئة فى المدينة قد شبَّتْ عن الطوق وأن أعداءها يتعاملون مع خصم شديد المراس .

المؤكد أن تلك الأحداث كان لها صداها العميق على حدود الامبراطورية البيزنطية بصفة خاصة ، حيث تركزت هناك القبائل العربية المتنصرة ذات الصلات العريقة ببيزنطة . فقد فوجئ هؤلاء بأن هذه الجماعة القليلة المستضعفة التى خرجت من مكة تحت ضغط القهر والاضطهاد قد أصبحت قوة مؤثرة مرهوبة الجانب . ومن هنا حاول حلفاء البيزنطيين من عرب الشام - فى هذه المرحلة - تضييق الخناق على دولة المدينة وقطع أسباب الحياة عنها . وقد نتج عن ذلك عدد من المواجهات أو المناوشات بين المسلمين وعرب الشام خلال تلك الفترة ، نجملها فيما يلى ، محاولين التعرف على الملابسات التى أحاطت بها والنتائج التى أسفرت عنها :

١ـ غـزوة دومـة الجـنـدل : ٥هـ (٦٢٦م)

دُومة الجندل ـ كمـا يذكر ياقوت ـ «حصن وقرى بين الشـام والمدينة قرب جبل طيئ كـانت به بنو كنانة من كلب » [١] . وهى تبعد عن المدينـة حوالى ثمانمائة كيلو مـتر إلى الشمـال . وسميت بهـذا الاسم لأن حصنهـا مبنى بالجندل [٢] . وتعرف دومة الجندل الآن باسم «الجوف» [٣] .

وتُعَـدُّ غزوة دُومـة الجندل أولى غزوات الرسـول ﷺ ضد الروم [٤] . وسبب هذه الغزوة ـ كـما يبدو من استـعراض المصادر المخـتلفة ـ هو ما كان يتـعرض له التجار بين الشـام والمدينة من أذى على يد العرب المقيمين بدومـة الجندل من قبيلة كلب (من قـضـــاعـة) . وتُطلق بعض مـــصـــادرنا على هـؤلاء التـجـار اسـم «الضافطة»، [٥] وهـم الأنباط الذين كانوا يقدمـون المدينة من الشام بالدقيق والزيت وغير ذلك من السلع الضـرورية لمجتمع المدينة [٦] .وقد كـان ملك دومة فى ذلك الوقت هو أُكَيْـدِر بن عبد الملك السَّكـونى الكِنْدى ، وكان « يدين بالنصـرانية ، وهو فى طاعة هرقل ملك الـروم » كما يقول المسـعودى [٧] . والمعروف أن تجارة

---

(١) معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٤٨٧ - ٤٨٨ . ويذكـر الذهبى عن دومة الجندل أنها «أرض ذات نخل ، يزرعون الشعير وغيره ويسقون على النواضح ، وبها عين ماء » . تاريخ الإسلام جـ١ ، ص ٢١٣ .

(٢) كان فى دومة الجندل قبل الإسلام حصن يسمى «المارد» كـانت بقاياه موجودة حتى القرن الماضى . وقد بُنى الحصن بالحجارة وأقيم حوله سور حجرى ؛ ومن أجل هذا حملت دومة لقب «الجندل» راجع :
D. Sourdel, " Dumat al - Djandal ", in The Encyclopedia of Islam, New Edition, vol. 2, p. 624.

(3) Idem .

(٤) التنبيه والإشراف للمسعودى ، ص ٢١٤ . والمقصود بالروم هنا أحلافهم من عرب الشام .

(٥) مما يذكـره صاحب اللسـان فى مادة «ضـفط» أن الضـافطة والضَّـفَّاطـة هى العيـر التى تحمل المتـاع ، والضافطة والضفَّاطون أيضاً هم الذين يجلبون الميرة والمتـاع إلى المدن ، «وكانوا يومئذ قوما من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت وغـيرهما ؛ ومنه أن ضفاطين قدمـوا المدينة » . لسان العرب لابن منظور، جـ٤ ، ص ٢٥٩٦ .

(٦) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، جـ١ ، ص ٤١٣ .

(٧) التنبيه والإشراف ، ص ٢١٥ .

الشام بالنسبة للحجاز كانت أحد شرايين الحياة الرئيسية لذلك الإقليم . وتجدر الإشارة هنا إلى ما ترويه بعض المصادر من أن هؤلاء العرب أحلاف البيزنطيين كانوا يريدون الزحف على المدينة (١) . بل إن البلاذرى لا يذكر سببا لهذه الغزوة إلا أن جمعا من قضاعة ومن غسان تجمعوا وهمُّوا بغزو الحجاز (٢) . فقد تعدى الأمر إذن مجرد قطع الطريق على تجار المدينة ليصبح تهديدا فعليا بغزو قاعدة الدولة الإسلامية . ويبدو أن المسلمين أحسوا أن البيزنطيين كانوا مصدر هذا التهديد؛ فقد قيل للرسول ﷺ : «إن دنوت إلى الشام كان ذلك مما يُفْزِع قيصر» (٣) .

ويطرح بعض الباحثين المحدثين احتمالاً مؤداه أن الغاية من وراء غزوة دومة الجندل كانت الاستطلاع (٤). ومع أنه ليس من المستبعد أن يكون الاستطلاع إحدى الغايات المحتملة لهذه الغزوة فإن الذى نرجحه أن الغاية الأساسية وراءها كانت تأكيد هيبة الدولة الإسلامية وقطع الطريق على أية محاولة عدوانية يقوم بها عرب الشام ضد الكيان الإسلامى الناشئ . وهذا ما قد يبدو واضحا من تطورات الغزوة . فقد خرج رسول الله ﷺ من المدينة على رأس ألف من أصحابه فى ربيع الأول سنة ٥هـ (أغسطس ٦٢٦م) كما تذكر معظم الروايات (٥) ، وقيل فى مستهل المحرم سنة ٥هـ (٦) . والجدير بالملاحظة هنا أن هذا الجيش الذى قاده الرسول إلى دومة الجندل كان أكبر جيش يخرج به غازيا حتى ذلك الوقت ، وذلك إذا استثنينا الجيش الذى خرج به لمواجهة قريش فى بدر الموعد سنة ٤هـ بعد معركة أحد ،

---

(١) المغازى للواقدى ، جـ١ ، ص ٤٠٣ ؛ والطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ٢ ، ص ٦٢ .

(٢) أنساب الإشراف ، جـ١ ، ص ٣٤١ .

(٣) المغازى للواقدى ، جـ١ ، ص ٤٠٣ .

(4) M. Watt, Muhammad at Medina, p. 114 - 115 .

(٥) انظر على سبيل المثال : أنساب الأشراف للبلاذرى ، جـ١ ، ص ٣٤١ ؛ والمغازى للواقدى ، جـ١ ، ص ٤٠٣ ؛ والطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ٢ ، ص ٦٢ ؛ وزاد المعاد لابن القيم ، جـ٢ ، ص ١١٢ .

(٦) المحبر لابن حبيب ، ص ١١٤ . ويروى الذهبى الرواية الشائعة أولا ، ثم يسند الثانية إلى المدائنى . انظر : تاريخ الإسلام جـ١ ، ص ٢١٢ .

وعدده ألف وخمسمائة مقاتل (١) . فقدْ كان المسلمون إذن يدركون خطورة التهديد الذى بدأت تظهر بوادره على الجبهة الشمالية ويدركون أيضاً ضرورة التعامل معه فى منابعه . وقد تقدم الرسول ﷺ بهذا الجيش إلى دومة الجندل فهرب أهلها عندما علموا بذلك ، وكان على رأس الهاربين ملكهم أكيدر بن عبد الملك ، «ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد بها أحدا» (٢) ، فعاد إلى المدينة بعد أن أكد هيبة الدولة الإسلامية وقدرتها على التعامل الحاسم مع المتربصين بها . وقد بات من المؤكد بعد هذه الغزوة أن هناك جبهة تهديد خطيرة فُتحت أمام المسلمين وهى جبهة الشام .

وفى نهاية حديثنا عن هذه الغزوة تجدر الإشارة إلى رأى يعرضه «مونتجومرى وات» حول أخطر ما ترتب عليها ؛ وخلاصته أن ما لمسه الرسول ﷺ خلالها من الظروف التى كانت سائدة فى الشمال هو ما شجعه بعد ذلك على التوسع فى اتجاه الشام (٣) . والحق أن جانب الخيال فى هذا الرأى أغلب من جانب الحقيقة ؛ ذلك أن حملات الرسول ﷺ فى اتجاه الشام ـ وعلى رأسها مؤتة وتبوك ـ أملتها كلها ضرورة تأمين حدود الدولة الإسلامية لا الرغبة فى التوسع ، وهذا ما سوف نناقشه بقدر من التفصيل فى موضعه .

٢ـ سرية زيد بن حارثة إلى حِسْمَى : ٦هـ (٦٢٧م)

حِسْمَى أرض ببادية الشام بإقليم الأردن على مشارف الحجاز ، يصفها ياقوت بأنها «أرض غليظة ، وماؤها كذلك ، لا خير فيها» (٤) . وكانت موطنا لقبيلة جُذَام ؛ ولهذا كانت تعرف أيضاً بـ «أرض جُذَام» (٥) . ولكن يبدو أن بعض بنى

---

(1) Watt, op. cit., p. 105 .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ٢ ، ص ٦٢ .

(3) M. Watt, Muhammad, Prophet and Statesman, p. 162 .

(٤) معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ١١٢ .

(٥) المحبّر لابن حبيب ، ص ٣٨٣ .

عمومتهم من قبيلة لخم كانوا يساكنونهم هناك (١) .

وقد وجه رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حسمى فى جمادى الآخرة سنة ٦هـ (أكتوبر ـ نوفمبر ٦٢٧م) على رأس خمسمائة رجل من أصحابه ، وذلك بسبب ما تعرض له دحية بن خليفة الكلبى على يد رجال من جذام . فقد أرسل رسول الله دحية إلى «قيصر» ـ على حد تعبير مصادرنا ـ فأجازه بمال وكساء ، «وعند مروره بحسمى لقيه ناس من جذام فقطعوا عليه الطريق وأصابوا كل شىء معه فلم يصل إلى المدينة إلا بِسَمَلٍ» (٢) . ويروى أن عددا من قبيلة لخم اشتركوا مع جذام فى تلك الجريمة (٣) . ولسنا متأكدين تماماً من طبيعة الرسالة التى كان يحملها دحية من رسول الله ﷺ إلى هرقل ، هذا لو صحّ أن المقصود بقيصر هنا هرقل . فالمعروف أن كتب الرسول إلى الملوك ـ ومنهم هرقل ـ كانت بعد صلح الحديبية ، أى فى أواخر سنة ٦هـ أو أوائل سنة ٧هـ ؛ وكان دحية حامل كتاب رسول الله إلى هرقل عندئذ . فلو ثبت أن سرية زيد هذه كانت فى سنة سبع ـ كما جاء فى بعض الروايات (٤) ـ فالأمر إذن واضح لا إشكال فيه . أما لو ثبت أنها كانت فى جمادى الآخرة سنة ٦هـ ـ كما جاء فى معظم الرويات ـ فهنا نتساءل: هل أرسل الرسول ﷺ كتابين إلى هرقل مع دحية فى وقتين مختلفين ؟ أو هل أرسل دحية فى هذه المرة بغير كتاب كما يقترح صاحب السيرة الحلبية ؟ (٥) أو هل يمكن أن يكون المقصود بقيصر فى هذه الرواية هو حاكم بصرى كما يقترح

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ، جـ١ ، ص ٣٧٧ .

(٢) المغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٥٥٥ - ٥٥٦ . وانظر أيضاً : تاريخ الإسلام للذهبى ، جـ١ ، ص ٢٩٤ .

(٣) أنساب الأشراف للبلاذرى ، جـ١ ، ص ٣٧٧ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) السيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبى ، جـ٣ ، ص ١٧٩ . وتجدر الإشارة إلى أن اسم «دحية» سوف يتردد فى بعض مصادرنا أيضاً بعد ذلك . بمناسبة الحديث عن بعثة رسول الله إلى هرقل فى غزوة تبوك . انظر ما يلى ، ص ١١٨ - ١١٩ .

«مونتجومرى وات» ؟ [١] . . لا نجد فى مصادرنا ما يجيب عن هذه التساؤلات بوضوح ، وإن كنا نميل إلى قبول اقتراح «وات» . والأمر الواضح على كل حال أن قبيلتى جذام ولخم ـ وهما من أحلاف الروم ـ صدر منهما فى ذلك الوقت ما يكشف عن سوء النية تجاه المسلمين وما يومئ إلى مخططاتهما التآمرية التى سوف تتضح بصورة أكثر تحديدا فى المستقبل القريب . وقد كانت سرية زيد بن حارثة ناجحة فى حدود الغرض الذى أُرسلت من أجله ، وهو تأديب هؤلاء القوم من جذام ولخم ؛ فقد أغار المسلمون عليهم صباحا «فأصابوا ما وجدوا وقتلوا فيهم فأوجعوا » [٢] . ولكن العناصر العربية من نصارى الشام كانت من الكثرة والخطورة بحيث احتاجت من الرسول ﷺ إلى مزيد من المواجهات التى قُدِّر لها أن تستمر حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى .

٣ـ سرية زيد بن حارثة إلى وادى القرى : ٦هـ (٦٢٧م)

ومن الملاحظ هنا أن بعض المصادر تذكر سرية أخرى لزيد بن حارثة إلى وادى القرى (شمالى خيبر) [٣] فى الشهر التالى من نفس العام ، أى فى رجب سنة ٦هـ (نوفمبر ـ ديسمبر ٦٢٧م) ؛ حيث تَجَمَّع هناك قوم من مذحج وقضاعة ، «ويقال بل تجمع بها قوم من أفناء مضر» [٤]. على أن التفاصيل القليلة التى تقدمها لنا مصادرنا عن هذه السرية لا تتيح لنا الحكم على أسبابها ونتائجها . ولكن يبدو أن

---

(1) Watt, Muhammad : Prophet and Statesman, p. 179 .

(٢) مغازى الواقدى ، جـ٢ ، ص ٥٥٧ - ٥٥٨ . ويُعَدُّ تقرير الواقدى عن هذه السرية (من ص ٥٥٥ إلى ٥٦٠) من أوفى التقارير التى تقدمها مصادرنا .

(٣) يذكر «ياقوت» أن وادى القرى هو وادٍ بين الشام والمدينة ، وهو بين تيماء وخيبر ، فيه قرى كثيرة ، وبها سمى وادى القرى . انظر معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٣٨٤ (مادة : القرى) ، وجـ٥ ، ص ٣٩٧ (مادة : وادى القرى) .

(٤) أنساب الأشراف للبلاذرى ، جـ١ ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ . ومعنى «أفناء» : أخلاط . ويقال : قوم من افناء القبائل ؛ أى لا يُعرفون من أى القبائل هم . راجع مادة «فنى» فى لسان العرب لابن منظور ، جـ٥ ، ص ٣٤٧٨ .

نتيجتها الإجمالية لم تكن فى صالح المسلمين (١) . ويرى «وات» أن سرية زيد هذه كانت فى حقيقتها رحلة تجارية إلى الشام وأنها أول رحلة تجارية إسلامية تنطلق من المدينة (٢) . ورغم أننا لا نستطيع القطع فى هذا الأمر فإن ما يبدو أكثر انسجاما مع السياق العام للأحداث خلال تلك الفترة أن هذه السرية كانت تهدف إلى كسب ولاء العرب المقيمين هناك : إما بنشر الإسلام بينهم ، أو بعقد تحالف معهم . وقد كانت الرحلات التجارية فى ذلك الجو المشحون بالعداوة مغامرة محفوفة بالمخاطر وكان من المتعذر القيام بها قبل تأمين الطريق المؤدى إلى الشام .

٤ـ سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل : ٦هـ (٦٢٧م)

هذه هى ثانى حملة إسلامية إلى دومة الجندل فى تلك المرحلة الأولى من حياة الرسول ﷺ بالمدينة . وقد ذكرنا أن قوما من قبيلة كلب من قضاعة كانوا ينزلون دومة الجندل ، وكانوا على النصرانية . وكانت قبيلة كلب شديدة العناد للإسلام والكيد لأهله . ويبدو أن هذا هو سر الاهتمام البالغ من الرسول ﷺ بتأمين هذه الجهة . ففى شعبان سنة ٦هـ (ديسمبر ٦٢٧م) وجه عليه السلام عبد الرحمن بن عوف على رأس سرية من سبعمائة إلى قبيلة كلب بدومة الجندل وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام . فسار عبد الرحمن بمن معه حتى قدم دومة الجندل «فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، وقد كانوا أبوا أول ما قدم يعطونه إلا السيف» (٣) . وفى اليوم الثالث أسلم زعيمهم الأصبغ بن عمرو الكلبى (٤) ، وكان نصرانيا ،

(١) يذكر خليفة بن خياط فى تاريخه (جـ١ ، ص ٣٩) أن الرسول أرسل زيد بن حارثة فى سنة ٥هـ إلى وادى القرى إلى فزارة فقتل عامة أصحابه . والغالب أن هذا إشارة إلى السرية التى نتحدث عنها رغم الاختلاف فى تاريخها وفى بعض التفاصيل الأخرى .

(2) M. Watt, op. cit., p. 180 .

(٣) المغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٥٦١ .

(٤) نلاحظ هنا أن زعيم قبيلة كلب بدومة الجندل (أو ملكهم) يذكر على أنه الأصبغ بن عمرو الكلبى . وفى غزوة الرسول ﷺ لدومة الجندل سنة ٥هـ ، ثم فى غزوة خالد لها سنة ٩هـ نلاحظ أن ملك دومة هو أكيدر بن عبد الملك الكندى . وقد أثار اختلاف اسمى الزعيمين وأصليهما شكوك بعض الباحثين. ولكن حل هذا الإشكال يتلخص فى أن أكيدر كان ملك السكان الحضريين المستقرين فى واحة دومة=

فكتب عبد الرحمن إلى النبى ﷺ يخبره بذلك ، فأمره النبى أن يتزوج «تماضر بنت الأصبغ» فـفعل عبد الرحمن ، فـهى أم ولده أبى سلمة [1] . وقد أسلم مع الأصبغ ناس من قومه (من قبيلة كلب) ، وأذعن الباقون بأداء الجزية [2] .

يتضح من هذا أن الهدف الأول لسرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل كان الدعوة إلى الإسلام ؛ وأن ما اشتملت عليه هذه السرية من عدد كبير نسبياً كان يهدف إلى توفير الحماية الكافية للدعاة المسلمين فى تلك المناطق الحافلة بالخطر على الإسلام والدائرة فى فلك بيزنطة . ولم تكن تجربة زيد بن حارثة وصحبه فى وادى القرى ببعيدة . والواقع أن عبد الرحمن تعرض فى البداية لتحدٍّ سافر من أهل دومة الجندل حين قالوا له : لا نعطيك إلا السيف ! وليس من منهج الدعوة الإسلامية إرغام أحد على اعتناق الإسلام ، ولكن المبدأ الإسلامى أن من لا يقبل الإسلام لا يصح أن يكون حربا عليه أو يضع العراقيل فى طريق انتشاره ؛ ومن هنا جاء مبدأ الجزية . فعندما أسلم الأصبغ بن عمرو زعيم قبيلة كلب وتبعه ناس من قومه اكتفى عبد الرحمن بقبول الجزية ممن رفض الدخول فى الإسلام . وإقرار هؤلاء بالجزية يعنى قبولهم أن يكونوا ذمة للمسلمين وألا يُعِينوا عليهم عدوا داخل شبه الجزيرة العربية أو خارجها .

وهكذا يمكننا القول إن سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل حققت أهدافها ؛ فقد ترتب عليها أولا إسلام الكثير من أهل دومة وعلى رأسهم زعيمهم

= الجندل ؛ أما الأصبغ فكان زعيم هؤلاء البدو من قبيلة كلب الذين كانوا يقطنون منطقة واسعة حول دومة ولهم رؤساؤهم. انظر حول ذلك :

D. Sourdel , " Dumat al - Djandal ", in The Encyclopedia of Islam, New Edition, vol. II, p, 625 .

(١) المغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٥٦١ . وهناك رواية اخرى تذكر أن النبى ﷺ قال لعبد الرحمن عندما بعثه : « إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم » . نفس المصدر ، ص ٥٦١ - ٥٦٢ . وانظر ايضاً : الطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ٢ ، ص ٨٩ ؛ وأنساب الأشراف للبلاذرى ، جـ١ ، ص ٣٧٨ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ٢ ، ص ٨٩ .

الأصبغ ؛ كما ترتب عليها ثانيا إقرار الباقين بالجزية . ومن أجل توثيق الروابط بين المسلمين الجدد من أهل دومة وبين مسلمى المدينة أمر الرسول ﷺ عبد الرحمن ابن عوف أن يتزوج بنت الأصبغ بن عمرو . وقد كانت المصاهرة ـ وما زالت ـ إحدى وسائل الترابط السياسى والاجتماعى والعِرْقى أيضاً .

ويجدر بنا فى هذا السياق أن نشير إلى ما يراه بعض الباحثين المحدثين من أن سرية عبد الرحمن بن عوف جاءت انعكاسا لسياسة الرسول ﷺ تجاه القبائل العربية بالشام . فقد اهتم الرسول بهذه القبائل ـ طبقا لهذا الرأى ـ لا لأنهم أبدوا اهتماما بالإسلام أو رغبة فيه ، بل لما مثلته التجارة مع الشام من أهمية بالنسبة لاقتصاد مكة . فقد استطاع الرسول عن طريق هجومه على القوافل التجارية لمكة أن يحاصر طريق المكيين إلى الشمال ، كما قصد بتحالفه مع القبائل الشمالية أن يحكم حلقة هذا الحصار (١) .

وقد يسوغ لنا أن نقبل هذا الرأى لو أن اهتمام الرسول ﷺ بالقبائل الشمالية توقف بعد فتح مكة وانضوائها تحت راية الدولة الإسلامية . فالواضح أنه لم يعد هناك مبرر بعد فتح مكة لفرض حصار اقتصادى على المكيين . ورغم ذلك فقد استمر اهتمام الرسول بالقبائل الشمالية بل تزايد . وسوف نرى أنه قبيل وفاته جرَّد بعثا بقيادة أسامة بن زيد ضد بعض هذه القبائل الشمالية ، وقد حالت وفاته دون إنفاذ هذا البعث فتكفل أبو بكر بهذه المهمة .

لا مفر إذن من البحث عن سبب آخر غير فرض الحصار الاقتصادى على المكيين لنشرح به سر اهتمام الرسول ﷺ بالقبائل العربية فى الشام . والسبب المقبول ـ فيما نتصور ـ هو نشر كلمة الإسلام خارج الجزيرة العربية ومن ثم تأمين حدود الدولة الإسلامية ضد كل المتربصين بها . ولا شك أن الاضطلاع بمسئولية

(1) M. Watt , Muhammad : Prophet and Statesman, p. 180; cf., H. Kennedy, The Prophet and the Age of the Caliphates, p. 41 .

الدعوة سبب قائم ودائم . ومن هنا كان اهتمام الرسول ﷺ بالقبائل العربية فى الشام يتزايد بمرور الوقت ، ولم يحدث أبدا أنه تناقص .

ملاحظات أساسية حول علاقة المسلمين بالروم قبل الحديبية (١ ـ ٦هـ)

أولاً : لا يبدو أن الروم وأحلافهم من عرب الشام أظهروا اهتماماً عملياً بالدولة الإسلامية الناشئة خلال السنين الأربعة التالية لهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة. صحيح أن انتصار المسلمين فى بدر بدأ يلفت أنظار القوى الخارجية إلى تلك القوة الوليدة ، ولكن الواضح أنه لم تكن هناك خطوة عملية من أى طرف خارجى لمقاومة تلك القوة خلال هذه الفترة المبكرة .

ثانياً : عندما بدأت الدولة الإسلامية تؤكد ذاتها وتصبح واقعاً لا يمكن تجاهله لجأ أحلاف الروم من عرب الشام إلى سلاح الحرب الاقتصادية ضد المدينة ، وذلك عندما حاول أهل دومة الجندل وغيرهم إنزال الأذى بالتجار الأنباط الذين كانوا يحملون إلى المدينة سلع الشام الضرورية كالدقيق والزيت وغير ذلك . وقد ردَّ الرسول ﷺ على ذلك بشن أول حملة إسلامية ضد بلاد الشام فى سنة ٥هـ ؛ وهى المعروفة باسم «غزوة دومة الجندل» ، والتى تعتبرها بعض مصادرنا أولى غزوات الرسول ضد الروم . ولا شك أن فى ذلك دلالة على أن المسلمين لم يكونوا يفْصِلون كثيرا بين عرب الشام وأسيادهم البيزنطيين ، فقد ربط بينهم رباط العداء للإسلام .

ثالثاً : بعد انتصار المسلمين فى غزوة الخندق (فى شوال سنة ٥هـ) وتشتيت شمل الأحزاب الذين تواطأوا على نسف بنيان الدولة الإسلامية بدأ الرسول ﷺ يوجه بعوثه إلى عرب الشام بهدف الدعوة إلى الإسلام وليس بهدف الحرب أو التجارة . وقد استطاع عبد الرحمن بن عوف أن يحرز أول نصر فى

ميدان الدعوة فى تلك البقاع عندما أسلم علـى يديه عدد كبير من قبيلة كلب بدومة الجنـدل وعلى رأسهم زعيـمهم الأصـبغ بن عمـرو . وسوف يواصل الرسول ﷺ محـاولاته الناجحة فى هذا الاتجاه خلال المرحلـة التالية لصلح الحديبية .

رابعاً : لم تكن هناك مـواجهات مـباشرة بين المسلمين والروم خـلال المرحلة التى نتحدث عنها ، بل كانت المواجهات بينهم وبين عرب الشام ، وخاصة قبائل كلب وجذام ولخم . ولكن الأمور سـوف تختلف اختلافاً كـبيراً فى المراحل اللاحقة .

******

الفصل الثالث

الرسـول والبيزنطيـون من صلح الحديبية حتى سرية مؤتة : ٦هـ (٦٢٨م) - ٨هـ (٦٢٩م)

مقدمة :

عقد الرسول ﷺ صلح الحديبية مع مشركى قريش فى ذى القعدة من سنة ٦هـ (مارس ٦٢٨م) ؛ وكان من بين بنود هذا الصلح أن تتوقف الحرب بين قريش والمسلمين عشر سنين . وقد نقضت قريش هذا الصلح بعد أقل من عامين حين أعانت حلفاءها من قبيلة بنى بكر على خزاعة حلفاء المسلمين ، فترتب على ذلك فتح مكة وانضواؤها تحت راية الإسلام فى رمضان سنة ٨ هـ .

أتاحت هدنة الحديبية للدعوة الإسلامية أن تشق طريقها بعيدا عن كيد قريش ودسائسها . فليس غريبا أن تحرز من التقدم خلال عامين اثنين ما لم تحرزه خلال عمرها الطويل قبل ذلك . وقد رأى الرسول ﷺ أثناء هذه الهدنة أن الظروف مواتية لنشر كلمة الإسلام ؛ ليس داخل الجزيرة العربية فحسب ، بل خارجها أيضاً ، وذلك بين من يتسنى له الاتصال بهم من ملوك العالم وأمرائه ، ثم بين القبائل العربية فى الشام .

ومن هنا سندير حديثنا فى هذا الفصل حول نقطتين أساسيتين هما :

أولاً : كتب الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء .

وثانياً : علاقته بالقبائل العربية فى الشام .

فلنبدأ بمناقشة النقطة الأولى :

أولاً : كتب الرسول إلى الملوك والأمراء :

يكاد يجمع المؤرخون على أن الرسول ﷺ أرسل كتبه إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام بعد صلح الحديبية [١] ، ولكنهم يختلفون حول التاريخ الدقيق الذى أرسلت فيه هذه الكتب . فيذكر الطبرى أنها أرسلت فى ذى الحجة سنة ٦هـ [٢] فى حين أن البلاذرى يرى أن إرسالها كان فى سنة ٧هـ ، وهو عنده «أثبت من قول من قال فى سنة ست» [٣] . ثم إن أصحاب الرأى القائل بأن هذه الكتب أرسلت فى العام السابع للهجرة لا يتفقون على الشهر : فهو شهر ربيع الأول عند البعض [٤] ، أو شهر المحرم عند البعض الآخر [٥]. والملاحظ أن الطبرى فى رواية أخرى يذكر أن رسول الله ﷺ كان « قد فرق رجالاً من أصحابه إلى ملوك العرب والعجم دعاةً إلى الله عز وجل فيما بين الحديبية ووفاته » [٦] .

والرأى الذى نرجحه أن الرسول بدأ بإرسال هذه الكتب فى أوائل العام السابع للهجرة (٦٢٨م) ؛ فقد عاد عليه السلام من الحديبية إلى المدينة فى شهر ذى الحجة [٧] . وقد كان بحاجة إلى بعض الوقت لإعداد الكتب واختيار السفراء . وإذا كان إرسال هذه الكتب قد بدأ فى العام السابع فإن المنطقى أنه لم يتوقف فى

---

(١) يذكر « مونتجومرى وات » أن بعض هذه الكتب ارسل بالتأكيد قبل صلح الحديبية ، ولكنه لا يدعم رأيه بدليل تاريخى مقنع . انظر كتابه : Muhammad, Prophet and Statesman, p. 194

(٢) تاريخ الطبرى ، جـ٢ ، ص ٦٤٤ .

(٣) أنساب الأشراف للبلاذرى ، جـ١ ، ص ٥٣١ . وانظر أيضاً : المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء ، جـ١ ، ص ١٤١ ؛ وتاريخ ابن الوردى ، جـ١ ، ص ١٩٤ . والملاحظ ان الذهبى (فى كتابه : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص ٤١٧) يذكر أن هذه الكتب أرسلت فى العام الثامن للهجرة . ونحن لا ننكر أن يكون العام الثامن قد شهد إرسال بعض هذه الكتب ؛ ولكن الذى ننكره أن يكون قد شهد بداية إرسالها . والأقرب إلى المنطق أن يكون الرسول قد بدأ بإرسال هذه الكتب بعد عقد الحديبية بوقت غير طويل ، وهو ما تؤكده المصادر المبكرة .

(٤) التنبيه والإشراف للمسعودى ، ص ٢٢٥ .

(٥) زاد المعاد لابن القيم ، جـ١ ، ص ٣٠ .

(٦) تاريخ الطبرى ، جـ٢ ، ص ٦٤٤ .

(٧) المحبر لابن حبيب ، ص ١١٥ ؛ وسيرة ابن هشام ، جـ٣ ، ص ٣٧٨ .

الأعوام التالية [1] .

والذى يعنينا من هذه الكتب هو ما أرسله الرسول ﷺ إلى هرقل والمقوقس وأمراء الغساسنة . فقد أرسل مع دحية بن خليفة الكلبى كتاباً إلى هرقل وأمره أن يدفعه إلى عظيم بُصْرَى ليدفعه إلى هرقل . وهذا نص الكتاب كما جاء فى صحيح البخارى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ؛ سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أَسْلِمْ تَسْلَمْ . وأَسْلِمْ يؤتك الله أجرك مرتين ؛ فإن توليت فعليك إثم الأريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سَوَاءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » [2] .

كما أرسل إلى المقوقس ـ حاكم مصر بالنيابة عن هرقل ـ كتابا مع حاطب بن أبى بلتعة [3] ، وأرسل أيضاً إلى أمراء الغساسنة بالشام .

ولكن مصادرنا تضطرب اضطراباً شديداً فى حديثها عن كتب الرسول ﷺ إلى أمراء الغساسنة . على أن الرواية الشائعة تقرر أن الرسول أرسل شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شَمِر الغسانى [4] ، وكان ـ كما يذكر المسعودى ـ

---

(١) أرسل الرسول ﷺ عمرو بن العاص فى العام الثامن للهجرة – وهو نفس العام الذى أسلم فيه – إلى جَيْفر بن جُلَنْدى وعبّاد بن جُلَنْدى صاحبى عمان . كما أرسل فى نفس العام العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين . انظر : تاريخ الطبرى ، جـ٣ ، ص ٢٩ .

(٢) صحيح البخارى ، جـ٤ ، ص ٥٧ ، (باب دعوة اليهودى والنصرانى . .وما كتب النبى ﷺ إلى كسرى وقيصر . .) . ومن معانى كلمة الأريسيين الخدمُ ؛ وقد تعنى الرعية كما يشير إلى ذلك السياق هنا .

(٣) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ، ص ٤٥ وما بعدها ؛ وتاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ، ص٧٨ ؛ وتاريخ خليفة بن خياط ، جـ١ ، ص ٤١ .

(٤) تاريخ الطبرى ، جـ٢ ، ص ٦٤٤ ؛ والكامل لابن الأثير ، جـ٢ ، ص ٢١٠ ؛ والبدء والتاريخ للمقدسى ، جـ٤ ، ص ٢٢٩ . ويسميه المقدسى «الحارث الأصغر» .

«عـامل هرقل ملك الروم على دمـشق وأعـمالهـا ، وكـان ينزل الجولان ومـرج الصُّفّر» [1] . ويذكر الطبرى فى إحدى روايـاته أن شجاع بن وهب ذهب رسولاً إلى المنذر بن الحارث بن أبى شـمر [2]. وهناك من مصـادرنا ما يضـيف أنه عليه السلام أرسل أيضـاً عمار بن ياسـر إلى الأَيْهَم بن النعمان الغـسانى ، وذلك دون تحديد الوجهة التى اتجهت إليها هذه السفارة [3] .

على أن المشكلة الأكثـر تعقيـداً تتمثل فى سـفارة الحارث بن عُمَـيْر الأَزْدى ، مبعوث النبى ﷺ إلى ملـك بُصرى . فمعظم مصادرنا تذكر أن الحـارث بن عمير الأزدى لما نزل مؤتة ـ فى طريقـه إلى ملك بصرى ـ عرض له شرحبـيل بن عمرو الغسانى فقتله [4] ، وكان هذا من بين أسباب غزوة مؤتة كما سيأتى . ولكن سبق أن ذكرنا أن الرسول ﷺ أرسل إلى هرقل كـتاباً مع دحية بن خليـفة الكلبى وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل . فمن هوعظيم بصرى ؟ هل هو الحارث بن أبى شـمر الغسـانى كمـا جاء فى بعض الروايات [5] . ولكن حامل كـتاب رسـول الله إلى الحارث بن أبى شـمر ـ كمـا ذكرنا منذ قلـيل ـ كان شجـاع بن وهب الأسدى . ثم لماذا لم يُحمِّل الرسـول ﷺ دحية كتـاباً آخر إلى عظيم بصرى بدل أن يوجه إليـه رسولاً خاصاً هو الحارث بن عمـير ؟ لا نكاد نجد

---

(١) التنبيه والإشراف للمسعودى ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٢) تاريخ الطبـرى ، جـ٢ ، ص ٦٥٢ . وهناك من مصـادرنا ما يذكـر أن الرسول ﷺ بعث شـجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى أو إلى جبلة بن الأيهم الغسانى . سيرة ابن هشام ، جـ٤ ، ص ٢٧٩ . وانظر أيضـاً : تاريخ خليفـة بن خيـاط ، جـ١ ، ص٦٣ . وهناك ما يـذكر أن شجاع بن وهب ذهب « إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى وابن عمه جبلة بن الأيهم ملكى البلقاء من أعمال دمشق » . جوامع السيـرة لابن حزم ، ص ٢٩ ـ ٣٠ . ثم إن هناك رواية تذكر أن شجاع بن وهب توجه إلى هرقل مع دحية بن خليفة . زاد المعاد لابن القيم ، جـ١ ، ص ٣٣ .

(٣) تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ، ص ٧٨ .

(٤) انظر على سبـيل المثال : المغازى للواقـدى ، جـ٢ ، ص ٧٥٥ وما بعدها ؛ والطبقـات الكبرى لابن سعد ، جـ٢ ، ص ١٢٨ ، و جـ٤ ، ص ٣٤٣ ؛ والإصابة فى تمييـز الصحابة لابن حجر ، جـ١ ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ؛ والاستيعاب لابن عبد البر ، جـ١ ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

(٥) السيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبى ، جـ٢ ، ص ٢٨٤ .

فى مصادرنا إجابات شافية عن هذه الأسئلة .

ومهما يكن من خلاف حول بعض التفاصيل المتعلقة بكتب رسول الله ﷺ إلى ملوك العالم وأمرائه ـ ومنهم ملوك وأمراء الامبراطورية البيزنطية ـ فإن الذى تُجْمِع عليه مصادرنا أن هذه الكتب تضمنت دعوة هؤلاء بالحسنى إلى دين الله . وهذا هو ما تشير إليه الآية الكريمة التى استشهد بها رسول الله ﷺ فى كتابه إلى هرقل:
﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

ونأتى الآن لمناقشة ردود الفعل لدى من أشرنا إليهم من الملوك والأمراء لكتب الرسول ﷺ ؛ وهم هرقل والمقوقس وأمراء الغساسنة . ولنبدأ بأهم شخصية فيهم وهو هرقل .

ورغم اختلاف المؤرخين حول بعض التفاصيل المتعلقة بسفارة دحية إلى هرقل فإنهم يُجْمعون على أن هرقل استقبل كتاب رسول الله استقبالاً حسناً (٢) . وقد كان الامبراطور فى ذلك الوقت مقيما بحمص استعداداً للذهاب إلى بيت المقدس لرد الصليب الأعظم إلى مكانه بعد استرداده من الفرس (٣) . وقيل إنه كان قد وصل فعلاً إلى بيت المقدس (٤) ، وهناك رواية طويلة يرددها معظم المؤرخين حول

---

(١) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٢) وهذا يجعلنا نختلف مع ما يراه الدكتور جوزيف نسيم يوسف حين يتحدث عن الرسالة التى وجهها الرسول ﷺ إلى هرقل حيث يذكر أن هرقل « لم يُعْنَ بالرسالة الموجهة إليه ، فكان هذا بداية الحرب بين العرب والروم » . انظر كتابه : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١١٠ . والحق أن الحرب بين المسلمين والروم لم تكن نتيجة سوء استقبال هرقل لرسالة الرسول عليه السلام ، بل كانت نتيجة تطورات أخرى ناقشناها بالتفصيل فى غير موضع من هذا البحث .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ٤ ، ص ٢٥١ ؛ والإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ، جـ١ ، ص ٢٦٣ .

(٤) تاريخ الطبرى ، جـ٢ ، ص ٦٤٦ ؛ والأموال لأبى عبيد ، ص ٢٦ - ٢٧ ؛ وزاد المعاد لابن القيم ، جـ١ ، ص ٣٠ . والمعروف أن هرقل رد الصليب الأعظم إلى مكانه ببيت المقدس فى ربيع سنة =

استدعاء هرقل لبعض التجار العرب بالشام لسؤالهم عن حال هذا النبى العربى الذى ظهر بالحجاز ، وذلك بعد أن وصله كتابه . ونحن نحجم عن سرد هذه الرواية لطولها ؛ ولكن مؤداها أن عيون هرقل جاؤوه بأبى سفيان الذى كان قد ذهب إلى غزة للتجارة ، وكان معه جماعة من أصحابه . فقال هرقل عن طريق مترجمه : « إنى سأسأله ؛ فإن كذب فردوا عليه » . ثم شرع يسأل أبا سفيان عددا من الأسئلة التى دارت حول نسب الرسول ﷺ وتاريخه وأخلاقه وحال أتباعه ، فتحرى أبو سفيان الصدق فى كل ما أجاب به . وهنا قال هرقل : «لئن كنت صدقتنى ليغلبَنِّى على ما تحت قدمىَّ هاتين» ! ويعلق أبو سفيان قائلاً : «فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدىّ بالأخرى وأقول: أىْ عبادَ الله ، لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبى كبشة! أصبح ملوك بنى الأصفر يهابونه فى سلطانهم بالشام» [1] .

وتمضى هذه الرواية فتذكر أن هرقل قال لدحية : « والله إنى لأعلم أن صاحبك نبى مرسل وأنه الذى كنا ننتظره ونجده فى كتابنا ، ولكنى أخاف الروم على نفسى » . وقد عرض هرقل على الروم ـ كما يروى الطبرى وغيره ـ أن يتبعوا محمدا فأبوا ، فعرض عليهم أن يوافقوا على إعطائه الجزية كل عام كَسْراً لشوكته فأبوا ، فعرض عليهم أن يوافقوا على إعطائه أرض سورية فأبوا كذلك [2] .

بل إن اليعقوبى يمضى إلى أبعد من ذلك حين يقرر أن هرقل كتب إلى محمد

= ٦٣٠م (انظر التمهيد ، ص ٣٢) ؛ أما كتاب الرسول ﷺ فقد أرسل سنة ٦٢٨م (أوائل سنة ٧هـ) . ومع الأخذ فى الاعتبار أنه استغرق فى وصوله بعض الوقت فإنا نرجح أنه وصل إلى هرقل وهو ما زال بحمص .

(١) انظر القصة بأكملها فى تاريخ الطبرى ، جـ٢ ، ص ٦٤٦ - ٦٤٨ ؛ والأغانى للأصفهانى ، جـ٦ ، ص ٣٤٥ وما بعدها . و «ابن أبى كبشة» تسمية كانت تطلقها قريش على رسول الله ؛ فيقال إن وهب ابن عبد مناف بن زهرة ، أبا آمنة (أم الرسول عليه السلام) ، كان يكنى أبا كبشة ؛ وعمرو بن زيد بن لبيد النجارى ، أبا سلمى أم عبد المطلب ، كان يكنى أبا كبشة ؛ والحارث بن عبد العزى حاضن رسول الله وزوج حليمة السعدية كان يكنى أيضاً أبا كبشة . انظر المحبر لابن حبيب ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ . وأمِر أمْره أى تعاظم شأنه .

(٢) تاريخ الطبرى ، جـ٢ ، ص ٦٥٠ ـ ٦٥١ ؛ والكامل لابن الأثير ، جـ٢ ، ص ٢١١ .

ﷺ يشهد أنه رسول الله [1] .

والذى نستطيع أن نقرره بعد فحص هذه الروايات أن هرقل لم يسئ إلى مبعوث النبى ﷺ بل أكرمه وأحسن وفادته . أما ما عدا ذلك فنحن نتردد فى قبوله ؛ فليس من اليسير أن نصدق أن هرقل عرض على الروم أن يتبعوا محمدا ﷺ أو يعطوه الجزية أو يتنازلوا له عن أرض سورية نتيجة أول خطاب يتسلمه منه! فهذه الرواية التى تُروَى عن أبى سفيان ينقض أولها آخرها ؛ فهى فى بدايتها توحى أن هرقل لم يكن يعلم عن النبى ﷺ شيئاً عندما وصله خطابه ، ثم هى فى النهاية تشير إلى أن هرقل طلب من أتباعه أن يوافقوا على واحد من تلك الأمور الثلاثة التى لا يمكن أن تقدم بمثل هذه البساطة !!

أما رواية اليعقوبى التى تذكر أن هرقل كتب إلى النبى كتاباً يعلن فيه إيمانه برسالته فهى لا تثبت أمام المناقشة . فكيف يعلن هرقل ذلك وقد قضى حياته كلها حرباً على الإسلام؟ ومما يشكك فى رواية اليعقوبى وأمثالها أن هرقل غضب على نائبه المقوقس حاكم مصر ونفاه متهما إياه بالجبن والكفر والخيانة نتيجة صلحه مع العرب فى خلافة عمر بن الخطاب [2] . فمن العسير - إذن - أن نتصور أن هرقل أعلن استجابته لدعوة النبى ﷺ ؛ فهذا ولا شك من شطحات خيال بعض المؤرخين المسلمين . ولعل الذى أوحى إليهم بذلك هو حسن استقبال هرقل لمبعوث النبى ﷺ . ولكن هذا لم يكن إلا تصرفا أملاه بُعْد النظر من سياسى محنك . فأى مكسب كان سيجنيه هرقل لو أنه قتل مبعوث رسول الله أو أساء استقباله ؟!

---

(1) تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ، ص ٧٨ . ونص كتاب هرقل إلى النبى ﷺ كما يرويه اليعقوبى : « إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى ، من قيصر ملك الروم : إنه قد جاءنى كتابك مع رسولك ، وإنى أشهد أنك رسول الله نجدك عندنا فى الإنجيل ، بشرنا بك عيسى بن مريم . وإنى دعوت الرو[م] إلى أن يؤمنوا بك فأبوا ، ولو أطاعونى لكان خيرا لهم . ولوددت أنى عندك فأخدمك وأغسل قدميك » . وانظر أيضاً : الاستيعاب لابن عبد البر ، جـ٢ ، ص ٤٦١ ؛ وهو يقول : «آمن قيصر ، وأبت بطارقته أن تؤمن» .

(2) تاريخ الإسلام السياسى لحسن إبراهيم حسن ، جـ١ ، ص ١٦٤ .

ولم يكن المقوقس أقل سياسة من هرقل فى استقباله لمبعوث النبى ﷺ (حاطب ابن أبى بلتعة) . يروى ابن عبد الحكم بهذا الشأن أن المقوقس «أكرم حاطباً وأحسن نُزُله ثم سرَّحه إلى رسول الله ﷺ وأهدى له مع حاطب كسوة وبغلة بسرجها وجاريتين» [(١)] . وتجمع مصادرنا على فحوى هذه الرواية مع اختلاف بينها فى بعض التفاصيل [(٢)] .

ولكن الملاحظ أن الغساسنة لم يحسنوا استقبال سفراء رسول الله ﷺ . فقد سبق أن ذكرنا أن الحارث بن عمير الأزدى الذى أرسله الرسول ﷺ إلى حاكم بُصْرَى قُتل عند مؤتة على يد شرحبيل بن عمرو الغسانى . كما أن الحارث بن أبى شَمِر الغسانى حاكم دمشق ـ أو المنذر بن الحارث على إحدى الروايات ـ أساء استقبال شجاع بن وهب مبعوث رسول الله إليه ؛ ويروى أنه قال بعد أن قرأ كتابه إليه : « مَنْ ينزع منى مُلْكى؟ أنا سائر إليه » [(٣)] وقد أخذ المسلمون تهديد الحارث مأخذ الجد ؛ فيروى بهذا الصدد أن الصحابى أوس بن خولى ـ وكان مؤاخيا لعمر ابن الخطاب ـ طرق الباب ذات مساء على عمر طرْقاً شديداً ، وعندما خرج إليه عمر فزِعاً يسأله ما الخبر قال له أوس : «قد حدث اليوم أمر عظيم!» فقال عمر : «ما هو ؟ أجاءت غسان؟» [(٤)] . ويرى أنه قال : «لعل الحارث بن أبى شمر قد سار إلينا فإنه بلغنا أنه قد أنْعَل الخيل» [(٥)] .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ، ص ٤٧ . وإحدى الجاريتين هى مارية التى دخل بها رسول الله ﷺ ، فهى أم ولده إبراهيم ؛ والثانية هى سيرين التى يقال إن النبى أهداها لحسان بن ثابت ، فهى أم ولده عبد الرحمن . وهناك أقوال أخرى يرويها ابن عبد الحكم بهذا الصدد لا موضع لذكرها هنا . نفس المصدر ، ص ٤٧ وما بعدها .

(٢) انظر مثلاً : البدء والتاريخ للمقدسى ، جـ٤ ، ص ٢٢٩ ؛ وزاد المعاد لابن القيم ، جـ١ ، ص ٣٠ ـ ٣١ ؛ وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبى ، جـ١ ، ص ٢٥٤ .

(٣) تاريخ الطبرى ، جـ٢ ، ص ٦٥٢ . ونص كتاب رسول الله ﷺ إلى الحارث كما جاء فى الطبرى : «سلام على من اتبع الهدى وآمن به . إنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك» .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ٨ ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ وص ١٩٠ . ويروى البخارى جوهر هذه القصة فى مواضع مختلفة من صحيحه مع تعديلات طفيفة . انظر مثلا : جـ٣ ، ص ١٧٥ ؛ و جـ٦ ص ١٩٥ ـ ١٩٦ ، و جـ٧ ، ص ٣٦ ـ ٣٧ و ص ١٩٦ .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ٨ ، ص ١٩٠ .

ملاحظات يستدعيها استعراضنا السابق لكتب الرسول إلى الملوك والأمراء :

أولاً : أتاحت الفترة التى تلت صلح الحديبية أمثل الظروف أمام الرسول ﷺ لإرسال هذه الكتب ؛ فقد انتشر بعد هذا الصلح جو من الأمن والسلام كان مناخاً صالحاً لنشاط الدعوة الإسلامية وتقدمها بعيداً عن كيد المتآمرين.

ثانياً : كانت هذه الكتب تطبيقاً عملياً لقوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (١) . فلم تنطو هذه الكتب على أى لون من التهديد أو الإثارة ، وإنما كانت بالأحرى دعوة إلى التوصل إلى «كلمة سواء» .

ثالثاً : كان رد الفعل الذى أظهره كلٌّ من هرقل والمقوقس إزاء هذه الكتب طيباً بعيداً عن العدوانية ؛ فقد أحسن كلاهما استقبال مبعوث رسول الله ، ولم يصدر منهما أذى أو تهديد بالأذى . ومن هنا لم يجد المسلمون مبررا فى ذلك الوقت لأن يصطدموا بهرقل أو نائبه المقوقس . على أن هذا الاستقبال الطيب لا يبيح لنا أن نذهب إلى المدى الذى ذهب إليه بعض المؤرخين المسلمين حين ذكروا أن هرقل استجاب لدعوة النبى ﷺ أو أبدى استعداده لدفع الجزية له أو عَقْدِ الصلح معه مع التنازل له عن بعض أراضيه ، فهذا أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة .

رابعاً : كان الغساسنة عُدْوَانِيِّين فى استقبالهم لكتب الرسول ﷺ وسفرائه ؛ فقد قتلوا مبعوثا للرسول ، وهو الحارث بن عمير الأزدى ، عندما كان فى طريقه إلى حاكم بصرى . ولا شك أن قتل السفراء يعتبر انتهاكاً لكل الأعراف والقوانين الدولية (٢) ، بل هو نوع من إعلان الحرب . كما أن الحارث بن أبى شمر حاكم دمشق وإقليم البلقاء أساء استقبال مبعوث

---

(١) سورة النحل : ١٢٥ .

(2) J. Glubb, The Life and Times of Muhammad, p. 289 .

الرسول ﷺ «وأمر بالخيل أن تُنعَل» [1] ؛ أى هدد بالزحف على المدينة . وسوف نرى بعد قليل كيف أسهم الغساسنة بموقفهم هذا فى إشعال فتيل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين .

* * * *

مدى وجاهة التشكيك فى وثاقة كتب الرسول إلى الملوك والأمراء :

فى حديثنا عن كتب الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء - ومن بينهم هرقل والمقوقس وأمراء الغساسنة - تناولنا تحقيق التاريخ الذى كُتبت فيه ، والمضمون الذى اشتملت عليه ، وردود الفعل التى أبداها من ذكرنا تجاه هذه الكتب وحامليها من سفراء الرسول . ولم نجد سببا من المنطق أو التاريخ يدعونا للتشكيك فى الوثاقة التاريخية لهذه الكتب .

ومع ذلك فقد وجدنا من الباحثين الغربيين من يلقى ظلالاً من الشك حول هذه القضية . ومن هؤلاء **«جرونباوم»** الذى يقول : «إن الوثاقة التاريخية لهذه السفارات لا يمكن أخذها مأخذ الجد» . ثم يزعم بعد ذلك أن خلفاء محمد هم الذين صاغوا هذه الرسائل وأنهم أرادوا بذلك «أن يقدموا دليلاً وثائقياً على أن محمدا أُرسِل إلى الناس كافة ولم يُرْسَل إلى العرب فحسب» [2] . ومن هؤلاء أيضاً **«فاريليف»** الذى يقول : «أما ما يقال من أن محمدا كتب إلى حكام البلاد الأخرى - وفيهم هرقل - يدعوهم إلى الإسلام وأن هرقل أجاب إجابة رقيقة فهو الآن أمر يُنْظَر إليه على أنه من اختراع المتأخرين . ومع ذلك فهناك باحثون - حتى فى عصرنا هذا - يقبلون هذه المراسلات على أنها حقيقة تاريخية» [3] .

---

(١) السيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبى ، جـ٣ ، ص ٣٠٥ .

(2) G. E. Von Grunebaum, Classical Islam, p. 42 .

(3) A. A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire, p. 211 .

ويتردد هذا الرأى لدى مؤرخين آخرين مثل «جلوب» (1) و «أميلنو» (2) و «ديلاسى أوليرى» (3) و «رانسمان» (4) وغيرهم .

ورغم أن «مونتجومرى وات» لم يشكك صراحة فى قضية إرسال هذه الرسائل فإنه يعتقد أنها لم تتضمن دعوة الملوك والأمراء إلى اعتناق الإسلام ، وأن ذلك كان من اختراع المتأخرين (5) . كما يطرح المستشرق «سوندرز» احتمال أن محمدا حين أرسل كتبه إلى الملوك والأمراء بدأ يفكر فى جعل رسالته عالمية لا محلية (6).

فلنختبر الآن مدى صحة هذه الآراء :

إن الزعم بأن خلفاء الرسول ﷺ هم الذين كتبوا هذه الرسائل رغبة منهم فى إثبات عالمية الدعوة الإسلامية لهو زعم لا يستند إلى أى أساس علمى صحيح ، وذلك للأسباب التالية :

أولاً : أن عالمية الدعوة الإسلامية أمر أثبته القرآن الكريم بأقوى بيان ، فلم يكن المسلمون بعد وفاة الرسول بحاجة إلى إثباته . وقد كانت عالمية الدعوة الإسلامية قضية ثابتة ومقررة منذ ظهور الإسلام بمكة ولم تكن أمراً جَدَّ على الساحة مع ارتفاع شأن الإسلام بالمدينة . فهناك من الآيات المكية فى القرآن الكريم ما يؤكد هذه الحقيقة بما لا يدع مجالاً لأدنى شبهة . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ (7)، وقوله سبحانه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (8) ؛ وقوله جل شأنه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (9) ، إلى غير ذلك . ولا

---

(1) J. Glubb, The Great Arab Conquests, p,. 89 f.

(2) انظر حول ذلك : فتح العرب لمصر : لبتلر ، ص ٤٥٧ .

(3) مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ، ترجمة د. تمام حسان ، ص ٢٠٤ .

(4) S. Runciman, History of the Crusades, vol. I, p. 13 .

(5) M. Watt, Muhammad at Medina, p. 113 .

(6) J. J. Saunders, A History of Medieval Islam, p. 32 .

(7) سورة الفرقان : ١ . (8) سورة سبأ : ٢٨ . (9) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

يستطيعَ أن يزعم زاعم ، بالطبع ، أن المسلمين هم الذين كتبوا هذه الآيات ونظائرها بعد وفاة الرسول ﷺ سعيا منهم لإثبات عالمية الدعوة الإسلامية .

ثانياً : أن هذه الكتب لم تُجْمع على صحتها مصادرنا التاريخية الأساسية فقط مثل تاريخ الطبرى واليعقوبى وسيرة ابن هشام وتاريخ ابن عبد الحكم وغير ذلك من المصادر ، بل روى بعضها أكبر حجة فى الحديث النبوى وهو البخارى فى صحيحه (١) . وإذا كان إجماع المؤرخين والمحققين أمرا لا يدخل فى الاعتبار عند تناول القضايا التاريخية فسوف يصبح من الصعب حقا إثبات كثير من حقائق التاريخ .

ثالثاً : ارتبط بعض هذه الكتب بأمور واقعية محسوسة لا مجال لإنكارها تاريخياً . فالمعروف أن المقوقس فى رده على رسالة الرسول ﷺ أرسل عددا من الهدايا من بينها جاريتان إحداهما مارية التى أصبحت أم ولده إبراهيم (٢) . ومن الصعب أن ينكر مؤرخ هذه الحقيقة ، كما أنه من المستحيل الزعم بأن المسلمين هم الذين اخترعوا قصة مارية وإبراهيم بعد وفاة الرسول ﷺ !

رابعاً :لايبدو أن هناك أمراً غير منطقى فى إرسال الرسول لهذه الكتب . بل إن تاريخ الرسول ليؤكد أن إرسال هذه الكتب ينسجم تماماً مع واقع حياته بعد البعثة ومقتضيات رسالته . فقد قامت رسالته على الدعوة منذ بعثته حتى مماته . فلم يكن مستغربا منه أن يرسل تلك الرسائل إلى الملوك والأمراء ليبلغهم دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة دون أن يذهب إلى أبعد من ذلك تطبيقاً لقوله تعالى : ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إلاَّ الْبَلاغُ ﴾ (٣) ولعل المنكرين لهذه الكتب استعظموا أن يرسل رسول الله إلى ملوك مثل هرقل أو خسرو برويز أو المقوقس فى صولجانهم وعزتهم يرغِّبهم فى الإسلام . وهؤلاء لم يفهموا أساساً طبيعة الدعوة الإسلامية .

---

(١) انظر مثلا ص ٧٥ من الجزء الرابع من صحيح البخارى (باب دعاء النبى ﷺ إلى الإسلام والنبوة) .

(٢) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(٣) سورة المائدة : ٩٩ .

ولعل ما مضى يصلح ردا على «سُونْدَرْز» الذى يزعم أن محمدا حين أرسل كتبه إلى الملوك والأمراء بدأ يفكر فى جعل رسالته عالمية لا محلية . فالآيات المكية التى أشرنا إليها سابقاً كافية للرد عليه .

أما الرأى الذى يعرضه «مونتجومرى وات» ، وهو أن هذه الكتب لم تتضمن دعوة إلى الإسلام ، فهو رأى غريب حقاً ؛ لأننا لا يمكن أن نتصور أن مثل هذه الكتب فى الوقت الذى أرسلت فيه كان يمكن أن تتضمن شيئاً آخر غير الدعوة إلى الإسلام [1] . فلم يكن هناك احتكاك مباشر بين الرسول ﷺ وهؤلاء الملوك والأمراء قبل إرسال هذه الكتب ، ولم تكن هناك حروب بين المسلمين وبين هؤلاء يمكن أن تترتب عليها سفارات بغرض عقد الصلح أو تبادل الأسرى . فالأمر الوحيد الذى كان يمكن أن يدخل فى اعتبار الرسول عند اتصاله بهؤلاء هو دعوتهم إلى الإسلام.

* * * *

أطلنا الحديث عن قضية كتب رسول الله إلى الملوك والأمراء لما لهذه الكتب من أهمية فى إلقاء الضوء على جذور الصراع بين المسلمين والروم في عصر الرسول عليه السلام ، ولما لها من دلالة بالنسبة لتطور ذلك الصراع فيما بعد .

لقد مثَّل كتاب رسول الله إلى هرقل أول اتصال مباشر بين المسلمين والروم . وقد كان ذلك فى العام السابع للهجرة كما ذكرنا . ورغم أن هرقل لم يُظهر عداءً للدولة الإسلامية بالمدينة ـ وهو ما وضحناه آنفا ـ فقد تدهور الموقف تدهوراً واضحاً على الجبهة الشمالية خلال الأعوام الأربعة التالية حتى وفاة رسول الله ﷺ. وقد لعب عرب الشام دوراً أساسياً فى إحداث ذلك التدهور .

---

(١) يقترح «وات» مضامين غريبة لهذه الكتب ؛ فهو يرى أنه من المحتمل أن يكون الرسول قد عرض على بعض الملوكَ فيها عقد اتفاق سياسى معهم حتى يفوِّت على قريش فرصة طلب المعونة من هؤلاء، وذلك بعد التطورات الخطيرة التى حدثت بالحجاز والتى أحاط الرسول هؤلاء الملوك بها علما . لمزيد من التفاصيل ارجع إلى : Muhammad, prophet and Statesman , p. 194 - 195
والملاحظ أن «وات» لا يقدم دليلا على ما يقول؛ فهو يضحى بالحقيقة فى سبيل أوهام لا برهان عليها.

ثانياً : علاقة الرسول بالقبائل العربية فى الشام ، ودور عرب الشام فى إشعال فتيل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين :

قد لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن الغساسنة ـ وعرب الشام بصفة عامة ـ كانوا هم المسئولين فى المقام الأول عن إشعال الشرارة الأولى فى أتون ذلك الصراع الطويل بين المسلمين والبيزنطيين ، وهو الصراع الذى بدأ فى القرن السابع الميلادى ولم ينته إلا فى القرن الخامس عشر .

لقد ذكرنا فى حديثنا عن كتب الرسول ﷺ إلى أمراء الغساسنة أن الحارث بن عمير الأزدى مبعوث رسول الله إلى أمير بصرى لقى مصرعه على يد شرحبيل بن عمرو الغسانى . وقد كانت مهمة الحارث مهمة سلمية وهى مجرد الدعوة إلى الإسلام . ومن هذه الزاوية يُعَدّ قتل الحارث جريمة بكل المقاييس . وهى لم تكن جريمة ضد الحارث بقدر ما كانت جريمة ضد الدولة التى ذهب ممثلا لها وهى الدولة الإسلامية الناشئة بالمدينة . وقد كانت هذه الجريمة بحاجة إلى عقاب يناسب حجمها ولا يتجاوز الغرض منه ليصبح نوعا من العدوان . ولابد أن نؤكد هنا أن جريمة شرحبيل بن عمرو كانت تعكس موقف الغساسنة بصفة عامة تجاه الدعوة الإسلامية ولم تكن جريمة فردية يتحمل تبعتها شرحبيل وحده . ويؤكد هذا الموقف العام من الغساسنة ردُّ فعل الحارث بن أبى شمِر الغسانى لكتاب الرسول ﷺ إليه ؛ فقد ذكرنا أنه هدد بإعلان الحرب على المدينة وكان جادا فى تهديده إلى الحد الذى جعل المسلمين يصدقون ما أشيع فيما بعد من أنه أخذ أهبته للهجوم أو «أنْعَل الخيل» .

وبعد أن مضى على تلك الحادثة ما يزيد قليلاً عن العام حدث أمر آخر جعل المسلمين يتيقنون أن عرب الشام قد أسقطوا من حسابهم مبدأ التعايش السلمى مع الدولة الإسلامية واختاروا أسلوب المواجهة المسلحة ما أمكنهم ذلك . ففى شهر

ربيع الأول من العام الثامن للهجرة [1] (يوليو سنة ٦٢٩م) بعث الرسول ﷺ كعب ابن عُميْر الغِفَارى فى خمسة عشر رجلا إلى موضع يقال له «ذات أطلاح» بأرض الشام [2] للدعوة إلى الإسلام ، فخرجت عليهم قضاعة بجموعها وهم فى هذا العدد القليل فأحاطوا بهم وقاتلوهم ، فدافع المسلمون عن أنفسهم دفاعاً مستميتاً ، ولكن هذه المعركة غير المتكافئة أسفرت عن استشهادهم جميعا إلا واحدا أفلت بجراحه وتحامل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر . وقد شقّ ذلك على الرسول ، ولكنه لم يستطع أن يثأر لأصحابه من قضاعة فى ذلك الوقت ، حيث علم أنها تركت موضعها إلى موضع آخر [3] .

من الواضح أن بعثة كعب بن عمير هذه ـ وهى التى تدرجها مصادرنا تحت سرايا رسول الله ـ لم تكن سرية للقتال بل كانت بعثة للدعوة . فمن العسير حقا أن نتصور أن فريقا من خمسة عشر رجلا يمكن أن يذهبوا إلى أرض أجنبية بهدف القتال . ولم يكن الرسول ﷺ بكل خبرته العسكرية لِيُقْدِمَ على خطوة كهذه . وسوف نشير قريباً إلى أنه عندما أراد أن يقاتل عرب الشام بعد أن تكررت جرائمهم ضد الدولة الإسلامية أرسل ثلاثة آلاف مقاتل ليواجهوا العدو على أرض مؤتة .

وإذا كان الهدف من سرية ذات أطلاح ـ كما قررنا ـ هو الدعوة فمن الصعب فى ضوء ذلك أن نقبل ما يقوله «مونتجومرى وات» تعليقا على هذه السرية : «إننا لا نعلم ما هى المهمة التى أناطها محمد بكعب الغفارى وصحبه الأربعة عشر

---

(١) هذا هو التاريخ الذى نطمئن إليه والذى تذكره معظم مصادرنا . انظر مثلاً : أنساب الأشراف للبلاذرى ، جـ١ ، ص ٣٨٠ ؛ والمغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٧٥٢ ؛ والطبقات الكبرى لابن سعد، جـ٢ ، ص ١٢٧ ؛ والتنبيه والإشراف للمسعودى ، ص ٢٣٠ . ولكن القليل من المصادر يضع تاريخ هذا الحادث فى العام السادس للهجرة . انظر : تاريخ خليفة بن خياط ، جـ١ ، ص ٤١ ؛ والمحبر لابن حبيب ، ص ١٢٠ .

(٢) تقع ذات أطلاح ـ كما يقول المسعودى ـ «وراء وادى القرى بين تبوك وأذرعات من بلاد دمشق من أرض الشام» . التنبيه والإشراف ، ص ٢٣٠ .

(٣) المغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٧٥٢ ـ ٧٥٣ ؛ وتاريخ خليفة بن خياط ، جـ١ ، ص ٤١ .

عندما أرسلهم إلى حدود الشام . ولكننا مع ذلك نكاد نجزم أنهم لم يكونوا مجرد غزاة بل كانوا منفذين لجزء من خطة بعيدة المدى » [1] . ونحن نقول إنهم لم يكونوا غزاة على الإطلاق ،ونتفق مع «وات» فى قوله إنهم كانوا منفذين لجزء من خطة بعيدة المدى ، ولكن هذه الخطة البعيدة المدى لم تكن فى رأينا إلا نشر الإسلام بين عرب الشام .

ولم يكد يمضى شهران على بعثة كعب بن عمير إلى ذات أطلاح حتى حدثت أخطر مواجهة بين المسلمين والبيزنطيين فى مؤتة . وهذا هو موضوع الفصل التالى .



(1) M. Watt, Muhammad at Medina, p. 53 .

الفصل الرابع

سـريـة مـؤتـة ٨هـ (٦٢٩م)

مـلابسـاتها ـ أهدافها ـ تطـوراتها ـ نـتـائجها

خلفـيات مـؤتـة وملابسـاتـها :

ذكرنا أن عـرب الشام كـانوا هم المسئـولين فى المقام الأول عن إشـعال فـتيل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين . والواقع أن هذه المسئولية لا تنحصر فى مرحلة ما بعد الحـديبية (أى بعد سنـة ٦هـ) ، ولكنها تمتد بجذورها إلى المرحلة السـابقة عليها . فلعلنا نتذكر أن قبيلـة كلب (من قضاعة) ـ وقد كانت تنزل دُومة الجَنْدَل ـ دأبت على مضايقة المسلمين وحاولت أن تفرض عليهم نوعا من الحصار الاقتصادى عن طريق إيذائهـا للتجـار الذين كـانوا يحملون السـلع الضرورية من الشـام إلى المدينة، وهم الذين يُعـرفون فى مصـادرنا باسم «الضافطة» . وقد غـزا رسول الله ﷺ قبيلة كلب بدومة الجندل سنة ٥هـ ولكنه وجدهم قـد تفرقوا . كما أن رجالاً من جُذام ولَـخْم قطعوا الطريـق على دحية بن خليفة الكلبى عند مـروره بِحِسْمَى بعد إنجازه لمهمة أناطها به رسول الله ﷺ واسـتلبوا كل ما معه ، فكانت سرية زيد ابن حارثة إلى حسـمى فى سنة ٦هـ . ويضاف إلى ذلك أيضاً ما قامت به قـبيلتا مذحج وقضاعة من اعتداء على زيد بـن حارثة وصحبه فى العام المذكور (٦هـ) ، وذلك عندما ذهبـوا إلى وادى القرى فى بعثة لم تكن على أرجح الاحـتمالات إلا بغرض الدعوة .

فإذا جئنا إلى مرحلة ما بعد الحـديبية وجدنا هذا المسلك العدوانى يأخذ منحنى أكثر خطورة . فقد قَتَل أحدُ زعماء الغساسنة مبعوث الرسول ﷺ إلى ملك بصرى دون أدنى اعتبار لما تواضعت عليه الدول والمجتمعات من احترام السفراء . كما أن

الحارث بن أبى شمر الغسانى حاكم دمشق أساء استقبال مبعوث رسول الله وهدد بإعلان الحرب على المدينة . ثم حدث بعد ذلك بما يزيد قليلا عن العام أن بعث الرسول ﷺ خمسة عشر رجلا من أصحابه إلى «ذات أطلاح» للدعوة إلى الإسلام فأحاطت بهم جموع قضاعة وقتلتهم جميعا إلا واحدا أفلت بجراحه وتوجه إلى رسول الله ﷺ بالمدينة حيث أخبره الخبر .

فهذه هى خلفيات مؤتة .

والملاحظ أن معظم مصادرنا تذكر أن السبب فى سرية مؤتة هو مقتل الحارث ابن عمير الأزدى ـ مبعوث الرسول ﷺ ـ على يد شرحبيل بن عمرو الغسانى [1] . وهذا بكل تأكيد من بين الأسباب ؛ ولكنا لا نعتقد أنه هو السبب الوحيد أو حتى المباشر لسرية مؤتة . فقد كان مقتل الحارث ـ على أرجح الاحتمالات ـ فى أوائل العام السابع للهجرة ؛ وكانت سرية مؤتة فى جمادى الأولى سنة ٨هـ ، أى بعد ذلك الحادث بأكثر من عام . فهذا الحادث إذن لا يصلح أن يكون سببا مباشراً لسرية مؤتة . وإذا كان لنا أن نبحث عن سبب مباشر لهذه السرية فهو فى الغالب مقتل الدعاة المسلمين بزعامة كعب الغفارى فى «ذات أطلاح» ؛ فقد حدث ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٨هـ ، أى قبل حدوث سرية مؤتة بحوالى شهرين . ومع ذلك فإننا نرجح أن الأسباب الحقيقية لسرية مؤتة تكمن أساسا فى كل الانتهاكات والاستفزازات التى ارتكبها عرب الشام ضد المسلمين ابتداء من العام الخامس للهجرة . وكان استشهاد الدعاة المسلمين فى «ذات أطلاح» بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير .

---

(١) انظر على سبيل المثال : المغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٧٥٥ ـ ٧٥٦ ؛ والطبقات الكبرى لابن سعد، جـ٢ ، ص ١٢٨ ؛ وأسد الغابة لابن الأثير (ترجمة الحارث بن عمير) ، جـ١ ، ص ٤٠٨ ؛ وتاريخ الإسلام للذهبى ، جـ١ ، ص ٤٠١ ؛ والاستيعاب لابن عبد البر ، جـ١ ، ص ٢٩٨ .

أهـــــداف مـــؤتـــــة :

فى ضوء ما ذكرنا عن خلفيات مؤتة ومـلابساتها نستطيع أن نستنتج أن الهدف الأساسى أمام الرسول ﷺ من وراء هذه السـرية كان هو تأديب عرب الشام الذين دأبوا على استفزاز المسلمين وتحديهم وارتكاب الجـرائم ضد دعاتهم . وتحقيق هذا الهدف معناه فرض هيبة الدولة الإسلامية فى تلك المناطق بحيث لا تتكرر مثل هذه الجرائم فى المـستقـبل وبحيث يأمن الدعـاة المسلمون على أنفـسهـم ويأمن التـجار المترددون بين الشـام والمدينة من كل أذى يحول دون وصـول السلع الضرورية إلى المدينة .

ولابد أن نؤكد فـى هذا السياق أن هذه السـرية لم تهدف بحـال إلى مواجـهة البيزنطيين فى الميدان أو فتح صفحة عداء معهم . وقد كان عدد المشتركين فى هذه الحملة من هذه الزاوية ـ وهو ثلاثـة آلاف كما سنشيـر بعد قليل [1] ـ كافيـا تماما لتحقيق هذا الغرض المحـدود وهو تأديب عرب الشام . ولو كان الروم داخلين فى الحسبان عند الإعـداد لهذه السرية لما اكتفى الرسول بثـلاثة آلاف ؛ بل لهيأ لها كل ما استطاع من عـدد وعدة . وسوف نرى عند حديثنا عن غـزوة تبوك أن الرسول عندما أراد أن يواجه الروم قاد جيشا تعداده ثلاثون ألف مقاتل .

وإذا كانت أهداف سرية مؤتة واضحة فى تصـورنا فإن بعض الباحثين المحدثين يقترحـون أهدافا أخرى قد تجدر مناقشـتها هنا . ومن هؤلاء **«فيليب حتّى»** الذى يذكر أن الهدف الظاهرى لسرية مؤتة كان الانتقام لمقتل مبعوث رسول الله إلى أمير بصرى الغسانى ؛ أما الهدف الحقيقى فكان هو الحصول على السيوف المشرفية التى كانت تصنع فى مؤتة والمدن المجاورة لها ، وذلك لاسـتخدامها فى فتح مكة [2] . ويضيف «حتى» قائلاً : « إن سياسة الهـجوم على الأقطار المجاورة ـ تلك السياسة

(١) انظر ص ٩٢ فيما يلى ، وهامش ٣ .

(2) Philip Hitti, History of the Arabs , p. 147 . See also the same's History of Syria, p. 403 .

التى بدأها محـمد (أى بغزو مؤتة) ـ كان الهـدف منها جعل الدين الجديد مـقبولا لدى معتنقيه » (١) . ومن هؤلاء أيضاً «جلوب» الذى يرى أن محمـدا كان يهدف من سرية مؤتة إلى صرف أنظار العرب عن أن يحارب بعـضهم بعضا وإلى توجيه اهتمامهم لحرب عدو خارجى (٢) .

أما مـا يزعمه «فـيليب حتى» من أن هدف سـرية مؤتة كان هو الحـصول على السيوف المشرفية لاستخدامـها فى فتح مكة فهو رأى لا يقوم على منطق صحيح . فإذا كـان المسلمون قادريـن على غزو بلاد الشام ـ وقـد كانت تضم تلك القـبائل العربـية القوية المتـحالفـة مع الروم ـ فى الوقت الذى لم يكن لديهم فـيه سـيوف مشرفية يستخدمـونها فى هذا الغزو . . أفلم يكن بإمكانهم غزو مكة دون السيوف المشرفيـة ؟ وقد كانت مكة فى ذلك الوقت هدفـا سهلا أمام المسلمين ؛ فـقد قتل فيهـا صناديد الكفر أو أسلموا ، ولـم تبق فيـها بقية صـالحة للمقاومة . . أفـيأخذ المسلمـون كل هذا العناء ويتـحـملون كل هذه المخـاطرة من أجل الحـصـول على السيوف المشـرفية لاستخـدامها فى فتح لـم يكن يبدو أنـه يمثل خطرا أو مخاطرة ؟ فهـذا الرأى إذن ينهدم من داخله . أمـا الزعم بأن سيـاسة الهجـوم على الأقطار المجاورة ـ وهى السـياسة التى بدأها الرسـول بغزو مؤتة ـ كانت تهـدف إلى جعل الدين الجديد مـقبولا لدى معـتنقيه فهـو رأى لا يقل تهافتا عن سـابقه . ذلك أن الإسلام لـم يكن قط مـقبولا لدى معـتنقيه بسيـاسة الهجوم التى لا مـبرر لها ولا ضرورة . وقد وضح القرآن الكريم مبدأ الإسلام هنا غاية التوضيح فى آيات عدة؛ ومن ذلك قـوله تعـالى : ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (٣) .

ونأتى الآن إلى رأى «جلوب» الذى يذهب إلى أن سرية مؤتة كانت تهدف إلى

(1) Hitti, History of Syria, 410 .
(2) J. Glubb, The Life and Times of Muhammad, p. 367 .
(٣) سورة البقرة : ١٩٤ .

صرف أنظار العرب عن أن يحارب بعضهم بعضا وإلى توجيه اهتمامهم لحرب عدو خارجى .

ولابد لنا أن نتساءل : ماذا يقصد بالعرب هنا ؟ هل هم المسلمون أو جميع العرب ؟ لا يبدو أن المقصود بالعرب هنا هم المسلمون لأن المسلمين فى حياة الرسول ﷺ لم يكن بعضهم يحارب بعضا . فالغالب أن «جلوب» يقصد جميع العرب : مسلمين وغير مسلمين . ولا يمكن فى ضوء هذا التفسير أن يكون الهدف من سرية مؤتة هو صرف أنظار العرب عن أن يحارب بعضهم بعضا وتوجيه اهتمامهم إلى حرب عدو خارجى ؛ وذلك لعدة أسباب : **أولها** أن العدو الخارجى الذى توجهت لحربه سرية مؤته لم يكن فى الأساس إلا من العرب ، وهم عرب الشام [1] . فقد ذكرنا فى حديثنا عن خلفيات مؤتة وملابساتها أن هذه السرية جاءت رداً على الاعتداءات المتكررة من عرب الشام ضد المسلمين ومصالح الدولة الإسلامية فى المدينة . **أما السبب الثانى** ـ ولعله أهم من سابقه ـ فهو أن الذين كانوا يشنون الحرب على الدولة الإسلامية من عرب شبه الجزيرة كانوا فى نظر الرسول والمسلمين أخطر على الإسلام من العدو الخارجى من أهل الكتاب ، أى من الروم وأحلافهم . فقد كان المسلمون على استعداد كامل لمهادنة أهل الكتاب إذا لم يهددوا أمن الدولة الإسلامية ، ولكنهم لم يكونوا على استعداد لمهادنة المشركين من عرب شبه الجزيرة . **والسبب الثالث** أن الحرب من الوجهة الإسلامية الصحيحة لم تقم يوما على أساس عِرْقى ، بل قامت على أسس أيديولوچية ، وذلك عندما تقع العقيدة الإسلامية أو أمن الدولة الإسلامية التى تصونها تحت التهديد .

من كل ما سبق يتضح أن سرية مؤتة كانت ذات طابع دفاعى فى الأساس؛ فلم تكن تهدف إلا إلى كفٍّ أذى هؤلاء الذين أخذوا يتحرشون بالمسلمين ، بل ويهددونهم فى عقر دارهم .

---

(١) صحيح أن الروم اشتركوا بعد ذلك فى المعركة مساندين لعرب الشام ، ولكن العدو الأساسى الذى توجه المسلمون لحربه لم يكن الروم بل عرب الشام .

جيش المسلمين وجيش العدو فى مؤتة وتطورات المعركة :

أسند الرسول ﷺ قيادة سرية مؤتة إلى مولاه زيد بن حارثة ، فإن استشهد فالقائد جعفر بن أبى طالب ، فإن استشهد فعبد الله بن رواحة ، فإن استشهد «فليرتض المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم» (1) .

وقد أوصى الرسول زيد بن حارثة ورجاله «أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدْعوا من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم»(2).

تحرك زيد بن حارثة من المدينة فى اتجاه الشام على رأس جيش تعداده ثلاثة آلاف مقاتل طبقا لمعظم الروايات (3) ، وكان ذلك فى جمادى الأولى سنة ٨هـ (سبتمبر ٦٢٩م) . وقد عسكر المسلمون أولاً بالجُرْف (على بعد حوالى خمسة كيلو مترات إلى الشمال من المدينة) ، ثم انطلقوا فى غزوهم ، وخرج الرسول ﷺ مشيِّعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع (4) ، ثم أوصاهم وودعهم (5) .

سمع العدو بتحرك المسلمين قبل أن يصلوا إلى وجهتهم . ويبدو أن عرب الشام تملكهم الفزع عندما جاءتهم أنباء هذا الزحف فاستغاثوا بهرقل . وقد كان

---

(1) المغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٧٥٦ .

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ٢ ، ص ١٢٨ . ومقتل الحارث بن عمير - كما سبق أن ذكرنا - هو أرض مؤتة . انظر ص ٧٤ من هذا البحث .

(3) انظر مثلا : المغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٧٥٦ ؛ وتاريخ الطبرى ، جـ٣ ، ص ٣٦ ؛ وسيرة ابن هشام ، جـ٣ ، ص ٤٢٧ ؛ والطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ٢ ، ص ١٢٨ . والملاحظ أن ابن عساكر يذكر فى إحدى رواياته أن عدد المسلمين فى غزوة مؤتة كان ستة الاف ، ولكن هذه الرواية تكاد تخرج على إجماع المؤرخين . انظر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ١ ، ص ٣٩٠ . ومن ناحية أخرى يروى السهيلى أنه : «قد قيل إن المسلمين لم يبلغ عددهم فى ذلك اليوم ثلاثة آلاف» . وهى رواية لا سند لها . الروض الأنف ، جـ٧ ، ص ٤١ .

(4) يربط اليعقوبى بين هذه التسمية وبين غزوة تبوك حيث يذكر فى معرض حديثه عن هذه الغزوة أن النساء والصبيان خرجوا يودعون رسول الله ﷺ عند الثنية فسماها «ثنية الوداع» . تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ، ص ٦٨ . ومع ذلك فإن المؤرخين يستخدمون فى العادة هذه التسمية - حتى فيما يتصل بالأحداث السابقة لغزوة تبوك - نظرا لشدة الارتباط بين طرفيها .

(5) المغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٧٥٦ وما بعدها ؛ والطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ٢ ، ص ١٢٨ .

هذا بداية لأن يأخذ اتجاه الحملة منعطفاً خطيراً ؛ فلم يكن المسلمون يضعون فى اعتبارهم أنهم ذاهبون لحرب الروم بل لتأديب عرب الشام . وقد تقدم المسلمون فى مسيرهم حتى وصلوا إلى وادى القرى [1] ، فأقاموا بها أياما ، ثم تقدموا حتى نزلوا «معان» التى تقع إلى الشمال الشرقى من مدينة أيلة (العقبة) . وفى «معان» علموا أن هرقل قد نزل «مآب» من أرض البلقاء (انظر الخريطة رقم ٢ ص ١٤٠) .

وتختلف مصادرنا فى تقديرها لعدد جيش العدو . فيروى ابن هشام ـ ويتابعه فى روايته معظم المؤرخين ـ أن هرقل كان «فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لَخْم وجُذَام وبَلْقَـيْن وبَهْراء وبَلِىّ مائة ألف منهم ، عليهم رجل من بلى . . يقال له مالك بن رافلة» [2] . ويروى الواقدى أن هرقل كان على رأس مائة ألف من قبائل بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام [3] . ويذكر المسعودى أن الروم زحفوا للمسلمين وهم «فى مائة ألف أنفَذَهُم هرقل للقائهم وهو يومئذ مقيم بأنطاكية ، وعلى الروم تيادوقس البطريق ، وعلى متنصرة العرب من غسان وقضاعة وغيرهم شرحبيل بن عمرو الغسانى» [4] . ويقول ابن الوردى : «وكانت الروم والعرب المتنصرة فى نحو مائة ألف» [5] وهناك رواية تذكر أن الروم كانوا مائتى ألف والعرب المتنصرة خمسين ألفا [6] .

---

(١) كان الرسول قد فتح «وادى القرى» فى جمادى الآخرة من العام السابع للهجرة عقب فتحه لخيبر ، وعامل أهلها على نحو ما عامل عليه أهل خيبر ، فترك فى أيديهم الأرض والنخل ، وكان معظمهم من اليهود . انظر : فتوح البلدان للبلاذرى ، ص ٤٧ . ومعجم البلدان لياقوت ، جـ٥ ، ص ٣٩٧.

(٢) سيرة ابن هشام ، جـ٣ ، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ . وانظر ايضاً : تاريخ الطبرى ، جـ٣ ، ص ٣٧ ؛ والكامل لابن الأثير ، جـ٢ ، ص ٢٣٥ ؛ وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبى ، جـ١ ، ص ٢٨٠ ؛ وجوامع السيرة لابن حزم ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ؛ وزاد المعاد لابن القيم ، جـ٢ ، ص ١٥٦ ؛ وتاريخ الإسلام للذهبى ، جـ١ ، ص ٤٠٢ .

(٣) المغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٧٦٠ .

(٤) التنبيه والإشراف ، ص ٢٣٠ .

(٥) تاريخ ابن الوردى ، جـ١ ، ص ١٩٧ .

(٦) السيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبى جـ٢ ، ص ٧٨٧ ؛ والروض للأنف للسهيلى ، جـ٧ ، ص ٤١ .

إن هذه الأعداد الهائلة التى تقدرها مصادرنا لجيش العدو ، والتى تبلغ على أقل التقديرات مائة ألف ، جعلت بعض المؤرخين المحدثين يترددون بحق فى أخذها مأخذ الجد . ومن هؤلاء الشيخ محمد الخضرى الذى يقول : «وعندنا أن تلك الأعداد التى يذكرها المؤرخون لجنود الروم والعرب الذين معهم مبالغ فيها لأن غاية ما رآه المسلمون أنهم رأوا عدداً كثيراً أمامهم ، ولا يمكن بحال أن يعطوه قدره الحقيقى له» (١) . ويرى بعض الدارسين أن عدد قوات الروم وأتباعهم من العرب كانوا فى حدود عشرين ألفاً ، نصفهم من الروم ، ونصفهم من العرب الموالين لهم (٢) . وهذا التقدير يبدو معقولا وممكنا . ولكننا نتردد كثيراً فى قبول التقدير الذى يقدمه «جلوب» حيث يذكر أن «جيش الأعداء كان يتكون غالبا من حوالى أربعة آلاف أو خمسة آلاف من رجال القبائل العربية . ومن المحتمل أن يكون هذا العدد قد عُزِّز بفوج من الجند أو من المساعدين المحليين» (٣) . فلو صح تقدير «جلوب» لكان الفرق بين جيش المسلمين وجيش العدو محدودا ولم يكن هناك مبرر أمام المسلمين للتردد فى خوض المعركة بالصورة التى سنراها بعد قليل .وقد كانت نسبة الفارق بين المسلمين والمشركين فى بدر أكثر من ذلك مع أن المسلمين خاضوا المعركة وانتصروا .

ورغم أن الكثير من مصادرنا ـ كما تقدم ـ تشير إلى أن هرقل كان على رأس جيش الروم فى مؤتة فإن الأقرب إلى القبول ما يرويه المسعودى من أن الروم كانوا تحت قيادة أحد البطارقة ؛ وهو الذى يسميه المسعودى «تيادوقس» ، وهو تحريف لاسم ثيودوروس البطريق (Theodorus) كما ذكر بروكلمان (٤) . وتشهد بصحة رواية المسعودى رواية المؤرخ البيزنطى «ثيوفانس» الذى يذكر أن «ثيودوروس» ، الحاكم البيزنطى لتلك المنطقة ، خرج على رأس جيشه حين علم بتحركات الجيش

(١) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية لمحمد الخضرى ، جـ١ ، ص ١٩٤ .

(٢) سيف الله خالد بن الوليد لمصطفى طلاس ، ص ٩٠ .

(3) J. Glubb, The Life and Times of Muhammad, p. 290 .

(4) C. Brockelmann, History of The Islamic Peoples, p . 30 .

العربى وفاجـأ العرب بهجومه فبـدد شملهم عند مؤتة [١] . أما القوات الـعربية المتحالفة مع الروم فإن الكثير من المصادر ـ كـما سبق ـ تذكر أنها كانت تحت قيادة رجل من «بلىّ» اسـمه «مالك بن رافلة» . ويذكـر البعض أنهـا كانت تحت قـيادة «شرحبـيل بن عمرو الغسـانى» ، فى حين أن بعض التقارير تشيـر إلى أنها كانت تحت قيادة «ابن أبى سـبرة الغسانى» [٢] ولعلنا نستطيع أن نستنتج أن القـيادة العليا للقوات العـربية كـانت فى يد شرحـبيل بن عمـرو ، وكان هناك عـدد من القادة الآخرين يعملون تحت توجيهه ، من أبرزهم مالك بن رافلة وابن أبى سبرة .

بعد أن فـوجئ المسلمون ـ وهم بمعـان ـ بما لم يكونوا يتوقـعونه من ضخـامة جيش العـدو أقاموا هناك ليلتـين يتشاورون فى أمـرهم : هل يتقدمـون للقاء هذا الحشد الهائل من الروم والـعرب على غير استعداد ؛ أم يسـتمدون رسول الله ﷺ (والمدد قد يستغرق وصوله وقـتاً طويلاً) ؛ أم يعودون إلى المدينة ؟ وقد كان الرأى الذى اطمأن إليه المسلمون فى البداية هو العودة إلى المدينة حيث قالوا لقائدهم زيد ابن حارثة : « قد وَطِئـتَ البلادَ وأخَفْتَ أهلها ، فـانصرف ؛ فإنه لا يَعْدِلُ العافية شىء» [٣] . ولكن عبـد الله بن رواحة حسم الموقف بقـوله : «يا قوم ، والله إن الذى تكرهون للذى خرجتـم تطلبون : الشهادة ! وما نقـاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثـرة ؛ ما نقاتلهم إلا بهـذا الدين الذى أكرمنا الله به ؛ فانطلقـوا ؛ فإنما هى إحدى الحُسنَيَيـيْن : إما ظهور ، وإما شـهادة» . فتابعـه الناس على رأيه قائلين : «قد ـ والله ـ صدق ابن رواحة» ! ومضوا للقتال [٤] .

وقد انحـاز المسلمون إلى قـرية مؤتة [٥] حيث التـقوا هناك بجـموع هرقل من

---

(1) Theophanes, Chronographia, p. 335 . See also, Stratos. Byzantium in the Seventh Century, pp . 313 - 314 .

(٢) تاريخ مدينة دمـشق لابن عسـاكـر ، جـ١ ، ص ٣٩٢ . وانظر أيضاً : البـداية والنهاية لابن كثـير ، جـ٤، ص ٢٤٧ .

(٣) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، جـ١ ، ص ٣٩٦ .

(٤) تاريخ الطبرى ، جـ٣ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ ؛ وسيرة ابن هشام ، جـ٣ ، ص ٤٣٠ .

(٥) تقع مؤتة بمنطقة الأردن جنوبى الكرك ، وما زالت تحمل نفس الاسم حتى اليوم .

الروم والمستعربة . ويبدو أن المسلمين اختاروا منطقة مؤتة مسرحا للقتال لوجود الحواجز الطبيعية التى يستطيعون التحصن بها إزاء التفوق العددى للعدو [(١)] . وقد التحم الجيشان ، «فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط فى رماح القوم» [(٢)] ، ثم أخذها جعفر بن أبى طالب فقاتل مستبسلا حتى خرّ شهيداً ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فكان مصيره مصير صاحبيه ، ثم اتفق رأى المسلمين على تسليم الراية لخالد بن الوليد ، وقد كانت مؤتة أول مشاهده فى الإسلام [(٣)] . ولم تكن المهمة أمامه سهلة ؛ فقد كان عليه أن ينقذ المسلمين من ذلك المأزق الصعب الذى وضعهم فيه تفوق عدوهم فى العدد والعتاد . وكان ذلك أول اختبار حقيقى له بعد إسلامه ، وقد أظهر فيه عبقريته العسكرية التى لم تَخْذُلْهُ يوما ؛ فقد عدَّلَ فى نظام جيشه بأن «جعل مقدمته ساقته وساقته مقدمته وميمنته ميسرته وميسرته ميمنته فأنكروا (أى الأعداء) ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيآتهم وقالوا : قد جاءهم مدد !» [(٤)] وكانت نيتجة ذلك أن تمكن المسلمون من الانسحاب إلى المدينة دون أن يجرؤ العدو على تعقبهم . ومن هنا أثنى الرسول على خالد بن الوليد حيث قال : «اللهم هو سيف من سيوفك فانتصر به» ، فمنذ ذلك اليوم سمى خالد «سيف الله» [(٥)] .

وتجدر الإشارة إلى أن عدد شهداء المسلمين فى مؤتة يتراوح فى مصادرنا بين ثمانية [(٦)] واثنى عشر [(٧)] .

---

(١) سيف الله خالد بن الوليد لمصطفى طلاس ، ص ٩٠ .

(٢) تاريخ الطبرى ، جـ٣ ، ٣٩ .

(٣) العبر للذهبى ، جـ١ ، ص ٩ .

(٤) المغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٧٦٤ .

(٥) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، جـ١ ، ص ٣٩٨ . ويروى : «اللهم إنه سيف من سيوفك فأنت تنصره» . تاريخ الطبرى ، جـ٣ ، ص ٤١ .

(٦) المغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٧٦٩ ؛ وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، جـ١ ، ص ٣٩٢ ؛ وتاريخ الإسلام للذهبى ، جـ١ ، ص ٤١٦ .

(٧) سيرة ابن هشام ، جـ٣ ، ص ٤٤٧ ؛ وجوامع السيرة لابن حزم ، ص ٢٢٢ .

مـؤتـة بـين النـصر والـهزيـمة :

إن السؤال الذى يطرح نفسه هنا ، والذى ناقشه كـثير من الباحثين المحدثين ، هو : هل كانت معركة مؤتة نصرا للمسلمين أو هزيمة ؟

والناظر فى مصادر السـيرة يلفت نظره وجود اتجاهات أساسـية ثلاثة حول هذه القضية :

الاتجـاه الأول : أن هذه المعركة كانت نصـرا للمسلمين رغم أن بدايتها لـم تكن فى صالحهم . يذكـر الواقدى فى إحدى رواياته أن خالدا لما عدَّل فى نظام جـيشه تصور الأعداء أن المسلمين قد جاءهم مدد «فرعبوا فـانكشفوا منهزمين فقُتلوا مقتلة لـم يُـقْتَلْها قوم» [(١)] . ويروى ابن سعد بـسنده عن أحد شهود العـيان أن خالدا لما أخذ اللواء «حـمل على القوم فـهزمـهم الله أسوأ هزيمة . . حتى وضع المـسلمون أسيافهم حيث شاءوا» [(٢)] . وهذا هو ما أثبته البخارى فى صحيحه حيث روى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ بعد أن تحدث عن استـشهاد الأمراء الثلاثة قال : «حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم» [(٣)] . ويتبنى ابن كثير هذا الاتجاه ويدافع عنه بقوة [(٤)] .

الاتجـاه الثانى : أن هذه المعـركة كـانت هزيمة للمـسلمين . يروى ابن هشـام والطبرى وغيرهما عن ابن إسحاق أن جيش مؤتة لما دنا من المدينة خرج رسول الله والمسلمون لاستـقباله ، « وجـعـل النـاس يَحْـثُون على الجيش التراب ويقولون : يا فُـرّار! فـررتم فى سـبيل الله ! » ولكن الرسـول ﷺ أراد أن يشـد من أزرهم ويرفع من مـعنـوياتـهم فـقال : « ليـسوا بالـفُـرَّار ، ولكنـهم الكُـرَّارُ إن شاء

---

(١) المغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٧٦٤ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ٢ ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

(٣) صحيح البخارى ، جـ٥ ، ص ١٨٢ (باب غزوة مؤتة من أرض الشام) .

(٤) البداية والنهـاية لابن كثيـر ، جـ٤ ، ص ٢٤٧ ـ ٢٥٠ . وانظر ايضاً : شذرات الذهب لابن العـماد الحنبلى جـ١ ، ص ١٢ : «وفتح الله فيها (أى فى مؤتة) على يد خالد بن الوليد» .

الله» (١) . وتروى بعض مصادرنا عن أبى هريرة ـ وكان ممن شهدوا مؤتة ـ أنه قال بعد عودته إلى المدينة : «كنا نخرج ونسمع ما نكره من الناس. لقد كان بينى وبين ابن عم لى كلام ، فقال: إلا فرارك يوم مؤتة! فما دريت أى شىء أقول له!» (٢).
ومما يروى أيضاً فى هذا السياق أن سلمة بن هشام بن المغيرة كان فى بعث مؤتة ، ولزم بيته بعد عودته ، «فدخلت امرأته على أم سلمة زوج النبى ﷺ فقالت أم سلمة : مالى لا أرى سلمة بن هشام ؟ أشتكى شيئاً ؟ قالت امرأته : لا والله ، ولكنه لا يستطيع الخروج ؛ إذا خرج صاحوا به وبأصحابه : يا فرار ، أفررتم فى سبيل الله ! حتى قعد فى البيت . فذكرت ذلك أم سلمة لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « بل هم الكُرَّار فى سبيل الله ، فليخرجْ ! فخرج » (٣) .

الاتجاه الثالث : أن هذه المعركة لم تكن بالنسبة للمسلمين نصرا ولا هزيمة ، بل «إن كل فئة انحازت عن الأخرى» كما يقول ابن القيم (٤) ، واستطاع خالد أن يحاشى بالناس (٥) . ويروى ابن عساكر «أن خالدا لما أخذ الراية قاتلهم قتالاً شديداً ، ثم انحاز الفريقان كلٌ عن كلٍّ قافلا عن غير هزيمة» (٦) . هذا؛ وقد أصاب المسلمون من العدو وأصاب العدو منهم ، وغنموا بعض أمتعة المشركين (٧) .

وقد وجدت هذه الاتجاهات الثلاثة صداها عند الباحثين المحدثين . فهناك من يرى أن معركة مؤتة كانت نصرا للمسلمين وذلك مثل «إرفنج Irving» الذى يذكر

---

(١) سيرة ابن هشام ، جـ٣ ، ص ٤٣٨ ؛ وتاريخ الطبرى ، جـ٣ ، ص ٤٢ ؛ والكامل لابن الأثير ، جـ٢ ، ص ٢٣٨ .
(٢) المغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٧٦٥ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) زاد المعاد ، جـ١ ، ص ١٥٦ .
(٥) المعارف لابن قتيبة ، ص ١٦٣ .
(٦) تاريخ مدينة دمشق ، جـ١ ، ص ٣٩٧ .
(٧) المغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٧٦٨ . والجدير بالملاحظة أن المصدر الواحد أحيانا قد يقدم روايات متعارضة عن نتيجة معركة مؤتة ، وذلك كما نجد فى الواقدى وابن عساكر ..

أن الروم وأحلافهم تقهقروا أمام هجمات خالد ثم لاذوا بالفرار . وقد تعقبهم المسلمون وأعملوا فيهم السيف وحازوا معسكرهم ورجعوا إلى المدينة بوافر الغنائم [١] . ورغم أن «مونتجومرى وات» يذكر أن المواجهة الإسلامية البيزنطية فى مؤتة كانت أقرب فى طبيعتها إلى المناوشات فإنه يرى أن هذه المناوشات انتهت فى الأرجح لصالح المسلمين ، وإلا لكانت خسائر المسلمين أكثر فداحة [٢] .

ثم إن هناك من الباحثين المحدثين من يرى أن معركة مؤتة كانت هزيمة للمسلمين [٣] . وهناك من يرى أنها لم تكن نصرا ولا هزيمة . يقول مصطفى طلاس بهذا الشأن : « يصف بعض المؤرخين معركة مؤتة بأنها نصر للمسلمين ، ويراها بعض آخر هزيمة ؛ وفى الحقيقة لم تكن نصرا ولا هزيمة بل كانت معركة اختبار قوة الطرفين» [٤] .

إننا ـ قبل أن نستطيع أن ندلى برأى فى هذا الشأن ـ يتعين علينا أن نجيب عن عدة تساؤلات تفرض نفسها هنا . وأول هذه التساؤلات يتصل بعدد شهداء المسلمين فى مؤتة . فمصادرنا ـ كما ذكرنا ـ تجعل هذا العدد يتراوح بين ثمانية واثنى عشر . إن من حقنا هنا أن نتساءل : كيف يمكننا أن نفسر قلة هذا العدد فى ضوء هزيمة المسلمين وتقهقرهم ؛ وهى هزيمة لا يمكن أن تحدث إلا بعد مواجهة دموية بين الطرفين ؟ إن الذى كان يتوقع فى مثل هذا الموقف أن يسقط من المسلمين مئات القتلى ، وذلك قبل أن يتولى خالد القيادة ويُعدِّل فى نظام جيشه ليوهم العدو بوصول مدد من المدينة . فتقرير الهزيمة ـ إذن ـ لابد أن يراجع فى ضوء هذا التساؤل . وثانى التساؤلات خاص برأى القائلين بأن المسلمين انتصروا

---

(1) Washington Irving, Mahomet and his Successors, vol. I, p . 241 .

(2) Watt , Muhammad at Medina, p . 55 .

(٣) انظر مثلا : فتح العرب لمصر ، لبتلر ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ؛ والدولة الإسلامية وامبراطورية الروم للدكتور إبراهيم أحمد العدوى ، ص ٤٥ ـ ٤٦ ؛ وتاريخ الدولة البيزنطية للدكتور جوزيف نسيم يوسف ، ص ١١١ .

(٤) سيف الله خالد بن الوليد لمصطفى طلاس ، ص ٩٢ ـ ٩٣ .

فى مؤتة . فإذا صح ذلك فلماذا اضطروا إلى الانسحاب بهذه الصورة المفاجئة دون أن يؤدبوا تلك القبائل العربيـة المتحالفة مع الروم ويفرضوا عليها سـيادتهم بإلزامها بدفع الجزية كـما سوف يحـدث فى غزوة تبـوك ؟ فتقـرير النصر ـ إذن ـ لابد أن يراجع فى ضوء هذا التساؤل . ويبقى تساؤل ثالث متصل بالتساؤلين السابقين وهو أن المسلمين إذا لـم يكونوا قد انتصروا أو انهزموا فكيف نفسر تقارير النصر وتقارير الهزيمة ؟

إن الذى نطمـئن إليه من خـلال تشابك الروايات واخـتلاطهـا أن المسلمين فى مؤتة إن لـم يكونوا قـد حققوا انتـصاراً ظاهراً على عدوهـم فإنهم كـانوا أقرب إلى النصر منهم إلى الهزيمة . ولكنا نميل فى نفس الوقت إلى الموافقـة على ما يقترحه «مونتجومرى وات» وهو أن المـواجهة الإسلامية البيزنطية فـى مؤتة كانت أقرب ما تكون إلى المناوشة . وقد استطاع المسلمون خلال ذلك ـ بفضل أسلوبهم البارع فى المناورة وقدرتهم على الكر والفـر ـ أن يصيبوا من عدوهم أكثـر مما أصاب عدوهم منهم ، كما تمكن قُطْبة بن قتادة العُذْرى قائد ميمنة المسلمين أن يقتل قائداً بارزاً من قواد العرب المتنصـرة وهو مالك بن رافلة [(١)] . ويروى البخارى فى صـحيحه عن خالد بن الوليد أنه قـال : «لقد دُقَّ فى يدى يوم مؤتة تسعة أسـياف وصَـبَرتْ فى يدى صفيحة لى يمانية» [(٢)] . يقول ابن كثير تعليقا على حديث خالد : «ماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها؟! دع غيره من الأبطال والشجعان» [(٣)] . فالواضح من فحص الروايات المخـتلفة أن المسلمين صمـدوا أمام جموع الروم والعـرب المتنصرة واستطاعوا بالمناورة والمداورة أن يتـجنبوا إحاطة العدو بهم وسَـحْقَه لهم وأن يُنْزلوا به فى الوقت نفســه أذى بالغاً . ولا يمكن فهم قلة عدد شهـداء المسلمين فى مؤتة إلا فى ضوء مـا ذكرنا الآن من أن المواجهـة الإسلاميـة البيزنطيـة هناك كانت إلى

---

(١) تاريخ الطبرى ، جـ٣ ، ص ٤١ .

(٢) صحـيح البخـارى ، جـ٥ ، ص ١٨٣ . وانظر أيضاً : أسـد الغابة لابن الأثير ، جـ٢ ، ص١١٠ (ترجمة خالد بن الوليد) .

(٣) البداية والنهاية ، جـ٤ ، ص ٢٥٩ .

طبيعة المناوشة أقرب منها إلى طبيعة الحرب الشاملة ، وأن المسلمين فى هذه المواجهة كانوا أصحاب الكفة الراجحة .

أما قرار المسلمين بالانسحاب فهو يرجع - فى أغلب الظن - إلى إدراكهم بأن تحقيق النصر الحاسم أمر متعذر فى ظل الظروف التى كانت تحيط بهم . لقد كانوا يحاربون فى أرض بعيدة ويواجهون عدوا أكثر منهم عددا وعدة ، وكانوا فى الوقت نفسه مهددين بنفاد ما معهم من مؤن . ومن هنا كان قرارهم بالانسحاب قراراً حكيماً أملته تلك الظروف كلها ، ولم يكن قراراً ناجما عن هزيمة بحال من الأحوال .

وبهذه الصورة يمكننا أن نفهم التقارير التى تتحدث عن نصر المسلمين فى مؤتة أو هزيمتهم وأن نضعها فى موضعها الصحيح . لقد أظهر المسلمون كثيراً من صور البطولة فى مؤتة وأحرزوا بعض النجاح ، ولكن هذا لا يدفعنا إلى القول بأنهم حققوا انتصاراً كاملاً ، وذلك فى ضوء الظروف التى ذكرناها . كما أنهم آثروا الانسحاب فى ظل نفس الظروف ، ومن ثم لا يمكن أن نأخذ انسحابهم على أنه هزيمة .

أخطر نتائج مؤتة : بروز الروم على ساحة الصراع المباشر ضد المسلمين :

وإذا كان هناك خلاف حول نتيجة معركة مؤتة من منظور النصر والهزيمة فإن النتيجة التى لا خلاف حولها - والتى تُعَدُّ أخطر نتائج مؤتة على الإطلاق - أن هذه المعركة لفتت أنظار المسلمين إلى أن هناك عدواً شرساً فى الشمال يتربص بهم الدوائر ويتحين الفرص للانقضاض عليهم وذلك هو الدولة البيزنطية . فالنتيجة المحققة لمعركة مؤتة هى بروز العدو البيزنطى على الساحة الإسلامية بكل جبروته وعنفوانه . لقد أراد المسلمون أن يواجهوا عرب الشام فى مؤتة فإذا بهم يواجهون عدوا أشدَّ خطرا وأحدَّ نابا وهو امبراطورية الروم . ومن هنا كان على المسلمين أن

يعيدوا حساباتهم ويراجعوا خططهم .

والواقع أن كل العداوات المستقبلة بين المسلمين والبيزنطيين يمكن رد جذورها إلى تلك المواجهة القاسية فى مؤتة ؛ فقد كانت مؤتة ـ كما يذكر العديد من المؤرخين ـ هى الشرارة الأولى فى ذلك الصراع الإسلامى البيزنطى الذى قُدِّر له أن يستمر أكثر من ثمانية قرون (1) .

فى أعقاب مؤتة :

أدرك المسلمون بعد سرية مؤتة أن الصدام بينهم وبين البيزنطيين قادم لا محالة وأن إعداد أنفسهم لاحتمالات ذلك الصدام أصبح من أهم الواجبات التى تمليها عليهم ضرورة تأمين دولتهم . وقد حدثت فى الفترة الواقعة بين مؤتة وتبوك سرية ينبغى أن يُنظر إليها فى هذا الإطار ، وهى المعروفة باسم :

سرية ذات السلاسل :

وقد رأينا أن سرية مؤتة برهنت على أن التجمع العربى القبلى المعادى للمسلمين بالشام كان خطيرا ؛ ولم يستطع المسلمون قص أجنحته هناك . وقد أراد الرسول ﷺ أن يتألف بعض القبائل العربية المهمة على حدود الشام وأن يكسب ولاءها عن طريق محاولة نشر الإسلام بينها ؛ ففى ذلك ـ أولاً ـ امتداد للإسلام ورفعة لشأنه ؛ وفيه ـ ثانياً ـ تأمين لجبهة خطيرة معادية مركزها الشام . ومن هنا جاءت سرية ذات السلاسل .

ففى الشهر التالى لسرية مؤتة ، أى فى جمادى الثانية سنة ٨هـ (أكتوبر ٦٢٩م)، أرسل النبى ﷺ حملة إلى مكان يعرف بذات السلاسل بمشارف الشام .

---

(1) J. Saunders, A History of Medieval Islam, p. 32 ; philip Hitti, History of the Arabs , p. 147, W. Irving, Mahomet and his Successors, vol . I, p. 338 f.
وانظر أيضاً : فتح العرب لمصر ، لبتلر ، ص ١٢٨ .

والسلاسل مـاء بأرض جذام (حِسْمَى) ، وبه عـرفت هذه السرية [١] . وقد أسند الرسول ﷺ قيـادة هذه الحملة إلى عمرو بن العاص الذى كـان قد أسلم قبل ذلك بقليل (صفـر من نفس العام) [٢] . وكانت الحملة فى البـداية تتكون من ثلاثمائة من «سراة المهاجرين والأنصار» [٣] . وبعد أن تقدم عمرو فى مسيره علم أن هناك تجمعـاً كبيراً فى المنطقـة التى كان يقصد لها ، فـاستمد الرسـول فأمده بمائتين من أعيان المهاجرين والأنصار بإمارة أبى عبيدة بن الجراح ـ وكان فيهم أبو بكر وعمر ـ فلما لحق أبو عبيدة بعمرو صار الأول تحت إمرة الأخير [٤] .

وتجدر الإشـارة هنا إلى أن مصـادرنا تختلف فى تناولهـا لأسبـاب سرية ذات السلاسل . فيـروى الواقدى أن سبب هذه السرية هو مـا علمه رسول الله ﷺ من أن «جمـعا من بَلِىٍّ وقضـاعة قد تجـمعوا يريـدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ» [٥] ، أى يريدون الهجوم على الدولة الإسلامـية . وهناك رواية أخرى تذكر أن الرسـول أرسل عـمـرو بن العـاص «إلى أرض بلى وعـذرة يدعـو الناس إلى الإسلام، فسار حـتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له السـلاسل خاف فأمده رسول الله ﷺ بأبى عـبيدة فى المهـاجرين الأولين » [٦] . فهذه الرواية الـثانية لا تجعل السبب فى سـرية ذات السلاسل ما أشيع من عزم بعض القبـائل العربية على الهجوم على أطراف المدينة بل تربط بين سبب هذه السـرية وبين دعوة بعض قبائل الشام إلى الإسلام .

إن الرواية الثانية ـ فى تصورنا ـ أكثـر اتساقا مع ظروف هذه السرية من الرواية

---

(١) معجم البلدان ليـاقوت ، جـ٢ ، ص ٢٣٣ ، ٢٥٨ ؛ وعيون التواريخ لابن شـاكر الكتبى ، جـ١ ، ص ٢٨٥ .

(٢) أنساب الأشـراف للبلاذرى ، جـ١ ، ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ . ويروى أنه أسلم عـام خيبر (٧هـ) . انظر حول ذلك : أسد الغابة لابن الأثير ، جـ٤ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٣) المغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٧٧٠ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٧٧٠ ـ ٧٧١ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٧٧٠ .

(٦) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبى ، جـ١ ، ص ٢٨٥ .

الأولى . وفى ضوء مناقشتنا لأسباب هذه السرية نستطيع أن نحدد أهدافها . إننا لا نعتقد أن سرية عمرو بن العاص هذه كانت تهدف إلى القتال أساساً ، وإن كان احتمال القتال واردا دفاعا عن النفس . ولو كان الهدف من هذه السرية القتال ـ كما كان الهدف فى مؤتة ـ لجهز الرسول مع عمرو جيشاً إن لم يتفوق عدداً على جيش المسلمين فى مؤتة فلا يمكن أن يقل عنه ، خصوصا بعدما فوجئ به المسلمون فى مؤتة من أعداد هائلة وبعد اضطرارهم إلى الانسحاب نتيجة عدم توازن القوى. فلا يبقى هنالك من هدف واضح لهذه السرية إلا محاولة كسب ولاء أهم القبائل العربية بالشام عن طريق دعوتها إلى الإسلام ، فإن لم يتسَنَّ ذلك فلا أقل من تحييدها فى الصراع الدائر بين المسلمين والبيزنطيين . ولعل التقرير التالى عن ابن إسحاق يلقى مزيداً من الضوء على هذه النقطة :

« بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ليستنفر العرب إلى الإسلام ؛ وذلك أن أم العاص بن وائل كانت امرأة من بلى ، فبعثه رسول الله ﷺ إليهم يستألفهم بذلك ، حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل ـ وبذلك سميت تلك الغزوة ذات السلاسل ـ فلما كان عليه خاف فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر » (١) .

يلفت نظرنا فى هذا التقرير أمران : أولهما أن هدف هذا البعث كان استنفار العرب إلى الإسلام ؛ وثانيهما أن اختيار عمرو بن العاص قائدا لهذا البعث كان محققا تماماً لهذا الهدف ؛ فعمرو بن العاص ـ رغم حداثته فى الإسلام ورغم وجود من هو أرسخ منه قدما فيه من أعضاء بَعْثه ـ تولى القيادة ليتألف به رسول الله ﷺ قلوب «بليّ» ومن عاضدها ؛ ذلك أن عمرو بن العاص كان ذا رحم فيهم؛ فإن أم العاص بن وائل ـ وهى جدة عمرو ـ كانت من «بليّ» (٢) .

---

(١) انظر هذه الرواية عن ابن إسحاق فى تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، جـ١ ، ص ٤٠٤ ، وقارن بما فى سيرة ابن هشام ، جـ٤ ، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ، جـ٤ ، ص ٢٤٥ .

وقد ذكرنا أن عمرا بعد أن تقدم وعلم بتجمعات لم يكن يتوقعها أخبر رسول الله ﷺ فأمده بمائتين . فهذا المدد كان نوعا من التأمين ، لأن السرية ـ كما قررنا ـ لم تكن أصلا بهدف القتال . وقد أوصى رسول الله أبا عبيدة حين أرسله مددا لعمرو ألا يختلف معه [١] . فالرسول بحصافته وفطنته السياسية أدرك أن بعض قدامى المهاجرين والأنصار قد لا يرضون بإمارة عمرو مع وجود رجل كأبى عبيدة أو أبى بكر أو سواهما ممن هم أعرق منه ماضيا فى الإسلام . ولكن تعيين أبى عبيدة أو أبى بكر مثلا قد يلغى الهدف الأساسى من هذا البعث وهو استنفار هؤلاء العرب إلى الإسلام ـ وهو الهدف الذى يمكن تحقيقه بتعيين عمرو صاحب الرحم ببلى. وقد عمل أبو عبيدة بتوجيه الرسول ﷺ ،وسلَّم لعمرو بالإمارة [٢].

وقد نجحت حملة عمرو نجاحا هائلاً ؛ فقد انضم إليه بعض تلك القبائل العربية . وكان الرسول ﷺ قد «أمره أن يستعين بمن مر به من العرب وهى بلاد بلىٍّ وعُذْرة وبَلقْين» [٣] .

وإذا ثبت لنا أن سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل كانت بهدف تأليف قلوب عرب الشام وكسب ولائهم ونشر الإسلام بينهم إن أمكن فإن لنا أن نراجع ما تذكره بعض مصادرنا من أن عمرا «وطئ بلاد بلىّ ودوَّخها» [٤] . ولعل المقصود بذلك أنه لم يجد هناك مقاومة تذكر أثناء أدائه لمهمته . وربما تكون قد حدثت بعض المناوشات الخفيفة من بعض العناصر التى لم تكن ترحب ببعث يهدف إلى كسب ولاء عرب الشام . ومما يلقى مزيدا من الضوء على ذلك ما

---

(١) هناك رواية تقول إن الرسول ﷺ بعث بعثين إلى كلب وغسان وكفار العرب بالشام وأمَّر على أحد البعثين أبا عبيدة وعلى الآخر عمرو بن العاص . انظر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ١ ، ص ٤٠٥ . ولكن الذى تردده معظم مصادرنا أن ذلك كان بعثاً واحداً بقيادة عمرو بن العاص وأن بعث أبى عبيدة كان مدداً لعمرو ؛ وهو ما يبدو متسقا مع سياق الأحداث .

(٢) المغازى للواقدى ، جـ٢ ، ص ٧٧١ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٧٧٠ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٧٧١ . وانظر أيضاً الطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ٢ ، ص ١٣١ .

يرويه الواقدى من أن عمرو بن العاص «كلما انـتهى إلى موضع بلغه أنه كان بهذا الموضع جمع فلما سمعوا به تفـرقوا حتى انتهى إلى أقصى بلاد عذرة وبلقين ولقى فى آخر ذلك جمعا ليس بالكثير فـقاتلوا ساعة وتراموا بالنَّبْل . . وحمل المسلمون عليهم فهربوا وأعجزوا هربا فى البـلاد وتفرقوا ، ودوّخ عمرو ما هناك» [١] . إن ذلك كله يدل على أنه لم يكن هناك قتال حقيقى وأن سرية عمرو كانت ناجحة فى كسب ولاء الكثيـرين من عرب الشام . أما هذه المناوشات القليلة فـقد كانت أمرا ثانوياً لا يمكن أن يؤثـر على مـستـوى النجـاح العـام لسـرية عـمـرو من منظور الدبلوماسية . إننا ـ فى ضوء ذلك ـ لابد أن نتردد فى قبول ما يرويه البلاذرى من أن عمرا «لقـى العدو من قضاعـة وعاملة ولخم وجذام وكانوا مـجتمعين فـفضهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وغنم» [٢] . فكيف يلقى عمرو ، وهو فى خمسمائة من أصحابه ، جموع العدو من قضاعة وعاملة ولخم وجذام فيفرقهم ويقتل منهم مقتلة عظيمة ويغنـم ؟ إن كل الملابسات التى أحاطت بسرية عـمرو بن العاص إلى ذات السلاسل تجعلنا نعتقد أنه لم يكن هناك قتال حقيقى وبالتالى لم تكن هناك غنيمة . وعلى أساس نفس المنطق الذى جعلنا نتردد فى قبول رواية البلاذرى يمكننا أن نتردد أيضاً فى قبـول رواية المسعودى وفحواها أن عـمرو بن العاص لقيتـه جموع الروم ومتنصرة العرب [٣] . فكيف نستطيع أن نصدق أن جمـوع الروم ومتنصرة العرب لقيت عمراً وهو فى هذا العدد القليل دون أن تُنْزِل بأصحابه أفدح الخسائر ؟

* * * *

---

(١) المغازى ، جـ٢ ، ص ٧٧١ .
(٢) أنساب الأشراف ، جـ١ ، ص ٣٨١ .
(٣) التنبيه والإشراف ، ص ٢٣١ .

نأتى إلى خلاصة هذا الفـصل وهى أن العام الثامن للهجرة شـهد ثلاث سرايا فى بلاد الشام كـان أخطرها بكل تأكيـد سرية مؤتة ، وهى التى فـتحت صفـحة الصراع الإسلامى ضد الـروم كما ذكرنا . أما السريتان الأخـريان فكانت إحداهما بعثاً خالصاً للدعوة وهى سريـة ذات أطلاح ؛ وكانت الأخرى بعثاً هدفه الأساسى محاولة اكتـساب ولاء القبائل العربية فى الشام أو تحـييدها على الأقل فى الصراع الذى بدأ منذ قليل بين المسلمين والبيزنطيين وهى سرية ذات السلاسل .

وقـد سبق أن ذكـرنا أن تجـربة المسلمين فى مـؤتة وما عـاينوه من عـدد الروم وعدتهم جعلتهم يحـسبون لهم حسابا ويعتقدون أن الصـدام بهم قادم لا محالة ؛ ومن هذه الزاوية يمكن النظر إلى غزوة تبوك ، وهى موضوع الفصل التالى .

* * * *

الفصل الخامس

غـــزوة تبـــوك بين الـفــعــل ورد الفـعـــل ٩هـ (٦٣٠م)

خلفـيات الـغـزوة ومـلابسـاتـهـا :

يذكر الواقـدى فى تناوله لسبب غزوة تبوك أن المسلمين علـموا « أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ، وأجلبت معه لخم وجذام وغسَّان وعـاملة وزحفوا وقدَّموا مقـدماتهم إلى البلقاء » (١) . وكـان هذا الخبر مصدره الأنباط الذين كـانوا يُعرفون باسم الضافطة ، وكانوا يأتون من الشام إلى المدينة بالسلع الضـرورية مثل الدقيق والزيت ؛ «فـإنما كانت أخبـار الشام عند المسلمين كل يوم لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط» (٢) .

ويذكر البـلاذرى فى تناوله لسبب هذه الغزوة «أن هرقل ومن اجتـمع إليه من لخم وجذام وعـاملة وغيرهم أظهروا أنهم يريدون غـزو رسول الله ﷺ» (٣) ؛ أى يريدون الهجوم على المدينة .

فـالواضح إذن أن المسلمين أحـسـوا أنهم أمام تـهديدٍ خطيـر من البـيـزنطيين وأحلافهم من عرب الشام ، وأن المدينة ذاتها كانت واقعة تحت طائلة هذا التهديد؛ ومن هنا قرر الرسول ﷺ أن يفوِّت الـفرصة على العدو فأعدَّ جيـشاً قوامه ثلاثون ألف مقاتل وتقدم به إلى الشام ، «وذلك فى زمن عُسْرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار وأُحِبَّتْ ، فالناس يحبون المقام فى ثمارهم

---

(١) المغازى ، جـ٣ ، ص ٩٩٠ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) أنساب الأشراف ، جـ١ ، ص ٣٦٨ .

وظلالهم ويكرهون الشخـوص عنها على الحال من الزمـان الذى هم عليه» [١] .
وكان خروج الرسول ﷺ إلى الشام فى رجب سنة ٩هـ (أكتوبر ٦٣٠م) [٢] .

هذا هو التفسيـر الذى نطمئن إليه فى مناقشة سبب هذه الغـزوة . أما ما يقال من أن التجربة القاسية التى تعرض لـها المسلمون فى مؤتة كانت وراء قرار الرسول بالخروج إلى غزوة تبوك فهذا رأى لا يبدو متسقا مع منطق الأحداث . ويتردد هذا الرأى فى بعض مصادرنا [٣] ، ويأخذ به بعض المؤرخين المحدثين [٤] ، ولكنه رأى ظاهر البطلان كما سيتضح لنا عند مناقشتنا لأهداف غزوة تبوك .

والجـدير بالملاحظة فى هذا السيـاق أن الروم كـانت لهم مـهابة خـاصـة بين المسلمين؛ فـقد خـرجوا منتـصرين على الفـرس وأزاحوهم من الشـام ومن آسـيا الصـغرى ، بل وهددوا عـاصمـتهم المدائن ؛ كـمـا كانت تجـربة مؤتة مـاثلة فى الأذهان. وفى نفس الوقت كـان كثـير من المـسلمين على إدراك كامل لقـوة الروم وشوكتـهم وذلك من خلال ما رأوه منهم أثناء رحلاتهم التـجارية إلى إقليم الشام فى الجاهلية . يقول الواقدى : « ولم يكن عدو أخوف عند المسلمين منهم [أى من الروم] وذلك لما عـاينوا منهم ـ إذ كانوا يقـدمون عليـهم تجارا ـ من العـدد والعدة والكراع » [٥] .

ويذكر الواقدى أن مـا بلغ المسلمين عن استعدادات الروم للهجـوم عليهم كان خبـرا لا أساس له من الصحـة . ولكن الـذى نرجحه ـ فى ضـوء مـا سنراه بعد

---

(١) تاريخ الطبرى ، جـ٣ ، ص ١٠١ . وانـظر أيضاً : صحـيح البخارى (باب غـزوة تبوك) ، جـ٦ ، ص٤ (مع اختلاف فى العبارة) .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى ، جـ١ ، ص ٣٦٨ ؛ والمعارف لابن قتيبة ، ص ١٦٥ .

(٣) تاريخ اليعـقوبى ، جـ٢ ، ص ٦٧ . ونص كلامـه : «سار رسول الله فى جـمع كثيـر إلى تبوك من أرض الشام يطلب بدم جعفر بن أبى طالب» .

(4) C. Brockelmann, History of the Islamic Peoples, p. 34 ; J . Saunders, A History of Medieval Islam, p . 33 ; J. Glubb , The Great Arab Conquests, p. 99 .

(٥) المغازى ، جـ٣ ، ص ٩٩٠ .

قليل - [١] أن هذه الإشاعة قد اعتمدت على أساس صحيح وأن الروم وحلفاءهم قد فكروا فعلاً فى غزو المدينة واتخذوا بعض الاستعدادات فى هذا السبيل ثم تراجعوا مؤقتا حتى يأخذوا لذلك الغزو مزيداً من الأهبة .

مناقشة أهداف الغزوة :

فى ضوء ما ذكرنا عن خلفيات غزوة تبوك وملابساتها نستطيع أن نحدد الهدف الواضح لهذه الغزوة وهو إجهاض مخطط الروم وأتباعهم فى الهجوم على قاعدة الدولة الإسلامية . ويتضح هذا الهدف تماماً إذا أخذنا فى الاعتبار ما أحاط بهذه الغزوة من ظروف صعبة جعلت الكثيرين لا يسارعون إلى الاشتراك فيها ويرغبون فى البقاء فى المدينة . فلولا ضرورة التصدى للهجوم الوشيك على الدولة الإسلامية لما حمَّل الرسول ﷺ أتباعه عنتا ولا ختار من الأوقات ما لا يشق عليهم .

هذا هو الهدف الذى نحس أنه يتسق تماما مع الملابسات التى أحاطت بهذه الغزوة . ولكن اليعقوبى يروى ما يفيد أن الرسول كان يهدف من وراء خروجه إلى تبوك إلى الانتقام لمقتل القادة المسلمين فى مؤتة [٢] . ونجد هذا الرأى يتردد لدى بعض المؤرخين المحدثين [٣] . وهناك أيضاً من هؤلاء من يذكر أن هدف الرسول من هذه الغزوة كان هو شغل أهل المدينة بحرب تقضى على حالة السخط التى أصابتهم نتيجة تقسيمه لغنائم حنين [٤] ؛ أو أن هدفه كان إخضاع عرب الشام الذين كانوا يتمتعون بتأييد الروم [٥] .

إن الرد على هذا كله يكمن فى حقيقة تاريخية سبقت الإشارة إليها وهى أن

---

(١) انظر ص ١١٣ - ١١٤ من هذا الفصل .

(٢) انظر هامش [٣] من صفحة ١١٠ .

(٣) انظر هامش [٤] من صفحة ١١٠ .

(4) Brockelmann, History of the Islamic Peoples, p. 34 .

(5) Idem . See also, Von Grunebaum, Classical Islam, p. 45 .

الرسول ﷺ قام بالإعداد لـهذه الغزوة فى زمان عسرة ؛ ولهذا سـمى جيش ت
«جيش العسرة» (١) . وقد كان خروج المسلمين لهذه الغزوة أمرا لا مندوحة عن
وضرورةً اقتضاها تهديد الروم لأمن الدولة الإسلامية ؛ وهذا مـا يعنيه قول بع
المؤرخين : « فتجهزوا على كره » (٢) . ولو كان الهدف من غـزوة تبوك هو ا
لشهداء مؤتة أو إخضاع عرب الشام أو الحصول على الغنائم لما اختار الرسول أ
الأوقات على المسلمين وأبعـدها عن ملاءمة ظروفهم . فـلا يبقى هناك من ه
واضح لغزوة تبوك إلا مـا ذكرنا من صد هجوم متوقع لو لـم يجـد من يتصدى
لهدد الدولة الإسلامية فى صميم وجودها .

تـرتيـبات الغـزوة وتطـوراتـها :

أعد الرسـول ﷺ لغزوة تبوك ما لم يعـده قبلها لأية غزوة ، سـواء من ح
العدد أم العـتاد . وقد كان من عـادة الرسول إذا توجه للغـزو ألاّ يصرح بحقي
وجهته من أجـل التمويه على العدو ، لكنه لم يفعل ذلك فى غـزوة تبوك ؛
أخبـر الناس بالوجـه الذى يريد نظرا لخطورة هذه الغزوة وحـتى يأخذ الناس ا
الأهبة اللازمة (٣) .

لقد اسـتنفر الرسول قـبائل العرب فى كل بقـعة ظهر فـيها الإسلام فى ش
الجزيرة العربية وحضَّ المسلمين على الصدقات ؛ فيروى أن أبا بكر الصديق تص
بكل ماله وأن عثمان بن عفان جهّز ثلث الجيش فى تلك الغزوة (٤) .

ولـم تكن مهـمة الإعداد لهـذه الغزوة سـهلة أمام الرسول ﷺ ؛ فـقد است

---

(١) انساب الأشراف للبـلاذرى ، جـ١ ، ص ٣٦٨ ؛ والتنبيه والإشراف للمسعـودى ، ص ٢٣٥ .
تسمى الغزوة أيضاً : «غزوة العسرة» . صحيح البخارى جـ٦ ، ص ٢ .

(٢) عيون التواريخ لابن شاكر الكتـبى ، جـ١ ، ص٣٤٥ . وراجـع أيضـاً : تاريخ الطبرى ، جـ
ص ١٠١ .

(٣) المغازى للواقـدى ، جـ٣ ، ص ٩٩٠ . وانظر أيضاً : صـحيح البخـارى ، جـ٦ ، ص٤ : «ف
للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم» .

(٤) المغازى للواقدى ، جـ٣ ، ص ٩٩١ .

الخوف ببعض من عرض عليهم الاشتراك فى الغزوة مما جعلهم يتثاقلون ولا يخفُّون لداعى الجهاد . بل إن الخوف من الروم وصل ببعض المنافقين درجة جعلتهم يخشونهم وهم فى منازلهم . ومما يرى فى هذا السياق أن الجد بن قيس ـ وكان منافقاً ـ لم يستجب لدعوة الرسول له للمشاركة فى تبوك ، فجاءه ابنه عبد الله ـ وكان صحيح الإيمان بدرياً ـ يؤنبه على القعود مع كثرة ماله ، فقال له الجد : «يا بنى ، مالى وللخروج فى الريح والحر والعسرة إلى بنى الأصفر ؟ والله ما آمن خوفا من بنى الأصفر وإنى فى منزلى . . فاذهب إليهم فاغزوهم ! إنى والله يا بنى عالم بالدوائر !» [1] . وقد انسحب عبد الله بن أبىّ بن سلول رأس المنافقين بكل عسكره بعد أن سار مع الرسول حتى وصل ثنية الوداع [2] ، وقال مبرراً تخلفه : «يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى مالا قبل له به ! يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر اللعب !! والله لكأنى أنظر إلى أصحابه غدا مُقَرَّنين فى الحبال!» [3] .

بعد أن تحرك الرسول فى اتجاه الروم «كان أقصى أثره تبوك» [4] ، وهى مدينة صغيرة فى شمال الحجاز على حدود الشام ، فى منتصف الطريق تقريباً بين المدين[ة] ودمشق . ولم يجد الرسول فى طريقه أحدا من هؤلاء الذين قيل إنهم تجمع[وا] يريدون غزو المدينة . ويفسِّر البلاذرى ذلك بأن الرسول ﷺ «لما سار إليهم ها[بوا] محاربته فلم يلق كيداً» [5] . وكلام البلاذرى يشير إلى أن ما سمعه المسلمون [من] تجمع الروم لغزو المدينة كان صحيحاً ، ولكن الواقدى ـ كما أسلفنا ـ يذكر أنه [لم] يكن شىء مما زعمه هؤلاء الأنباط الذين أذاعوا هذا الخبر ، «إنما ذلك شىء [قيل] لهم فقالوه» [6] . ونحن نميل إلى تصديق رواية البلاذرى ؛ فالذى يبدو أن الر[وم]

---

(١) نفس المصدر ، ص ٩٩٢ ـ ٩٩٣ .

(٢) يقول اليعقوبى فى تاريخه ، جـ٢ ، ص ٦٨ : «خرج النساء والصبيان يودعونه ﷺ عند الثنية ، فسماها ثنية الوداع» .

(٣) المغازى للواقدى ، جـ٣ ، ص ٩٩٥ ، ٩٩٦ .

(٤) المعارف لابن قتيبة ، ص ١٦٥ .

(٥) أنساب الأشراف ، جـ١ ، ص ٣٦٨ .

(٦) المغازى للواقدى ، جـ٣ ، ص ٩٩٠ .

وأحلافـهم همّوا على الأقل بغزو المدينة وخططـوا لذلك ، وأن أنباء هذا المخطط تسربت إلى المسلمين عن طريق هؤلاء التجار . والذى يدفعنا إلى تصديق ذلك أن سرية مؤتة كانت مفاجأة أذهلت الروم وأتباعهم من عرب الشام ؛ فهذه كانت أول مرة يخرج المسلمون فيها فى جيش بهذه الضخامة ، وقد واتتهم الجرأة على المضى لغزو الشام حيـث سلطان بيزنطة . وقد ذكرنا أن نتيجـة مؤتة لم تكن نكسة على المسلمين على عكس ما تذكر بعض المصادر ؛ فقد أبلى المسلمون فيها أحسن البلاء ونالوا من عدوهم رغم اضطرارهم إلى الانسحاب . وكل هذا ـ فى غالب الظن ـ أغرى هرقل أن يحرِّض أتباعه على الانضمام إليه لتوجيه ضربة قاصمة لتلك القوة الجديدة فى الحجاز . فلما علم الروم بضخامة الاستعدادات الإسلامية ـ وقد جلىّ الرسول ﷺ وجهتـه ـ تراجعوا هذه المرة حتى تحين الفرصة للقـاء يأمنون عواقبه . فإذا كان ثلاثة آلاف فى مؤتة قد استطاعوا أن يضـربوا العدو ضربة موجعة فأحرى بثلاثين ألفا أن يكونوا أكثر خطراً وأبعد تأثيراً .

وقد أقام الرسول ﷺ بتبوك عـشرين ليلة دون أن يلقى كيداً أو يواجه عدواً ؛ ومن هنا لم يجـد حاجـة إلى التقـدم نحوالشمـال ، فإن الغـرض الأصلى الذى خرجت من أجله هذه الغزوة ـ وهو التصـدى لهجوم الروم الوشيك على المدينة أو محاولة إجهاضه قبل وقوعه ـ قد تحقق دون قتال . ويروى الواقدى ما يوضح ذلك حين يذكر أن الرسـول ﷺ ـ بعد وصوله إلى تبوك ـ استـشار أصحابه فـى التقدم نحو الشـام لمواجهة الروم فـقال له عمـر بن الخطاب : «يا رسول الله ، إن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنوت منهم حيث ترى ، وقد أفزعهم دُنُـوُّكَ ، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يُحْدِث الله عز وجل فى ذلك أمرا» (١) .

وفى ضوء ذلك نجـدنا مضطرين لرفض الـزعم القائل بأن الرسول كـانت لديه

(١) نفس المصدر ، ص ١٠١٩ . وهذا يعنى أن غزوة تبـوك كان لها أثرها فى إظهار القوة الإسـلامية فى تلك الجهات . انظر : الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم للدكتور إبراهيم العدوى ، ص ٤٦ .

خطة للتوغل فى بلاد الروم حين خـرج إلى تبوك ولكن حالت عوامل مـعينة دون تنفيذها . يذكر «بروكلمان» فى هذا الصدد أن الرسول توقف فى تبوك نتيجة وهن الشيخوخة أو لأنه اقتنع بأن خططه غير عملية (١) ! ويدور فى هذا الإطار ما يراه «بتلر» من أن الرسول لم يتـقدم شمالاً من تبـوك لاحتمال أن يكون قـد جاءه من الأخبار ما جعله يحجم عن ذلك أو لعله عاد لقلة الزاد والماء معه (٢) . ولكننا نرد على هذه الآراء بقولنا إنه لو صحَّ أن الرسول ﷺ كان يعـانى من وهن الشيخوخة لاستطاع أن يسند أمـر هذه الحملة لمن يستـطيع أن ينهض بذلك من أصحابه كـما فعل فى حملات أخرى . أما اقتناع الرسول بأن خططه غير عملية فلا سند له من المنطق أو التـاريخ ؛ فلابد أن نثبت أولاً أن الـرسول كانت لديه خطـة لغزو الروم حين توجه إلى تبوك حـتى نستطيع الزعم بعد ذلك بأنه لم يتمـكن من تنفيذ هذه الخطة . والواقع ـ كما ذكرنا منذ قليل ـ أن الطريقـة التى تم بها إعداد هذه الحملة والظروف التى أُعِدَّتْ فيهـا تؤكد أنها كانت حملة أمْلتها الضرورة وقُـصد بها صدّ هجوم متوقع . أمـا ما يطرحه «بتلر» من احتمال أن الرسول قـد جاءه من الأخبار ما جعله لا يتقدم نحو الشمال أو أنه لم يكن لديه من الزاد والماء ما يكفيه فهذا أمر مسـتبعد تمامـاً . فليس فى مصادرنا أدنى إشـارة إلى وصول أخبـار للرسول ﷺ جعلتـه يتوقف فى سيـره . أما المؤن فإن مـعاهداته مع أهل دومة الجندل وغـيرها خلال تلك الغزوة ـ كما سنذكر بعد قليل ـ كفت المسلمين حاجتهم منها .

يبقى التسـاؤل : لماذا استشار الرسول أصـحابه فى التقدم نحـو الشمال إذا لم تكن لديه خطة لذلك ؟ والإجابة واضحة ؛ فقـد خرج المسلمون لهذ الغزوة عندما سمعوا أن الروم تجمعوا وهَمُّوا بغـزو المدينة . وقد انتهى بالمسلمين المسير إلى تبوك على حدود الشام دون أن يقابلوا عـدوهم . ولكن لم يكن هناك ما يمنع أن العدو كان ما زال يستعد للزحف من الشام إلى الحجاز ؛ ولذلك استشار الرسول أصحابه

(1) Brockelmann, History of the Islamic Peoples, p. 34 .

(٢) فتح العرب لمصر ، ص ١٢٩ .

فى التقدم شمالا على احتمال أن يواجهوا العدو هناك . وقد أخذ الرسول برأى عمر فى العودة إلى الحجاز لأن التقدم إلى الشام كان يحمل فى طياته خطورة على المسلمين بسبب كثرة جموع الروم ، ولم تكن هناك خطورة فى عدم التقدم حيث لم تظهر بوادر تشير إلى زحف الروم نحو الحجاز .

ومع ذلك فقد رأى الرسول ﷺ أن هذه الغزوة يمكن أن تحقق نتيجة مهمة وهى كسب ولاء القبائل والتجمعات الدائرة فى فلك الروم والقاطنة على طريق الشام ، وإن لم يتَسَنَّ ذلك فيكفى تحييدها فى ذلك الصراع الدائر بين المسلمين والروم . وفى هذا الإطار عقد الرسول - أثناء إقامته فى تبوك - معاهدات مع أهل دُومة الجَنْدَل وأَيْلة ومَقْنَا وأَذْرُح والجَرْباء ، وهى المعاهدات التى مثلت أكبر إنجاز للمسلمين فى تاريخ الصراع بينهم وبين الروم فى حياة الرسول ﷺ (انظر الخريطة رقم٢ ص١٤٠) .

أما دومة الجندل فقد كان لها تاريخها قبل ذلك فى إيذاء المسلمين واستفزازهم . وقد سبق أن ذكرنا أنها كانت موطنا لقبيلة «كلب» القحطانية التى طالما أظهرت العداء للإسلام مما اضطر الرسول أن يتوجه إليهم بنفسه غازيا فى سنة ٥هـ (٦٢٦م) ، وهى تلك الغزوة التى يعتبرها بعض المؤرخين أولى الغزوات «ضد الروم» (١) . وهذا التعبير يتضمن إشارة إلى تحالف كلب مع الروم . ثم أرسل الرسول ﷺ إليهم فى العام التالى (٦هـ / ٦٢٧م) عبد الرحمن بن عوف على رأس سبعمائة ، فأسلم على يديه الأصبغ بن عمرو زعيم قبيلة كلب هناك ، وتبعه أناس من قومه ، وأقر الباقون بدفع الجزية .

ولكن الذى نستنتجه أن دومة الجندل لم تخضع تماما للمسلمين على يد عبد الرحمن بن عوف ولم يتوقف تهديدها لأمن الدولة الإسلامية . ومن هنا رأى الرسول - أثناء إقامته بتبوك - ضرورة أن يرسل إليها قوة من أربعمائة وعشرين

---

(١) التنبيه والإشراف للمسعودى ، ص ٢١٥ .

فارسا بقيادة خالد بن الوليد للقضاء على ما تبقى فيها من جيوب التهديد للمسلمين . وقد نجح خالد فى الاستيلاء على دومة وتمكن من أسْرِ ملكها أكيدر ابن عبد الملك الكندى والقدوم به على رسول الله ﷺ فحقن له رسول الله دمه وصالحه على الجزية وكتب له ولأهل دومة كتابا «فيه أمانهم وما صالحهم» (١) .

وقد اتصل أيضاً أهل أيلة ومقنا وأذرح والجرباء بالنبى ﷺ يسألونه الصلح ؛ «فقد أشفقوا أن يبعث إليهم رسول الله ﷺ كما بعث إلى أكيدر» (٢) ، وأيقنوا أنه لا جدوى من الاستمرار فى عنادهم للدولة الإسلامية . وقد أجابهم الرسول إلى مطلبهم .

وتقع أيلة (التى تعرف الآن باسم العقبة) (٣) على رأس خليج العقبة ، وكان معظم سكانها مسيحيين . وكان حاكمها فى ذلك الوقت هو «يوحنا بن رؤبة» . وقد قدم يوحنا على النبى ﷺ يسأله الصلح فصالحه على أن يدفع عن نفسه وعن أهل أيلة جزية سنوية مقدارها ثلاثمائة دينار ، وأمَّنهم فى مقابل ذلك على أنفسهم وأموالهم (٤) .

---

(١) المغازى للواقدى ، جـ٣ ، ص ١٠٢٧ ـ ١٠٢٨ . وتجدر الإشارة إلى ما يشوب تقرير الواقدى بهذا الصدد من التضارب ؛ فهو يذكر أن خالد بن الوليد صالح أكيدر «على ألفى بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح» وأنه لما قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ صالحه على الجزية . ولكنه يذكر بعد قليل أن الرسول ﷺ كتب لأكيدر كتابا كان مما جاء فيه : «هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام» . ثم يذكر بعد ذلك فى نفس الكتاب ما اشترطه الرسول ﷺ على أهل دومة حيث قال : « تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة لحقها .. إلخ» . نفس المصدر ، ص ١٠٣٠ . والمعلوم أن الجزية تسقط بالإسلام . فلو أن أكيدر وأهل دومة أسلموا حقيقة لما طالبهم رسول الله بالجزية . ومن هنا نجد من المؤرخين القدامى أنفسهم من لا يقبلون الرواية القائلة بإسلام أكيدر . يقول ابن الأثير : « من قال إنه أسلم فقد أخطأ خطأ ظاهراً . وكان أكيدر نصرانياً . ولما صالحه النبى ﷺ عاد إلى حصنه وبقى فيه ، ثم إن خالدا أسره لما حصر دومة أيام أبى بكر رضى الله عنه ، فقتله مشركا نصرانيا» . أسد الغابة . جـ١ ، ص ١٣٥ . وانظر أيضاً: الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ، جـ١ ، ص١٣١ ؛ وزاد المعاد لابن القيم ، جـ٣ ، ص٦ .

(٢) المغازى للواقدى ، جـ٣ ، ص ١٠٣١ . وحول صلح رسول الله ﷺ مع أهل هذه المدن ارجع أيضاً إلى فتوح البلدان للبلاذرى ، ص ٥٩ ـ ٦٠ .

(٣) والتى تعرف فى العهد القديم باسم «إيلات». انظر : Watt, Muhammad at Medina, p. 115 .

(٤) المغازى للواقدى ، جـ٣ ، ص ١٠٣١ . وانظر أيضاً : فتوح البلدان للبلاذرى ، ص ٥٩ .

أمـا مقنا فـتقع جنوبى أيلـة ، وكان سكانهـا من اليهـود المشـتغلين بالنسج والصـيد [1] . وقد صالحهم رسول الله ﷺ على أن يدفعوا جزية سنوية تقدر بربع ثمارهم وغزلهم وصيدهم [2] . أما أذرح والجـرباء فهما بالبلقـاء من أرض الشام بالقرب من عَـمَّان [3] . والغـالب أن سكانهـما كـانوا خليـطا من المسـيحـيين واليـهـود [4]. وقد صـالح رسول الله ﷺ كلا من أهل أذرح والجـرباء على جزية سنوية مقدارها مائة دينار [5] .

والجدير بالملاحظة هنا أن هذه المستـوطنات ـ رغم ارتباطها مصلحيا وجـغرافيا ببيزنطة ـ كانت تـتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى ؛ وهذا هو مـا أتاح لها الفرصة لأن تعقد معاهدات صلح مع الرسول ﷺ دون تدخل مباشر من الدولة البيزنطية . ويبدو أن الوهن الذى حل بالدولة البيزنطية نتيجة حروبها الطويلة مع الفرس جعل قبضتـها تخفّ تدريجيا عن تلك الأماكن التى كانت تقع تحت حمـايتها المطلقة . ويضاف إلى ذلك ما قامت به بـيزنطة من قطع معونتها السنوية التى كـانت تدفعها لسكان تلك المستوطنات [6] . وكل هذا هيأ للنفوذ الإسلامى أن يجـد طريقا سهلاً إلى هناك .

ومن الضرورى أن نذكـر فى هذا السياق أن بعض مصـادرنا تروى أن الرسول ﷺ بعث دحية بن خليفة الكلبى برسالة إلى هرقل أثناء تلك الغزوة ، وفيها خيره بين إحدى ثلاث : الإسـلام أو الجزية أو السيف . وتمضى الـرواية قائلة إن هرقل

---

(1) Philip Hitti, History of Syria, p. 410 ; Watt, loc . cit .

(٢) المغازي للواقـدى ، جـ٣ ، ص ١٠٤٠ ؛ وفتوح البلدان للبـلاذرى ، ص٦٠ . ويُدخل البلاذرى فى الجزية أيضاً ربع كراعهم وحَلَقتهم أى سلاحهم .

(٣) تقع «أذرح» بين «البتراء» و «معان» ، وتقع الجرباء شـمالى أذرح . حول أذرح والجرباء انظر : معجم البلدان لياقوت ، جـ٢ ، ص ١١٨ . وانظر أيضاً : Hitti, loc . cit .

(4) Hitti, loc . cit. ; Watt, op. cit. , pp. 155 - 166 .

(٥) المغازى للواقدى ، جـ٣ ، ص ١٠٣٢ ؛ وفتوح البلدان للبلاذرى ، ص ٥٩ .

(6) J. Glubb, The Great Arab Conquests, pp . 99 and 125 . Cf. , Stratos , Byzantium in the Seventh Century, vol . I, p. 314 .

أرسل إلى النبى عليه السلام ، وهو بتبوك ، رد هذه الرسالة مع رجل من تنوخ ، وفيه رفض الإسـلام والجزية (١) . ورغم أن هذه الروايـة لا ترد فى الكثيـر من مصادرنا فليس هناك مـا يمنعنا من قبولها . وبناء على صحتـها يكون الرسول ﷺ قد أرسل دحيـة الكلبى إلى هرقل مرتين : أولاهما فى سنة سبع ؛ والأخرى هى هذه فى سنة تسع (٢) . والذى يجعلنا نميل إلى قبول هذه الرواية أنها تتّسق تماما مع الهدف المعلن لهـذه الغزوة . فقـد خرج رسول الله إلى تبـوك ليواجه جـموع الروم بعد أن بلغتـه أنباء تجمعهم وتهديدهم بالـزحف على المدينة . فلما تقدم فى مسـيره دون أن يلقى كيـداً أرسل إلى هرقل يدعوه إلى الإسـلام أو الجزية ، وإلا فالحـرب . وهذا كله يتناسب مع حـجم التحدى الـذى كانت تتعـرض له الدولة الإسلامية من قِبَلِ دولة الروم ، وخصوصاً بعد مواجهة مؤتة .

قدم الرسول ﷺ إلى المدينة عائداً من تبوك فى رمـضان سنة ٩هـ (ديسمبر سنة ٦٣٠م) وقد بات واضحا لديه ولدى العدو أيضاً أن الصراع الإسلامى البيزنطى بدأ يدخل طوراً جديداً .

---

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عـساكر ، جـ١ ، ص ٤١٧ ـ ٤١٨ ؛ والبداية والنهاية لابن كـثير ، جـ٥ ، ص ١٤ . والملاحظ أن السهيلى فى الروض الأنف (جـ٧ ، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤) يشير إلى ما كان من إرسـال الرسول ﷺ ـ وهو بتـبوك ـ كـتابـا إلى هرقل مع دحيـة الكلبى ، وردّ هرقل عليـه ؛ ولكن الواضح أن السهيلى يخلـط بين هذا الكتاب وبين كتاب الرسول الأول إلى هرقل لأنه يقـول فى سياق حديثه عنه : « ونصه مذكور فى الصحاح مشهور» . والكتاب المذكور فى الصحاح هو الكتاب الأول الذي أرسله الرسول ﷺ خلال هدنة الحديـبية كما يفهم من كلام أبى سـفيان لهرقل : « ونحن الآن منه فى مـدة نحن نخاف أن يغـدر» . انظر : صحـيح البخـارى ، جـ٤ ، ص ٥٦ . وفى صحـيح مسلم: «ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو صانع فيها» . ويعلق النووى على ذلك بقوله : «يعنى مدة الهدنة والصلح الذى جرى يوم الحديبية» . صحيح مسلم بشرح النووى ، جـ١٢ ، ص ١٠٥ .

(٢) انظر : السـيرة الحلبيـة لعلى بن برهان الدين الحلبى ، جـ٣ ، ص ٢٨٤ . ويروى البـلاذرى ما يفـيد الاتصال بين الرسول ﷺ وهرقـل أثناء غزوة تبوك حيث يذكر أن رُسُل هرقل أتـت الرسول «فكساهم وردّهم» . أنساب الأشراف ، جـ١ ، ص ٣٦٨ . والغالب أن البلاذرى يشير إلى بعثة رسول الله إلى هرقل فى هذه الغزوة وردّ هرقل عليها .

أهـم نتـائـج تـبـوك :

نستطيع القول إن غزوة تـبوك إذا لم تكن قد أسفرت عن مواجهـة مباشرة مع البيـزنطيين فإن أهم ما ترتب عليهـا من نتائج بالنسبـة لمستقبل الصـراع الإسلامى البيـزنطى هو بسط النفوذ الإسـلامى على مناطق كانت تـخضع تقليديا لـلسيطرة البيزنطية وتدين بالولاء لبيزنطة رغم أن معظم سكانها كانوا عربا . ويُعَـدُّ ذلك فى الواقع نقطة البداية للسيطرة الإسلامية على بلاد الشام .

ويضاف إلى ذلك أن القبائل العربية الشامية التى لم تخضع للسيطرة الإسلامية فى تبوك بـدأت تتعرض بشـدة للتأثيـر الإسلامى ، وبدأ الكثـير من هذه القـبائل يراجع موقفه ويقارن بين جدوى الاستمرار فى الولاء للدولة البيزنطية أو تحويل هذا الولاء إلى الدولة الإسلامـية الناشـئة . وسوف يكون ذلك من بـين العوامل التى مهدت للفتح الإسلامى لبلاد الشام بعد وفاة الرسول ﷺ .

* * * *

وبـعـد : فلعل أبرز مـا نستـخلصه من هذا الفـصل أن غزوة تبـوك لم تكن تنفيذا لخطة توسعية رسمها الرسول ﷺ ليتمكن عن طريقها من احتلال بلاد الروم كما يزعم البـعض ؛ بل كانت حملة أَملْتها ضرورة الدفـاع عن النفس وحماية دار الإسلام ؛ صـداً لهجـوم بيزنطى ترامت الأنبـاء إلى المدينة بأنه وشيـك الوقوع . وبرهان ذلك أن الرسـول ﷺ خرج لهذه الغـزوة فى أحرج الأوقـات وأبعدها عن ملاءمـة ظروف المسلمين ، ثم إنه عندمـا لم يلق كيـدا ولم يواجه عـدوا عاد إلى المدينة ، ولو كـانت هناك خطة توسـعيـة لواصل سيـره . وقد تبين لنا أن عـودة الرسول إلى المدينة لم تكن نتيجة وهن الشيخوخة أو نتيجة اكتشافه بأن خططه غير عملية أو نفـاد ما معه من مـؤن ، بل كانت نتيجة اخـتفاء حشـود العدو أو عدم خروجهـا من الأساس . وقد كانت المعاهدات التى عـقدها الرسول ﷺ مع بعض القبائل والـتجمعات الدائرة فى فـلك الروم على طريق الشام تدور فى إطار هدف

استراتيـجى كانت الدولة الإسلاميـة فى ذلك العصر تناضل من أجل تحقـيقه وهو تأمين حدودها وخلق المناخ الملائم لنشر دعوة الإسلام فى البقاع المجاورة .

وسوف نرى - فى الفـصل التالى - أن السنوات الباقـية من حيـاة الرسول ﷺ شهدت مزيدا من المحاولات من أجل تحقيق هذا الهدف .

* * * * *

الفصل السادس

تطور العلاقة بين الرسول والبيزنطيين بعد تبوك :
٩هـ (٦٣٠م) - ١١هـ (٦٣٢م)

نناقش فى هذا الفصل نقطتين أساسيتين هما : أولاً : مدى تقدم الدعوة الإسلامية بين عرب الشام فى تلك الفترة ورد فعل البيزنطيين ؛ وثانياً : بَعْث أسامة بن زيد .

أوّلاً : الدعوة الإسلامية بين عرب الشام ، وموقف البيزنطيين :

رجع الرسول ﷺ إلى المدينة من تبوك - كما أسلفنا - فى رمضان سنة ٩هـ (ديسمبر سنة ٦٣٠م) . والمعروف أن العام التاسع للهجرة شهد تكثيفاً للدعوة الإسلامية فى شبه الجزيرة العربية وما حولها ، وفيه بدأت وفود القبائل العربية تتقاطر على المدينة من مختلف البقاع معلنةً إسلامها . وهكذا اكتسب هذا العام اسمه الذى اشتهر به فى مصادر السيرة وهو «عام الوفود» . وقد استمر تدفُّق الوفود على رسول الله ودخول الناس أفواجاً فى دين الله حتى وفاته ﷺ فى الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١١هـ (٨ يونيو ٦٣٢م) . وكان من الطبيعى أن يمتد تأثير نشاط الدعوة الإسلامية فى تلك الفترة إلى عرب الشام ، بل إنه شمل بعض حكامهم كذلك . وفى مقابل ذلك وجدنا البيزنطيين يكثِّفون نشاطهم لتفتيت الجبهة الإسلامية من داخلها .

تروى بعض مصادرنا فى هذا الصدد أن وفدا مكوناً من ثلاثة نفر من غسان قدموا إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فى رمضان سنة ١٠هـ وأعلنوا إسلامهم ثم

انصرفوا إلى قومهم يبشرون بالإسلام (١) . ورغم أن قومهم لم يستجيبوا لهم فالذى لا شك فيه أن هذه كانت مرحلة تفكير وموازنة ومراجعة ، وأن هذا كله كان من شأنه أن يهيئ نفوس هؤلاء لاستقبال رسالة الإسلام حين تستوى الفكرة فى النفوس .

ويدخل فى هذا الإطار ما يروى من إسلام فروة بن عمرو الجذامى الذى تذكر عنه المصادر أنه كان «عاملا للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام» (٢) بمنطقة الأردن ، وذلك فى سنة ١٠هـ (٣) . ورغم أن بعض مصادرنا تروى أن النبى ﷺ أرسل إلى فروة يدعوه إلى الإسلام (٤) ، فإن معظم المصادر تذكر أن فروة هو الذى أخذ زمام المبادرة وأرسل إلى النبى ﷺ بإسلامه (٥) . ولا شك أن هذا كان حادثا بعيد الدلالة بالنسبة للبيزنطيين ؛ فهو

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ، جـ٣ ، ص ٥٣ ؛ والسيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبى ، جـ٣ ، ص ٢٧٧ . ويرى مونتجومرى وات أن وفد غسان بعد أن قابلوا محمدا واقتنعوا بصدق رسالته رجعوا إلى قومهم واكتفوا بذلك دون أن يتخذوا أية خطوة عملية . انظر : Muhammad at Medina, p. 114 . ولكن الذى تقرره مصادرنا أن هؤلاء حاولوا نشر الإسلام بين قومهم دون أن يجدوا استجابة وقد آثروا الانسحاب نتيجة لذلك ، ولكنهم ماتوا جميعا على الإسلام .

(٢) سيرة ابن هشام ، جـ٤ ، ص ٢٦١ ؛ وأسد الغابة لابن الأثير ، جـ٤ ، ص ٣٥٧ ؛ وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبى ، جـ١ ، ص ٣٩١ ـ ٣٩٢ ؛ وزاد المعاد لابن القيم ، جـ٣ ، ص ٤٥ . وتذكر بعض المصادر أن فروة بن عمرو كان «عاملا لقيصر على عَمَّان من أرض البلقاء» . انظر مثلاً : طبقات ابن سعد ، جـ٧ ، ص ٣٤٥ . ويروى ابن حجر الروايتين فى : الإصابة فى تمييز الصحابة ، جـ٣ ، ص ٣٠٧ وص ٣٩١ . ويبدو أن نفوذ فروة كان يمتد ليشمل معظم منطقة الأردن . ويصفه بعض المؤرخين بأنه صاحب البلقاء . انظر : أنساب الأشراف للبلاذرى ، جـ١ ، ص ٥١١ .

(٣) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبى ، جـ١ ، ص ٣٩١ . ويقال إن فروة بن عمرو كان قائداً لإحدى الفرق البيزنطية التى حاربت المسلمين فى معركة مؤتة . انظر حول ذلك : سيف الله خالد بن الوليد لمصطفى طلاس ، ص ١١٤ .

(٤) زاد المعاد لابن القيم ، جـ٣ ، ص ٣١ .

(٥) سيرة ابن هشام ، جـ٤ ، ص ٢٦١ ؛ وطبقات ابن سعد ، جـ٧ ، ص ٤٣٥ ؛ والإصابة لابن حجر، جـ٣ ، ص ٣٩١ ؛ والبداية والنهاية لابن كثير ، جـ٥ ، ص ٧٧ . ويروى القلقشندى (صبح الأعشى ، جـ٦ ، ص ٣٦٨) أن النبى ﷺ أرسل إلى فروة بكتاب يخبره فيه بما بلغه من إسلامه ؛ وهذا نصه : «من محمد رسول الله إلى فروة بن عمرو ، أما بعد : فقد قدم علينا رسولك وبلَّغَ ما أرسلتَ به وخَبَّر عما قِبَلكم خيرا وأتانا بإسلامك وأن الله هداك بهداه» . =

يعكس المدى الذى وصل إليه تأثير الدعوة الإسلامية ، ليس على جمهور عرب الشام فحسب بل على بعض الحكام الذين كانوا يحكمونهم باسم الامبراطور البيزنطى . ومن هنا كان رد فعل هرقل إزاء صنيع فروة بالغ الحدة والعنف ؛ فقد أمر باعتقاله ، ثم حكم عليه بالقتل والصلب . ولكن هذا كله لم يجعل فروة يتزحزح عن موقفه ؛ ويعكس هذا ما قاله عندما قدموه ليقتلوه :

بلِّغْ سراة المسلمين بأننى   سلم لربى أعْظُمى ومقامى [١]

وفى ضوء هذه التطورات على ساحة الصراع الإسلامى البيزنطى وجدنا البيزنطيين وأحلافهم من عرب الشام يحاولون التسلل إلى الجبهة الإسلامية الداخلية وضرب تماسكها ، وذلك عن طريق تشجيع حركة الانشقاق على الصف الإسلامى . ومن طريف ما يروى فى هذا السياق أن ملك غسان (الحارث بن أبى شمر) [٢] أرسل إلى الصحابى الجليل كعب بن مالك ـ وهو أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا فى غزوة تبوك رغم صدق إيمانهم ـ أرسل إليه يغريه باللحاق به وبالبيزنطيين عندما علم أن الرسول ﷺ أمر بمقاطعة هؤلاء الثلاثة عقابا لهم على تخلفهم حتى ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ [٣] . وقد حمل الرسالة إلى كعب بن مالك نبطى من نبط الشام ممن كان يَقْدمون بالطعام إلى سوق المدينة . وقد جاء فى الرسالة : « أما بعد ، فقد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضيعَة ، فالحقْ بنانُواسِك » . فكان تعليق كعب على هذه الرسالة : « وهذا من البلاء أيضاً ! قد بلغ منى ما وقعت فيه أن طمع فىَّ رجال من أهل الشرك » ! ثم أحرق الرسالة [٤] .

= ومن ناحية أخرى ، يُرْوى أن هذا الحاكم سلم «معان» للمسلمين ثم استردها الروم (حيث أمر هرقل بإعدامه كما سيأتى) . انظر حول ذلك : Stratos , Byzantium in the Seventh Century, p. 313 .

(١) سيرة ابن هشام ، جـ٤ ، ص ٢٦٢ .

(٢) ويروى أنه جبلة بن الأيهم . انظر : المغازى للواقدى ، جـ٣ ، ص ١٠٥١ .

(٣) سورة التوبة : ١١٨

(٤) المغازى للواقدى ، جـ٣ ، ص ١٠٥١ ـ ١٠٥٢ . وارجع أيضاً إلى صحيح البخارى ، جـ٦ ، ص٦ـ٧ (باب غزوة تبوك) . .

ويبدو أن البيزنطيين نجحوا ـ بعد تبوك ـ فى أن يضموا إلى صفوفهم بعض من كانوا يتظاهرون بالإسلام دون أن تطمئن به قلوبهم . ومن هؤلاء علقمة بن عُلاثة الذى كان من بين الوافدين إلى النبى ﷺ فى عام الوفود «فأسلم ثم ارتد ولحق بقيصر» (١) . ومنهم أبو عامر الراهب المعروف بالفاسق ، الذى كان رأسا من رؤوس النفاق (٢) ، والذى بنى له طائفة من المنافقين مسجد الضِّرار أو مسجد النفاق (٣) ﴿تَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ (٤) . وقد توجه أبو عامر الراهب إلى أرض الروم وأقام هناك مراغما للمسلمين وتنصَّر وظل على نصرانيته حتى مات عند هرقل سنة ١٠هـ (٥) .

كل ما سبق يدل على أن البيزنطيين وجهوا اهتمامهم فى مقاومتهم للدولة الإسلامية ـ بعد تبوك ـ وجهتين أساسيتين : الأولى محاربة أى تأثير إسلامى قد يمتد إلى عرب الشام ، وهم الحلفاء التقليديون لبيزنطة ؛ والثانية محاولة تمزيق الجبهة الإسلامية الداخلية عن طريق تشجيع حركة الانشقاق على الصف الإسلامى

(١) المعارف لابن قتيبة ، ص ٣٣١ . وقد عاد علقمة بعد ذلك إلى دار الإسلام وأسلم واستعمله عمر بن الخطاب على حوران فظل بها إلى أن مات . وهو علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص ، من بنى عامر بن صعصعة من قبيلة هوازن . انظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، ص ٢٨٤ . وقد اشتهر علقمة بن علاثة فى كتب الأدب بسبب المنافرة الذائعة بينه وبين عامر بن الطفيل . راجع : الأغانى للأصفهانى ، جـ١٦ ، ص ٢٨٣ وما بعدها .

(٢) المعارف لابن قتيبة ، ص ٣٤٣ . وهو أبو عامر عبد عمرو بن صيفى بن النعمان ، كان من وجهاء الأوس بالمدينة ، وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح فلقِّب بالراهب ، ثم لقبه رسول الله ﷺ بالفاسق ، وقد توجَّه إلى مكة فى بعض أتباعه مفارقاً للإسلام ولرسول الله ، ثم ذهب إلى الطائف ثم لحق بالروم . راجع : سيرة ابن هشام ، جـ٢ ، ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

(٣) المعارف لابن قتيبة ، ص ٣٤٣ ؛ وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، جـ١ ، ص ٤٠٩ .

(٤) سورة التوبة : ١٠٧ . وارجع إلى تفسير الآية فى تفسير الطبرى ، جـ١١ ، ص ١٧ ـ ٢٠ . والمقصود بـ « من حارب الله ورسوله من قبل » أبو عامر الراهب .

(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ، جـ٣ ، ص ٣٠٥ . ويشكك السير جون جلوب J. Glubb فى صحة الرواية الخاصة بأبى عامر الراهب وهروبه إلى بيزنطة وتحالفه مع البيزنطيين . انظر كتابه : Muhammad, his Life and Times, p. 340 f. ولكننا لا نجد مبررا لهذا التشكيك ؛ فقد أجمعت على هذه الرواية معظم المصادر العربية ، كما أنه ليس فيها ما يتعارض مع أى أساس تاريخى أو منطقى .

وإغراء المنشقين بالانضمام إليهم .

ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ؛ فقد كان المد الإسلامى بين عرب الشام يتزايد باطراد ، كما كانت وحدة الصف الإسلامى أصلب من أن ينال منها خروج بعض المارقين .

* * * *

ثانياً : بَعْثُ أسامة بن زيد : صفر ١١ هـ (مايو ٦٣٢م) :

مع أن تبوك كانت آخر غزوات الرسول ﷺ كما كانت آخر حملة إسلامية ضد البيزنطيين وأحلافهم يتم إعدادها وتنفيذها فى عهد الرسول ، فإن هناك حملة ينبغى تناولها هنا وهى التى تعرف فى مصادرنا باسم «بَعْث أسامة» . فرغم أن هذا البعث تم إنفاذه فى أوائل خلافة أبى بكر فقد كان الرسول هو الذى وضع تفاصيل خطته وأصدر قرار تنفيذه ، ولكن حالت وفاته دون إتمامه . ومن هنا ساغ لنا أن ندرجه ضمن الحملات الإسلامية ضد الروم وحلفائهم فى عهد الرسول ﷺ ، فجازت مناقشته فى هذا السياق .

تحقيق تاريخ البَعث :

تضع معظم مصادرنا تاريخ هذا البعث فى سنة ١١هـ (قبيل وفاة الرسول ﷺ). ولكن بعض المصادر تذكر بعثين لأسامة : أحدهما فى سنة ١٠هـ وكانت وجهته «يُبْنَى» و «يزدود» من أرض فلسطين ؛ والثانى فى سنة ١١هـ وكانت وجهته البلقاء وأذرعات ومؤتة [1] . ونحن نميل إلى اعتبار هذا بعثا واحدا لا بعثين ، ونرجح أنَّ «يُبْنَى» و «يزدود» كانتا من بين الأماكن التى توجَّه إليها أسامة فى بعثه الوحيد فى السنة الحادية عشرة للهجرة .

---

(١) انظر : التنبيه والإشراف للمسعودى ، ص ٢٣٨ و ص ٢٤١ .

ومع ذلك فإن القائلين بأن هذا البعث كان فى السنة الحادية عشرة يختلفون فى الشهر . فيذكر الطبرى أن ذلك كان فى المحرم سنة ١١هـ (١) ؛ فى حين يذكر الواقدى أنه كان فى صفر (٢) . ويبدو لنا أنه لا تناقض بين الروايتين ؛ لأن الذى نستنتجه أن الرسول ﷺ أمر أصحابه فى المحرم بأخذ الأهبة لغزو الشام ، ولا شك أن ذلك كان يتطلب جهداً ووقتاً . وقد استغرق الإعداد شهرى المحرم وصفر تقريباً . وفى أواخر صفر (لأربع ليال بقين منه) أمرهم بالاستعداد للتقدم نحو الشام ، وعقد الرسول لأسامة لواء بيده فى نهاية صفر وقال له : « اغزُ باسم الله . . . » (٣) . فالذين يذكرون تاريخ هذا البعث على أنه شهر المحرم يضعون فى الاعتبار أَمْر الرسول ﷺ بإعداد العدة له ، والذين يجعلون التاريخ فى أواخر صفر سنة ١١هـ يأخذون فى الاعتبار الخطوات العملية التى سبقته مباشرة ثم بداية تحرك أسامة . فليس من المعقول أن يأمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو بلاد الشام قبل نهاية صفر بأربعة أيام ثم تُؤْخذ الاستعدادات اللازمة فى أيام ثلاثة وينطلق الناس للغزو فى آخر صفر . ذلك أن غزو الشام مهمة ثقيلة يصعُب إعداد العدة اللازمة للقيام بها فى يومين أو ثلاثة . فنخلص من هذا إلى القول بأن الرسول أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم فى المحرم سنة ١١هـ وأسند مهمة القيادة إلى أسامة ، فأكمل أسامة استعداداته فى أواخر صفر من نفس العام ، ثم أمره رسول الله ﷺ بالتحرك الفعلى للغزو لليلة بقيت من صفر ، فسار أسامة بعسكره حتى وصل إلى الجُرْف على بعد حوالى خمسة كيلو مترات شمالى المدينة .

---

(١) تاريخ الطبرى ، جـ٣ ، ص ١٨٤ . وانظر أيضاً : الكامل لابن الأثير ، جـ٢ ، ص ٣١٧ ؛ وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبى ، جـ١ ، ص ٤٤٩ . ويذكر اليعقوبى أن الرسول ﷺ لما قدم المدينة من حجة الوداع أقام أياما وعقد لأسامة بن زيد على جلة المهاجرين والأنصار . انظر : تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ، ص ١١٣ . وهذه الرواية تكاد تتفق مع رواية الطبرى .

(٢) المغازى ، جـ٣ ، ص ١١١٧ . وانظر أيضاً : السيرة النبوية لابن هشام ، جـ٤ ، ص ٣١٩ ـ ٣٢٠ ؛ وطبقات ابن سعد ، جـ٢ ، ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ٢ ، ص ١٩٠ .

وعندما حال مرض الرسول ﷺ ثم وفاته دون إتمام هذا الغزو كان أول قرار يتخذه أبو بكر بعد خلافته هو الأمر بإنفاذ بعث أسامة . يقول الطبرى : «نادى منادى أبى بكر من بعد الغد من مُتَوَفَّى رسول الله ﷺ : ليتم بعث أسامة . ألا لا يبقينَّ بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف» (١) . وقد استغرقت عملية إعادة حشد الجيش بقية شهر ربيع الأول ، ثم انطلق أسامة فى غَزْوه فى غُرَّة شهر ربيع الآخر سنة ١١هـ (٢) .

خلفيات البعث وأهدافه :

قد يكون من المفيد عند مناقشتنا لخلفيات بعث أسامة أن نستعرض عددا من الروايات المختلفة فى مصادرنا الأساسية بهذا الصدد ثم نحاول استنباط دلالاتها .

يقول الواقدى : « لم يزل رسول الله ﷺ يذكر مقتل زيد بن حارثة وجعفر وأصحابه ووجد عليهم وجداً شديداً ، فلما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو الروم . . فلما أصبح رسول الله ﷺ من الغد يوم الثلاثاء لثلاث بقين من صفر دعا أسامة بن زيد فقال : يا أسامة ، سِرْ على اسم الله وبركته حتى تنتهى إلى مقتل أبيك فأوطِئْهم الخيل ؛ فقد وليتك على هذا الجيش » (٣) .

ويقول البلاذرى : « وكان رسول الله ﷺ قد رأى توجيه أسامة بن زيد إلى الذين حاربهم أبوه يوم مؤتة وأمره أن يوطئهم الخيل » (٤). ويقول فى موضع آخر: « عزم رسول الله ﷺ على توجيهه - أى أسامة - إلى شرحبيل بن عمرو الغسانى بمؤتة فلم يتهيأ شخوصه حتى قُبض رسول الله ﷺ » (٥) .

---

(١) تاريخ الطبرى ، جـ٣ ، ص ٢٢٣ .

(٢) المغازى للواقدى ، جـ٣ ، ص ١١٣٥ ؛ والسيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبى ، جـ٣ ، ص ٢٣٠ .

(٣) المغازى ، جـ٣ ، ص ١١١٧ .

(٤) أنساب الأشراف ، جـ١ ، ص ٣٨٤ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٤٧٣ .

ويروى اليعقوبى أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة من حجة الوداع « أقام أياما وعقد لأسامة بن زيد بن حارثة على جلة المهاجرين والأنصار وأمره أن يقصد حيث قُتل أبوه من أرض الشام » (١) .

أما الطبرى فيروى أن الرسول ﷺ « ضرب فى المحرم من سنة إحدى عشرة على الناس بعثا إلى الشام وأمَّر عليهم مولاه وابن مولاه أسامة بن زيد بن حارثة وأمَرَه أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين » (٢) .

يتضح لنا من هذه الروايات المختلفة أن بعث أسامة هذا لا يمكن النظر إليه بمعزل عن سرية مؤتة وملابساتها ونتائجها . فقد تعرض المسلمون فى مؤتة لتجربة لم تكن فى الحسبان ؛ حيث خرجوا فى ثلاثة آلاف للرد على الاستفزازات المتكررة من عرب الشام ، ولم يكن أقلها ـ كما ذكرنا ـ قتل الغساسنة لمبعوث رسول الله ﷺ إلى ملك بصرى وفتك قضاعة بالدعاة المسلمين فى ذات أطلاح (٣) . وقد فوجئ المسلمون فى مؤتة بأنهم أمام جموع هائلة من الروم وحلفائهم من عرب الشام . ورغم أنهم أبلوا أحسن البلاء ونالوا من عدوهم فقد اضطروا إلى الانسحاب نتيجة عدم توازن القوى بعد أن فقدوا القادة الثلاثة الذين عينهم الرسول، وعلى رأسهم زيد بن حارثة . ولم يستطع المسلمون فى مؤتة توقيع العقاب الرادع على تلك القبائل العربية التى طال إيذاؤها للمسلمين وتحرشها بهم؛ كما لم يتمكنوا بعد مؤتة من تحقيق ذلك على الوجه المطلوب . وقد ذكرنا فيما مضى أن غزوة تبوك أملتها ظروف خارجة عن إرادة المسلمين ؛ فقد اضطر الرسول ﷺ إلى تجهيز هذه الغزوة «فى زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجَدْبٍ من

---

(١) تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ، ص ١١٣ .

(٢) تاريخ الطبرى ، جـ٣ ، ص ١٨٤ . وانظر أيضاً : الكامل لابن الأثير ، جـ٢ ، ص ٣١٧ . والداروم ـ كما يقول ياقوت ـ «قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر ، الواقف فيها يرى البحر...» . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٤٨٣ .

(٣) انظر ملابسات سرية مؤتة فى ص ٨٧ – ٨٨ فيما سبق .

البلاد» (١) ، وذلك حين بلغه أن الروم تجمعوا وهمُّوا بغزو المدينة ؛ فلم يكن أمام الرسـول والمسلمين خيـار إلا أن يذهبوا للقـاء العدو وأن يحـشدوا لذلك كـل ما استطاعوا من عدد وعدة. ويبدو ـ كما أسلفنا ـ أن الروم وحلفاءهم عندما جاءتهم أنباء هذه الاستعدادات الهائلة جُبِنوا عن اللقاء فلم يلق المسلمون فى طريقهم كيدا. وعقد الرسول ﷺ من المعاهدات مع سكان المسـتوطنات الواقعة على حدود الشام ما ذكرنا فى موضعه . وكان من الممكن أن يتـقدم الرسول شمالاً بعد وصوله إلى تبوك وأن يتـعقب الروم وأشيـاعهم من عرب الشام ممن تـكرر أذاهم للمسلمين ، ولكن نصيـحة بعض أصحـابه جعلته يـحجم عن ذلك ، فقـد ذكروا له أن للروم جموعا كثيرة « وقد دنوت منهم حيث ترى وقد أفزعهم دُنُـوُّكَ ، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله عز وجل لك فى ذلك أمرا » (٢) .

كل هذا يدل على أن المسلمين لم تتح لـهم فرصة حـقيـقية لتـأديب كل تلك القبائل العربية الشـامية التى ارتكبت ضدهم كثيراً من التجـاوزات ، وخاصة قبائل غـسان وقـضاعـة وجذام ولخم . وكـان التأديب هنا ضـروريا ؛ كفًّـا لأذاهم عن المسلمين ، وتحـذيراً لأمثـالهم من أن يسلكوا مـسلكهم ، وتأكـيداً لهـيبـة الدولة الإسلامية أمام هؤلاء العـرب وأمام من وراءهم من الروم . ومن هنا كان الرسول ﷺ شديد الحرص على إنفاذ بعث أسامة ، فيروى عنه أنه قال فى مرض موته بعد أن اشتدت عليه علته : « أنفذوا جيش أسامة ! فقالها مراراً » (٣) .

وقد كـان لغزوة تبـوك تأثيرها فى غـرس هيبة المسلمين فـى صدور الروم وفى توسيع دائرة الولاء للدولة الإسلامية بين عرب الشام . ومن ثم لم يكن الهدف من بعث أسامة مـواجهة الروم فى الميدان ، بل يمكن القول إن هذا البـعث كان يهدف أساسا إلى ما كـانت تهدف إليه سرية مؤتة وهو تأديب عرب الشـام الذين كشفوا

(١) تاريخ الطبرى ، جـ٣ ، ص ١٠١ .
(٢) المغازى للواقدى ، جـ٣ ، ص ١٠١٩ . وانظر ص ١١٤ فيما سبق .
(٣) تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ، ص ١١٣ .

عن عدائهم السافر للدولة الإسلامية ولم تتهيأ الفرصة فى سرية مؤتة لتوقيع العقاب الرادع عليهم . والجدير بالملاحظة أن هاتين الحملتين تشتركان كذلك فى العدد الذى احتشد لهما من مقاتلى المسلمين وهو ثلاثة آلاف . وإذا كان هناك فارق أساسى بين سرية زيد بن حارثة إلى مؤتة وسرية ابنه أسامة فهو فى النتيجة لا فى الهدف كما سوف نوضح فيما بعد .

ولعل اختيار أسامة بن زيد قائدا لهذا البعث يلقى مزيدا من الضوء على ذلك الهدف الذى ناقشناه الآن . فقد أسند الرسول ﷺ إلى أسامة هذه المهمة رغم صغر سنه (١) ورغم الاعتراضات التى أثارها البعض ضد تعيينه بسبب ذلك ولوجود من هم أكثرخبرة بالقتال منه (٢) . ولكن تأمير الرسول له فى هذه السرية بالذات كان له مغزى عميق ؛ فهذه السرية - كما ذكرنا - كانت شديدة الارتباط بسرية مؤتة التى قُتل فيها زيد بن حارثة والد أسامة . ولاشك أن اختيار أسامة قائدا لهذه السرية يجسّد فكرة الثأر التى كانت وراءها ويدفع المسلمين المحاربين جميعاً - وليس قائدهم فقط - إلى بذل أقصى الجهد لتأديب ذلك العدو الذى قتل خيار المسلمين فى مؤتة ومنهم والد هذا القائد . يقول الواقدى : «وكان أسامة خرج على فرس أبيه التى قتل عليها أبوه يوم مؤتة ، كانت تُدْعَى سبحة ، وقتل قاتل أبيه فى الغارة» (٣) . ولا ينبغى أن يمثل صغر السن عقبة أمام الإنجاز

---

(١) كان أسامة فى العشرين من عمره فى ذلك الحين ، وقيل كان ابن ثمانى عشرة سنة . انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ، جـ١ ، ص ٤٦ .

(٢) أثار اختيار أسامة دهشة بعض الصحابة ومنهم عياش بن أبى ربيعة الذي يروى عنه أنه قال : «يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين» ! وكثرت القالة فى ذلك ، فكان هذا مما أغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ، فخرج على الناس وهو مريض عاصب راسه فصعد المنبر وخطب فيهم قائلاً: «يا أيها الناس ، فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة بن زيد؟ والله لئن طعنتم فى إمارتى أسامة لقد طعنتم فى إمارتى أباه من قبله ، وأيْمُ الله إن كان للإمارة لخليقا وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة . . .» . المغازى للواقدى ، جـ٣ ، ص ١١١٨ - ١١١٩ . وارجع إلى ترجمة عياش بن أبى ربيعة فى أسد الغابة لابن الأثير ، جـ٤ ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ ، وهو ينتمى لبطن بنى مخزوم من قريش ، وكان ممن هاجروا إلى الحبشة .

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٢٣ . وقد علم أسامة بذلك من بعض سبى الروم .

العسكرى ، خصوصاً إذا علمنا أن جيش أسامة ضم العديد من خيرة أصحاب رسول الله ﷺ من ذوى الخبرة والسن ممن كان أسامة لا يستطيع أن يقطع أمرا دونهم [١] . ويضاف إلى ذلك أيضاً أن أسامة نفسه كان له رصيده القتالى المعروف؛ فقد كان أحد القلائل الذين ثبتوا مع الرسول ﷺ فى غزوة حنين بعد أن فرَّ عامة أصحابه [٢] . فليس هناك ما هو أكثر بعدا عن الحقيقة من زعم «إرفنج» بأن تأمير أسامة يُعَدُّ برهاناً على تدهور الطاقات الذهنية للرسول [٣] ، أو زعم «جلوب» بأنه كان قائماً على أسس عاطفية بحتة وليس على أسس عملية [٤] . وقد أثبتت نتيجة هذه السرية - كما سوف نرى - أن اختيار أسامة كان اختياراً صائباً وأن هذا القائد أدى المهمة التى أنيطت به خير أداء وكان موضعاً للثقة التى خصه بها رسول الله ﷺ .

تطور البعث وأهم نتائجه :

انطلق أسامة بجيشه من المدينة فى اتجاه الشام فى آخر صفر سنة ١١هـ ، ثم عسكر بالجرف على مشارف المدينة حين علم باشتداد المرض على رسول الله ﷺ . وقد اضطر أخيرا أن يعود بجيشه إلى المدينة ورسول الله فى النزع الأخير . وانتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه فى الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١١هـ . وجئ بلواء أسامة الذى عقده له رسول الله ﷺ فأمر به أبو بكر بعد بيعته أن يكون فى بيت أسامة حتى يتم بعثه الذى وجهه إليه رسول الله ﷺ . ثم استدعى أبو بكر أسامة فقال له : « انفذ فى وجْهك الذى وجَّهك فيه رسول الله ﷺ » . وقد شقَّ على بعض الصحابة أن يترك أسامة المدينة بجيشه متوجها إلى الشام فى وقتٍ كانت

---

(١) وقد كان الرسول ﷺ حريصا على أن يوصى بأسامة أصحابه ؛ فيروى عنه أنه قال لهم : «استوصوا به خيرا فإنه من خياركم» . المغازى للواقدى ، جـ٣ ، ص ١١١٩ .

(٢) المعارف لابن قتيبة ، ص ١٦٤ .

(3) W. Irving, Mahomet and his Successors, vol. I, p. 318 .

(4) J. Glubb, The Great Arab Conquests, p. 110 .

حركة الردة فيه تمثّل تهديداً خطيراً لكيان الدولة الإسلامية ، فكلموا أبا بكر فى تأجيل ذلك البعث حتى يزول خطر الردة ؛ ولكن الحقيقة أن أبا بكر كان يرى نفسه منفذاً لأمرٍ أمَرَ به رسول الله ﷺ لا مستأنفاً بعثاً جديداً ؛ ولهذا أجابهم بقوله : «والذى نفسى بيده لو ظننت أن السباع تأكلنى بالمدينة لأنفذت هذا البعث ولا بدأت بأول منه ؛ ورسولُ الله ينزل عليه الوحى من السماء يقول : أنفذوا جيش أسامة!» [1] .

من أجل ذلك كان أبو بكر حريصا على أن يشترك فى هذا البعث كل الذين احتشدوا له قبيل وفاة الرسول ﷺ ، وهم ثلاثة آلاف ، «فلم يتخلف عن البعث إنسان واحد» [2] . وكل ما سمح به أبو بكر لنفسه هو أنه استأذن أسامة فى أن يُعْفى عمر بن الخطاب من الاشتراك فى هذه السرية ، وقد برر أبو بكر ذلك بقوله: «فإنه لا غَناء بنا عنه» ، وقال حين همَّ بذلك : «والله ما أدرى : يفعل أسامة أم لا . والله إن أبى لا أُكْرِهه» ؛ فأذن له أسامة [3] .

ذكرنا أن أسامة تحرك بجيشه من الجرف صوب الشام فى مستهل شهر ربيع الآخر سنة ١١هـ . وقد قال له أبو بكر فيما قال : «إنى سمعت رسول الله ﷺ يوصيك ، فانفذ لأمر رسول الله ﷺ ، فإنى لست آمرك ولا أنهاك عنه ، وإنما أنا منفذ لأمر أمر به رسول الله ﷺ» [4] .

وقد كانت وجهة أسامة من بلاد الشام تلك الأماكن الجنوبية فى منطقة الأردن وفلسطين حيث تتركز القبائل العربية التى دأبت على إلحاق الأذى بالمسلمين ولم تنل ما تستحق من العقوبة . وقد كانت قبيلة قضاعة على رأس هذه القبائل . أما

---

(١) المغازى للواقدى ، جـ٣ ، ص ١١٢١ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١١٢٢ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١١٢١ ـ ١١٢٢ ؛ وانظر أيضاً : تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، جـ١ ، ص ٤٣٨ .
(٤) المغازى ، جـ٣ ، ص ١١٢٢ .

الأماكن التى تذكر مصادرنا أن أسامة توجّه إليها فى بعثه هذا فأهمها يُبْنَى (أو أُبْنَى) [١] وآبل الزيت [٢] ومؤتة . وقد أغار أسامة على قبائل قضاعة وجذام ولخم وأصاب منها [٣] ثم رجع سالما غانما إلى المدينة بعد أن غاب عنها فى بعثه ذاك أربعين يوما ، وقيل ستين يوما أو سبعين [٤] .

يلفت نظرنا فى حملة أسامة هذه أمران : أولهما ما ترويه مصادرنا من أن جيش أسامة لم يُصَبْ بسوء خلال تلك الحملة . والثانى : أن البيزنطيين لم يظهر لهم دور ملحوظ فى هذه المواجهة .

فما تفسير ذلك ؟

أما أن جيش أسامة لم يصب بسوء فلعل السبب فى ذلك يكمن أولاً فى عنصر المفاجأة التى صحبت هجومه على تلك القبائل التى قصد إليها بحملته ؛ ويكمن ثانياً فى أن أسامة لم يمعن فى طلب الهاربين حتى لا يواجه موقفا لم يأخذ له عدته . يروى الواقدى بهذا الصدد أن أسامة لما نزل وادى القرى فى طريقه إلى الغزو أرسل عينا له من بنى عذرة يقال له حريث حتى يأتى له بخبر القوم ، فتوجه حريث إلى «أُبْنى» ثم رجع فأخبر أسامة «أن الناس غارُّون ولا جموع لهم، وأمره أن يسرع السير قبل أن تجتمع الجموع وأن يشنها غارة» . ويمضى الواقدى فى تقريره قائلاً إن أسامة لما انتهى إلى أبنى «عبأ أصحابه وقال : اجعلوها غارة

---

(١) يُبْنى موضع بفلسطين بين عسقلان والرملة . ويروى أنها قرية بالقرب من مؤتة التى قتل عندها زيد بن حارثة . انظر : تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، جـ١ ، ص ٤٢٦ ؛ والسيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبى ، جـ٣ ، ص ٢٢٧ ؛ والروض الأنف للسهيلى ، جـ٧ ، ص ٥١١ ـ ٥١٢ .

(٢) آبل الزيت قرية من قرى الأردن تقع بالقرب من مؤتة . انظر : معجم البلدان لياقوت ، جـ١ ، مدخل «آبل» .

(٣) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، جـ١ ، ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣ ؛ والكامل لابن الأثير ، جـ٢ ، ص ٣٢٥ .

(٤) بخصوص اختلاف الروايات حول المدة التى قضاها أسامة فى غزوه ارجع إلى : تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ، ص ١٢٧ ؛ وتاريخ خليفة بن خياط ، جـ١ ، ص ٦٥ ؛ وأنساب الأشراف للبلاذرى ، جـ١ ، ص ٤٧٣ ؛ والكامل لابن الأثير ، جـ٢ ، ص ٣٣٦ .

ولا تمعنوا فى الطلب» . ثم يذكر أن أسامة «دفع عليهم الغارة فما نبح كلب ولا تحرك أحد وما شعروا إلا بالقوم قد شنوا عليهم الغارة . . فقتل من أشرف له وسبى من قدر عليه . . وأجال الخيل فى عرصاتهم ولم يُمْعِنوا فى الطلب»[1] .

فواضح من هذا التقرير أن القبائل التى توجه أسامة لحربها أُخِذتْ على حين غرة وأن حملته عليها كانت فى شكل هجوم خاطف أو غارة سريعة لم تُتِح الفرصةَ لهؤلاء أن يلتقطوا أنفاسهم ويستجمعوا قواهم . وقد كانت هذه الضربة المفاجئة محققة للهدف الذى أراده أسامة ؛ وهذا هو السر فى عدم إمعانه فى طلب الهاربين .

أما أن البيزنطيين لم يظهر لهم دور ملحوظ خلال تلك الحملة فذلك يرجع فى المقام الأول إلى ما سبق أن ذكرنا توّاً من أن هذه الحملة أخذت شكل هجَوم سريع خاطف مما لم يهيئ للبيزنطيين الفرصة لإعداد أنفسهم والدخول فى مواجهة ميدانية منظمة . ولعلنا لا ننسى أن البيزنطيين كانوا قد خرجوا حديثا من حرب طويلة الأمد باهظة الثمن مع العدو الفارسى ، ورغم خروجهم منها منتصرين فقد كانت قواهم مبعثرة ولم يكونوا على استعداد للدخول فى مواجهات أخرى تستنفد مزيدا من طاقاتهم التى لم يتبق منها الكثير . وقد نكصوا عن مواجهة المسلمين فى تبوك قبل ذلك بحوالى عام ونصف حين علموا بضخامة الجيش الإسلامى . ولعلهم تصوروا أن حملة أسامة كانت بمثل هذه الخطورة أو أنها كانت طليعة حملة ضخمة. كما أن نتيجة معركة «مؤتة» لم تكن فى صالحهم تماماً كما أشرنا قبل ذلك . وهذا لا يعنى أن البيزنطيين تجاهلوا التهديد الإسلامى لحدودهم ودفنوا رؤوسهم فى الرمال ولكنه يعنى أنهم آثروا تأجيل المواجهة الحاسمة مع المسلمين حتى يحين الوقت المناسب ويأخذوا لذلك أهبتهم . وقد كان لهذه المواجهة الحاسمة أن تحدث فى خلافة عمر بن الخطاب .

---

(١) المغازى ، جـ٣ ، ص ١١٢٢ ـ ١١٢٣ .

يتضح مما سبق أن حملة أسامة أحرزت نتيجة لم تحرزها حملة أبيه زيد بن حارثة إلى مؤتة وهى إنزال العقوبة الرادعة بالقبائل العربية الشامية المتواطئة مع البيزنطيين ضد المسلمين . ويضاف إلى ذلك أن هذه الحملة لفتت نظر البيزنطيين إلى حقيقة الخطر الذى يهدد حدودهم وإلى أن المواجهة الحاسمة إذا كان لها أن تتأجل فلا مناص فى الوقت نفسه من أخذ الإجراءات اللازمة لحماية الحدود حتى يحين وقت هذه المواجهة . ونتيجة لذلك أمر هرقل بوضع رابطة فى البلقاء تكون مسئولة عن حماية حدود الشام من الهجمات الإسلامية . ويؤثر عنه أنه قال لبطارقته بمناسبة حملة أسامة : « قد صارت العرب تأتى من مسيرة شهر فتغير عليكم ثم تخرج من ساعتها ولم تُكْلَمْ ! » [1] وقد استمرت الحامية البيزنطية فى البلقاء حتى قدمت الجيوش الإسلامية إلى الشام فى خلافة أبى بكر وعمر [2] ، ليبدأ بذلك فصل جديد مختلف الملامح فى تاريخ الصراع بين المسلمين والروم .

---

(١) المغازى للواقدى ، جـ٣ ، ص ١١٢٤ . وفى تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (جـ١ ، ص ٤٣٩) « ولم تتكلم » بدلا من : « ولم تُكْلَمْ » . والصواب ما رويناه عن الواقدى .

(٢) المغازى ، جـ٣ ، ص ١١٢٤ ؛ وطبقات ابن سعد ، جـ٢ ، ص ١٩٢ .

خـاتمـــة

-١-

من خلال هذا التتبع لجذور العلاقة وتطورها بين المسلمين والبيزنطيين فى عصر الرسول ﷺ يتبين لنا أن الإسلام فى مرحلته المكية لم يثر اهتمام البيزنطيين ولا أحلافهم المتنصرين من عرب الشام ، بل يمكن القول إن بعضهم ـ إن لم يكن الكثيرون منهم ـ لم يكادوا يسمعون به . وقد كان الشاغل الذى سيطر على اهتمام الرسول ﷺ خلال معظم تلك المرحلة هو تبليغ قومه من قريش دعوة الإسلام. وقد أذن الرسول لبعض أصحابه أثناء ذلك بالهجرة إلى الحبشة فراراً من أذى قريش واضطهادهم . ومن الصعب حقا أن نتصور أن تكون هذه الهجرة قد أثارت فى نفوس البيزنطيين أو أحلافهم أى قدر من القلق أو الريبة ؛ فلم يكن مهاجرو الحبشة إلا جماعة قليلة مستضعفة لا يمكن أن يحسب لها أمثال هؤلاء حساباً . وفوق ذلك فليس هناك ما يشير إلى أن المسلمين خلال المرحلة المكية ظهر منهم عداء تجاه البيزنطيين بشكل أو بآخر ، بل إننا نلاحظ أنهم كانوا أكثر تعاطفا مع البيزنطيين فى صراعهم المرير ضد الفرس ؛ فقد كان الأولون أهل كتاب ، وكان الآخرون أهل أوثان .

-٢-

ولم يتغير الأمر كثيرا فى السنوات الأولى التى أعقبت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة . والمعروف أن المهمة الملحّة أمام الرسول فى صدر المرحلة المدنية كانت تتمثل ـ أولاً ـ فى وضع الأسس السياسية والتشريعية والاجتماعية التى تثبِّت قواعد الدولة الناشئة ؛ وكانت تتمثل ـ ثانياً ـ فى التعامل مع عدوها اللدود المتربص بها من مشركى قريش ومن يلوذ بهم . والحق أننا لا نجد فى مصادرنا أدنى إشارة إلى أن الرسول فكّر فى أن يفتح جبهة مع البيزنطيين أو أحلافهم فى السنوات الأولى

من الوجود الإسلامى فى المدينة . والواضح أن المسلمين كانوا يعرفون قدر الدولة البيزنطية على المستوى العسكرى والاقتصادى ، ولم يكن لديهم من الأسباب فى تلك الفترة ما يغريهم بالدخول فى مواجهة معها .

وقد كانت للرسول ﷺ مواجهات مع أعدائه فى شبه الجزيرة العربية ـ وخاصة مع مشركى قريش ـ فى تلك الفترة المدنيَّة المبكرة . ولا شك أن معركة بدر كانت أكثر هذه المواجهات خطورة وحسما . ولعل من بين أهم النتائج التى ترتبت عليها أنها لفتت أنظار الكثيرين ـ داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها ـ إلى هذه القوة الإسلامية الناشئة فى المدينة ، وهى القوة التى استطاعت أن تنزل أقسى الهزيمة بقريش ذات الحول والطول وزعيمة معسكر الشرك فى شبه الجزيرة .

ورغم أن مشركى قريش حققوا نصراً محدوداً على المسلمين فى معركة أحد فإنهم جَبُنوا عن تصعيد المواجهة معهم بتعقبهم إلى المدينة ؛ كما جَبُنوا عن لقائهم فى غزوة «حمراء الأسد» بعد أحد مباشرة ، ولم يجرؤوا على مواجهتهم فى غزوة بدر الموعد (أو بدر الآخرة) فى العام الرابع للهجرة .

-٣-

يبدو ـ فى ضوء هذا الملابسات ـ أن أحلاف البيزنطيين من عرب الشام بدأوا ينظرون إلى هذه القوة الإسلامية المتنامية على أنها تمثل تهديداً مستقبليا لهم ، بل إنهم أحسوا فعلاً بمؤشرات هذا التهديد عندما أخذ طريق التجارة المزدهر بين مكة والشام يقع تحت الضغط المتزايد من دولة المدينة .

وهكذا التمس عرب الشام لأنفسهم من المبررات ما أغراهم بانتهاج مسلك عدوانى حيال الدولة الإسلامية الوليدة . وهم حين فعلوا ذلك كانوا لا يعبرون عن أهوائهم فقط ، بل عن أهواء أسيادهم البيزنطيين كذلك . وقد رأينا كيف حاول هؤلاء العرب فرض حصار اقتصادى على دولة المدينة عن طريق إلحاق الأذى بالتجار الأنباط الذين كانوا يحملون إلى المسلمين سلع الشام الضرورية كالدقيق

والزيت والخل ، بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين حاولوا عرقلة سير الدعوة الإسلامية فى تلك البقاع . ومن هنا أمكننا أن نقرر باطمئنان أن الحملات الإسلامية المبكرة فى اتجاه الشام كانت رداً على الاستفزازات المتكررة من هؤلاء العرب الدائرين فى فلك بيزنطة ، ردعاً لهم ولأمثالهم ، وكان بعضها أقرب فى طبيعته إلى بعثات للدعوة لا حملات للقتال ، وذلك بهدف تهيئة الأرض الصالحة لنشر الإسلام بين هذه القبائل العربية . وينطبق ذلك بصفة خاصة على سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فى السنة السادسة للهجرة ، أى بعد غزوة الخندق وفشل الأحزاب فى اقتحام المدينة ؛ فقد بدأت الدعوة الإسلامية فى تلك الفترة تشهد نشاطاً ملحوظاً لمدّ دائرتها خارج حدود شبه الجزيرة العربية .

-٤-

إن العام السادس للهجرة يمثّل - بحق - خطا فاصلاً بين فترتين متميزتين فى العهد المدنى : الفترة الأولى كانت الدعوة الإسلامية فيها لا تكاد تتجاوز حدود شبه الجزيرة ، وكانت فترة تتسم بتكريس أعظم الجهود لمقاومة جبهات التحدى الداخلى : من اليهود ومشركى قريش ومن آزرهم من قبائل العرب . أما الفترة الثانية - وهى التى بدأت بصفة خاصة بعد صلح الحديبية - فهى الفترة التى شهدت الدعوة الإسلامية فيها محاولات مكثّفة للخروج بها إلى دائرة أوسع من دائرة شبه الجزيرة ، وهى الفترة التى بدأ اسم الإسلام فيها يفرض نفسه على الساحة العالمية .

إن ما يهمنا فى هذا السياق على وجه الخصوص - وقد ناقشناه تفصيلاً - هو كتب رسول الله ﷺ إلى ملوك العالم وأمرائه ، وخاصة كتبه إلي هرقل والمقوقس وأمراء الغساسنة . وقد تبين لنا أن التشكيك الذى يطرحه كثير من المستشرقين حول وثاقة هذه الكتب لا يعتمد على أساس من المنطق أو التاريخ ؛ ذلك أن هذه الكتب جاءت تطبيقاً لمبدأ إسلامى ثابت أكده القرآن الكريم منذ العصر المكى ،

وهو عالمية الدعوة الإسلامية ، كما جاءت فى اتساق كامل مع مقتضيات تلك المرحلة من حياة الرسول ﷺ فى المدينة ، حيث أتاح صلح الحديبية للمسلمين جوا من السلام والأمن فتح المجال واسعاً أمام انطلاق الدعوة الإسلامية . والحق أن لهذه الكتب أهمية كبيرة فى إلقاء مزيد من الضوء على جذور الصراع بين المسلمين والروم ، وقد لاحظنا أن ردود أفعالها عند أمراء الغساسنة اختلفت عنها عند هرقل والمقوقس . فعلى حين كان رد هرقل والمقوقس ردا متّسما باللباقة وحسن الكياسة جاء رد أمراء الغساسنة استفزازيا حاداً . ومن صور هذا الاستفزاز تهديد الحارث ابن أبى شمر الغسانى أمير دمشق بالهجوم على المدينة بعد أن تلقى كتاب رسول الله . على أن جموح الغساسنة بلغ مداه حين أقدم أحد وجهائهم على قتل مبعوث رسول الله ﷺ إلى أمير بُصْرَى . ولا شك أن هذه التطورات كانت من بين الأسباب الأساسية وراء تصعيد المواجهة بين المسلمين وعرب الشام بما أدت إليه من اقتحام البيزنطيين ميدان الصراع إلى جانب أحلافهم .

كما تبيّن لنا أن من بين الأسباب الأخرى لتصعيد تلك المواجهة ذلك التحدى السافر الذى أبداه عرب الشام بصفة عامة إزاء ما قام به الرسول ﷺ من محاولات لنشر الدعوة الإسلامية فى تلك الأنحاء . ويتجلى هذا التحدى فى أبشع صوره فيما ارتكبته قضاعة فى «ذات أطلاح» حين قتلت بضعة عشر نفرا من المسلمين تشير كل الدلائل إلى أنهم ذهبوا فى بعثة للدعوة لا حملة للقتال .

ثم إننا وضحنا أن تفسير بعض مصادرنا لموقف هرقل من كتاب رسول الله ﷺ على أنه يعكس رغبته فى اعتناق الإسلام أو يشير إلى أنه اعتنق الإسلام فعلاً - تفسير لا ظل فيه للحقيقة التاريخية . فليس فى حياة هرقل ما ينبئ عن ميل إلى التصالح بينه وبين الإسلام ، بل فيها ما يؤكد عكس ذلك ؛ فقد ظل حربا على الإسلام حتى وفاته . ويحدثنا التاريخ أنه كان بالغ القسوة فى معاملته للمقوقس نائبه على مصر متهما إياه بأبشع التهم لأنه تخاذل فى مقاومة الفتح الإسلامى لمصر

فى خلافة عمر بن الخطاب ! أما موقفه الّـليِّـن إزاء كتاب رسول الله إليه وما أبداه من حسن استقبال لمبعوثه فـإنه لا يعكس إلا حصافة سياسى محنك دون أن تكون له أدنى دلالة على الرغبة فى اعتناق الإسلام .

-٥-

إن الموقف المتـشدد الذى أبداه عرب الشـام إزاء الدولة الإسلامـية الناشـئة فى المدينة ـ وهو الموقف الذى بسطنا الحديث عن مظاهره المختلفة فى بحثنا ـ كان وراء أخطر مواجهة مـيدانية بين المسلمين والروم فى عصر الرسـول ﷺ ، وهى معركة مؤتة فى سنة ٨هـ (٦٢٩م) . وقـد انتهى بنا فحصُ الملابسات التى أحـاطت بهذه الموقـعة الخطيـرة ، وتتـبُّعُ تطوراتها ، إلـى أن المسلمين لم يسـعَوْا إلى مـواجهـة البيـزنطيين فى الميـدان بل كان هدفهـم الأول هو تأديب عرب الشـام ووضع حد لاستفـزازاتهم المتكررة التى جاوزت حد الاحـتمال . وقد كـان هذا الهدف بدوره كفيـلاً بتحقيق أهداف أخـرى لعل أهمها تأمين الدعوة الإسلامـية في تلك المناطق ودرء أى خطر يحـول دون وصـول السلع الضـرورية إلى المدينة . وحين فـوجئ المسلمون فى الميدان بما لا قبل لهم به من حشـود الروم واتخذوا قرار المواجهة بعد تردد كانت المعركـة التى خاضوها غير متكافـئة ، ولهذا جاءت مخيـبة لآمالهم مما اضطرهم إلى الانسحاب إلى المدينة بعد أن فقدوا قادتهم الثلاثة .

وقد رأينا أن أخطر ما تمخَّضتْ عنه «مؤتة» كان بروز الروم على مسرح الصراع ضد المسلمين . والواضح أن المسلمين بعد هذه الموقعة أدركوا حق الإدراك أنهم لا يتعاملون مـع عرب الشام بل مع من وراءهم من جحافل الـروم ، وكان عليهم أن يرسموا سـياستهم على هذا الأسـاس . وكانوا فى الوقت نفسه يدركـون ما عليه الروم من قوة ومنعة ؛ ولهذا كانوا يتهيبونهم ويخشون لقاءهم .

-٦-

والحق أن السنين التـالية لمؤتة حـتى وفاة الرسـول ﷺ تمثل الفتـرة التى شـعر

المسلمون فيها بجسامة التهديد البيزنطى للوجود الإسلامى ذاته . وقد أقام الرسول سياسته بعد مؤتة على أساس أنه لابد من صدام عاجل أو آجل مع هذه القوة الكبرى ولابد من حشد كل الجهود للتعامل معها قبل أن تدور رحاها على المسلمين. وتقع فى إطار هذه الجهود ـ كما رأينا ـ محاولاته لكسب ولاء عرب الشام ، إن لم يكن عن طريق اعتناقهم للإسلام فعن طريق تحييدهم فى الصراع الحتمى بين المسلمين والروم . وتمثل سرية «ذات السلاسل» أبرز محاولاته فى هذا الإطار ؛ فقد كانت تهدف بصفة خاصة إلى كسب ولاء قبيلة «بلى» التى كانت تربطها رحم بقائد هذه السرية عمرو بن العاص .

-٧-

وقد كان علينا ـ فى ضوء ما بسطناه عن خلفيات مؤتة وملابساتها ونتائجها ـ أن نعيد النظر فى غزوة تبوك وأن نراجع بعض ما يثور حولها من آراء . فلم يكن الهدف من هذه الغزوة ـ كما بيَّنَّا ـ هو الانتقام لمقتل القادة المسلمين فى مؤتة ، بل كان الهدف منها هو صد هجوم الروم المتوقع الذى ترامت أنباؤه إلى المدينة ؛ فقد كانت ـ إذن ـ غزوة اضطرار لا غزوة اختيار . والذى يؤكد ذلك هو ما أحاط بها من ظروف قاسية جعلت المؤرخين يطلقون على جيشها اسم «جيش العسرة» ، وجعلت بعض المسلمين يتثاقلون فى الانضمام إليها . وقد أدى بنا تقرير هذه الحقيقة إلى تأكيد حقيقة أخرى وهى أن الرسول ﷺ لم تكن لديه خطة للتوغل فى بلاد الروم حين خرج إلى تبوك ، على خلاف ما يقول به بعض المستشرقين . والواضح أن هؤلاء ينطلقون من تصور راسخ لديهم وهو أن الدولة الإسلامية منذ نشأتها قامت على العدوان والتوسع . وهم ـ من أجل تأييد هذا التصور ـ يلوون أعناق الحقائق التاريخية . وقد عرفنا من دراستنا لغزوة تبوك أن الرسول حين اكتشف أن الروم لم يخرجوا للقاء المسلمين ـ كما أشيع قبل ذلك ـ لم يجد مبررا للتوغل فى بلادهم وعاد إلى المدينة مكتفياً بعقد بعض المعاهدات مع عدد من

التجمعات القبلية على حدود الشام كفّاً لأذاها وكسباً لتأييدها فيما كان يتوقعه من صدام لابد منه بين المسلمين والروم ؛ وهى السياسة التى كان الرسول قد أرسى دعائمها قبل ذلك . ولا شك أن هذه السياسة أدت إلى تعرض تلك التجمعات للتأثير الإسلامى مما سهَّل عملية انتشار الإسلام بينها بعد ذلك .

-٨-

ومع أن غزوة تبوك كانت آخر حملات الرسول ﷺ ضد الروم (بل آخر حملاته جميعا) فإن هناك حملة أخرى أعدَّها قبيل وفاته ولم يُقَدَّر لها أن تكتمل إلا فى صدر خلافة أبى بكر وهى بعث أسامة بن زيد . وقد انتهينا من دراستنا لظروف هذا البعث إلى أن الرسول لم يقصد به أن يكون هجوماً على الروم بل مجرد غارة سريعة خاطفة هدفها تأديب تلك القبائل العربية التى دأبت على إيذاء المسلمين وكانت مسئولة إلى حد كبير عن مقتل القادة الثلاثة فى مؤتة ومن بينهم زيد بن حارثة والد أسامة . ورغم أن أبا بكر كان هوالذى تولى إنفاذ هذه الحملة فإن الذى خطط لها ورسم أهدافها واختار قائدها هو الرسول ﷺ ؛ ولهذا جاز لنا أن ندرجها ضمن نشاطه الحربى ضد بلاد الشام . وإذا كان بعث أسامة يتفق مع سرية مؤتة فى الغرض الذى خرجت من أجله وهو تأديب القبائل العربية الشامية التى طالِ تحرشها بالمسلمين فإنه يختلف معها فى النتيجة كما رأينا ؛ فقد حقق هذا البعث أهدافه وعاد إلى المدينة دون أن يمر بالتجربة القاسية التى تعرضت لها سرية مؤتة . والواضح أن المسلمين وَعَوْا درس مؤتة جيداً ؛ ولهذا جاءت غارتهم سريعة خاطفة ترمى إلى إنزال العقاب بالعدو دون الإمعان فى طلبه ؛ وذلك حتى لا يتجاوز هذا البعث مرماه ويجد المسلمون أنفسهم فى مواجهة لا يريدونها مع الروم كما حدث فى مؤتة .

وقد لاحظنا أن النجاح الذى حققه بعث أسامة أفزع الروم ووجَّه أنظارهم إلى خطورة هذا العدو الجديد الرابض على حدودهم . ولهذا أمر هرقل بوضع رابطة

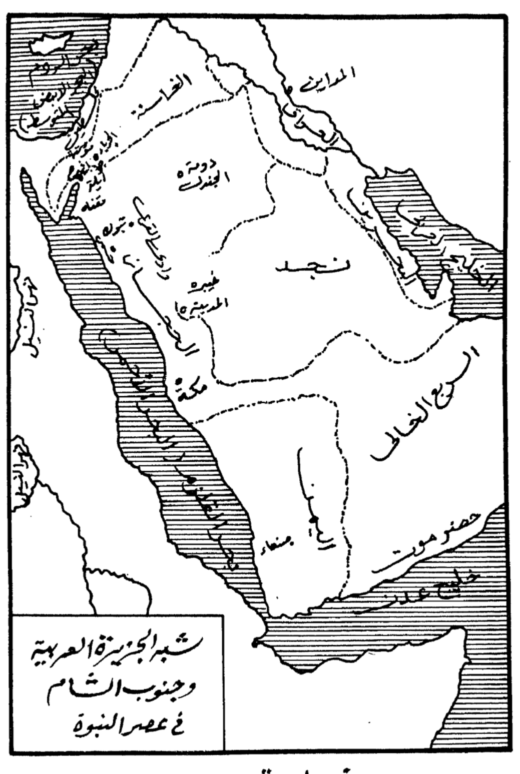
فى البلقاء تحسبا لأى هجوم مصدره شبه الجزيرة العربية . وهكذا بدأ الاحتكاك الإسلامى البيزنطى يأخذ منعطفاً جديداً خطيراً ، ولم يعد أى من الطرفين يأمن الطرف الآخر . وقد كان تطور الوضع على هذا النحو سبباً فى اشتعال المواجهة الشاملة بينهما فى وقت لاحق فى عصر الخلفاء الراشدين ، وهو ما يحتاج إلى دراسة مستقلة لابد أن تأخذ فى اعتبارها جذور الصراع وتطوره بين الجانبين فى عصر الرسول ﷺ .

* * * *

وبعد : فلعل هذا البحث نجح فى إلقاء بعض الضوء على إحدى القضايا المهمة فى تاريخنا الإسلامى وهى العلاقات الإسلامية البيزنطية فى عصر النبوة . والحقُّ أنه بدون الفهم الصحيح لجذور هذه العلاقات وتطورها فى ذلك الصدر المبكر يصعب على المرء أن يفهم الكثير من أبعاد الصراع اللاحق بين المسلمين والروم فى مراحله المتعاقبة ؛ وهو صراع يشغل حيزا لا يستهان به من صفحات التاريخ الإسلامى . وقد حاولنا ـ فى حدود الإمكانات المتاحة ـ أن نميط اللثام عن كثير من المشاكل المتصلة بجوانب هذه القضية فى الفترة المذكورة ، مع اعترافنا التام بأن الكثير من الأسئلة المطروحة ما زال فى حاجة إلى مزيد من جهد الباحثين المخلصين .

ونحمد الله على ما أعان .

الخرائط



شبه الجزيرة العربية
وجنوب الشام
في عصر النبوة

خريطة رقم (١)



عكا
حيفا
بحر الروم
(البحر الأبيض المتوسط)
يافا
القدس
عمان
غزة
رفح
العريش
ذات أطلح
مؤتة
الجرباء
أذرح
معان
بادية الشام
دومة الجندل
أيلة
سيناء
مقنا
تبوك
تيماء
ذات السلاسل
وادي القرى
خيبر
أسوان
المدينة المنورة
أهم الأماكن
التي توجهت إليها حملات المسلمين
على طريق الشام في عصر النبوة

خريطة رقم (٢)

قائمة المصادر والمراجع

مرتبة ترتيباً هجائياً حسب أسماء المؤلفين

أولاً : العربية والمترجمة *

أبو عبيد (القاسم بن سلام) :

- كتاب الأموال . تحقيق محمد خليل هراس . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل) :

- المختصر فى أخبار البشر . المطبعة الحسينية المصرية . القاهرة :١٣٢٥هـ .

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن محمد) :

- أسد الغابة فى معرفة الصحابة . دار الشعب . القاهرة : ١٩٧٠م .
- الكامل فى التاريخ . دار صادر . بيروت : ١٩٧٩ - ١٩٨٢م .

الأصفهانى (أبو الفرج على بن الحسين) :

- الأغانى . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة : ١٩٦٣م .

امرؤ القيس (ابن حُجْر بن الحارث) :

- ديوان امرئ القيس . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف القاهرة : ١٩٩٠م .

---

* يُلاحَظ ما يأتى :

أولاً : لم نُدخل فى الاعتبار كلمة «ابن» عند الترتيب الهجائى لأسماء المؤلفين .

ثانياً : راعينا اسم الشهرة فى الترتيب ، سواء اشتهر المؤلف باسمه الأول مثل «ياقوت» ، أم باسمه المركب مثل «خليفة بن خياط» ، أم باسمه الأخير مثل «المسعودى» .

أوليرى (ديلاسى) :

- مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب . ترجمة الدكتور تمام حسان . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة : ١٩٥٧م .

أومان (ش) :

- الامبراطورية البيزنطية . تعريب الدكتور مصطفى طه بدر . دار الفكر العربى. القاهرة : ١٩٥٣م .

إيوار (Huart) :

- مادة «امرؤ القيس» فى : دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٤ . الطبعة العربية . دار الشعب . القاهرة (بدون تاريخ) .

بتلر (ألفريد . ج .) :

- فتح العرب لمصر . ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة : ١٩٨٩م .

البخارى (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) :

- صحيح البخارى . دار الشعب . القاهرة (بدون تاريخ) .

البلاذرى (أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر) :

- أنساب الأشراف ، جـ١ . تحقيق الدكتور محمد حميد الله . دار المعارف . القاهرة : ١٩٨٧م .

- فتوح البلدان . مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان . دار الكتب العلمية. بيروت : ١٩٩١م .

بينز (نورمان) :

- الامبراطورية البيزنطية . ترجمة الدكتور حسين مؤنس والأستاذ محمود يوسف زايد . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة : ١٩٥٠م .

جاد المولى (محمد أحمد) ، وعلى محمد البجاوى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم :

- أيام العرب فى الجاهلية . دار الجيل . بيروت : ١٩٨٨م .

جرجى زيدان :

- العرب قبل الإسلام . مراجعة وتعليق الدكتور حسين مؤنس . دار الهلال . القاهرة (بدون تاريخ) .

جواد علـى :

- المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام . دار العلم للملايين ببيروت ومكتبة النهضة ببغداد : ١٩٨٠م .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :

- تاريخ الدولة البيزنطية . مؤسسة شباب الجامعة . الإسكندرية : ١٩٨٤م .

ابن حبيب (أبو جعفر محمد) :

- كتاب المحبَّر . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد الدكن : ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م .

- كتاب المنمَّق فى أخبار قريش . تحقيق خورشيد أحمد فاروق . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد الدكن : ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .

ابن حجر (أحمد بن على بن محمد الكنانى العسقلانى) :

- الإصابة فى تمييز الصحابة . دار الكتاب العربى . بيروت (بدون تاريخ) .

ابن حزم (على بن أحمد بن سعيد) :

- جمهرة أنساب العرب . دار الكتب العلمية . بيروت : ١٩٨٣م .

- جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى . تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد ومراجعة أحمد محمد شاكر . دار إحياء السنة . لاهور (بدون تاريخ) .

حسن إبراهيم حسن (الدكتور) :

- تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى . دار الجيل ببيروت ومكتبة النهضة المصرية بالقاهرة : ١٩٩٦م .

الحلبى (على بن برهان الدين) :

- إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون ، الشهير بالسيرة الحلبية . مصطفى البابى الحلبى . القاهرة : ١٩٦٤م .

حمزة الأصفهانى :

- تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء . منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت (بدون تاريخ) .

الخضرى (الشيخ محمد) :

- محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية . المكتبة التجارية الكبرى . الطبعة الثالثة . القاهرة (بدون تاريخ) .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر (الشهير بتاريخ ابن خلدون) . دار الكتب العلمية . بيروت : ١٩٩٢م .

خليفة بن خياط :

- تاريخ خليفة بن خياط . تحقيق أكرم ضياء العمرى . المجمع العلمى العراقى . بغداد : ١٩٦٧م .

الذهبى (الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان) :

- تاريخ الإسلام . المجلد الأول : المغازى . تحقيق محمد محمود حمدان . دار الكتاب المصرى بالقاهرة ودار الكتاب اللبنانى ببيروت : ١٩٨٥م .

- العبر فى خبر من غبر . الجزء الأول بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . دائرة المطبوعات والنشر . الكويت : ١٩٦٠م .

ابن سعد (محمد) :

- الطبقات الكبرى . دار صادر . بيروت : ١٩٥٨م .

السهيلى (عبد الرحمن) :

- الروض الأُنُف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام . تحقيق عبد الرحمن الوكيل . دار الكتب الحديثة . القاهرة : ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠م .

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) :

- تاريخ الرسل والملوك (الشهير بتاريخ الطبرى) . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف . القاهرة : ١٩٧٩م .
- جامع البيان فى تفسير القرآن . المطبعة الأميرية . بولاق . القاهرة : ١٣٢٩هـ .

ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد) :

- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب . تحقيق على محمد البجاوى . مكتبة نهضة مصر . القاهرة (بدون تاريخ) .

ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) :

- فتوح مصر وأخبارها . تحقيق تشارلز تورى . نيوهافن : ١٩٢٢م .

ابن عبد ربه (أحمد بن محمد) :

- العقد الفريد . تحقيق محمد سعيد العريان . دار الفكر . بيروت (بدون تاريخ) .

العدوى (الدكتور إبراهيم أحمد) :

- الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم . دار رياض الصالحين . الفيوم : ١٩٩٤م .
- المسلمون والجرمان . دار رياض الصالحين . الفيوم : ١٩٩٤م

العرينى (الدكتور السيد الباز) :

ـ الدولة البيزنطية . دار النهضة العربية للطباعة والنشر . بيروت : ١٩٨٢م .

ابن عساكر (الحافظ أبو القاسم على بن الحسن) :

ـ تاريخ مدينة دمشق . المجلد الأول . تحقيق صلاح الدين المنجد . دمشق : ١٩٥١م .

العقاد (الأستاذ عباس محمود) :

ـ مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية . المكتبة العصرية . بيروت . صيدا (بدون تاريخ) .

ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى) :

ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . دار الكتب العلمية . بيروت (بدون تاريخ) .

فنسنك (ا . ج .) :

ـ مادة «بحيرا» فى دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٦ . الطبعة العربية . دار الشعب . القاهرة (بدون تاريخ) .

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) :

ـ المعارف . تحقيق الدكتور ثروت عكاشة . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة : ١٩٩٢م .

القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) :

ـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . القاهرة : ١٩٦٣م .

ابن القيّم (شمس الدين أبو عبد الله محمد) :

ـ زاد المعاد فى هَدْى خير العباد . المكتبة التوفيقية . القاهرة : ١٩٨٠م .

الكتبى (محمد بن شاكر بن أحمد) :

ـ عيون التواريخ . السِّفْر الأول . تحقيق حسام الدين القدسى . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة : ١٩٨٠م .

ابن كثير (الحافظ إسماعيل بن عمر) :

ـ البداية والنهاية . تحقيق الدكتور أحمد أبو ملحم وآخرين . دار الكتب العلمية . بيروت : ١٩٨٥م .

محمد كرد على :

ـ خطط الشام . دار العلم للملايين . بيروت : ١٩٦٩م .

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) :

ـ التنبيه والإشراف . تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوى . المكتبة العصرية . بغداد : ١٩٣٨م .

ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة : ١٩٤٨م .

مسلم (أبو الحسين بن الحجاج) :

ـ صحيح مسلم بشرح النووى . دار الريان للتراث . القاهرة : ١٩٨٧م .

مصطفى طلاس :

ـ سيف الله خالد بن الوليد . دمشق : ١٩٧٨م .

المقدسى (مطهر بن طاهر) :

ـ البدء والتاريخ (ويُنْسَب كذلك إلى أبى زيد أحمد بن سهل البلخى) . مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجى بمصر : ١٨٩٩ ـ ١٩١٦م .

ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على) :

ـ لسان العرب . دار المعارف . القاهرة : ١٩٧٩م .

نولدكه (تيودور) :

ـ أمراء غسان . ترجمة الدكتور بندلى جوزى والدكتور قسطنطين زريق . بيروت : ١٩٣٣م .

هسّى (ج . م .) :

ـ العالم البيزنطى. ترجمة الدكتور رأفت عبد الحميد. دار المعارف . القاهرة : ١٩٨٤م .

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) :

ـ سيرة النبى ﷺ (الشهيرة بسيرة ابن هشام) . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . دار الهداية . القاهرة (بدون تاريخ) .

الواقدى (محمد بن عمر بن واقد) :

ـ كتاب المغازى . تحقيق الدكتور مارسدن جونس . عالم الكتب . بيروت : ١٩٨٤م .

ابن الوردى (زين الدين بن عمر) :

ـ تتمة المختصر فى أخبار البشر (الشهير بتاريخ ابن الوردى) . الجزء الأول . تحقيق أحمد رفعت البدراوى . دار المعرفة . بيروت : ١٩٧٠م .

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى) :

ـ معجم البلدان . تحقيق فريد عبد العزيز الجندى . دار الكتب العلمية . بيروت : ١٩٩٠م .

اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر) :

ـ تاريخ اليعقوبى . دار صادر . بيروت : ١٩٩٢م .

ثانياً : المراجع الأجنبية :

Brockelmann (v.) :

- History of the Islamic Peoples . Translated from the German by J. Carmichael and M. Perlmann . London and Henley, 1980 .

Bury (J. B.) :

- History of the later Roman Empire from Arcadius to Irene (395 - 800) . London, 1889 .

Canard (M.)

- The article "al - Djazira" in "The Encyclopedia of Islam" . New Edition .

Davis (R. H. C.) :

- History of Medieval Europe . London, 1988 .

Donner (F. M. G.) :

- The Early Muslim Conquests . Princeton, 1981 .

Glubb (J. B.) :

- The Great Arab Conquests . London, 1963 .
- The Life and Times of Muhammad . New York, 1979 .

Grégoire (H.) :

- "The Byzantine Church" , an article published in : "Byzantium", ed . by N. H. Baynes and H. Moss . Oxford . 1953 .

Grunebaum (G. E. Von) :

- Classical Islam : A History 600 - 1258 . London, 1970 .

Hitti (Ph. K.) :

- History of the Arabs . London, 1970 .
- History of syria . London, 1957 .

Irving (W.) :

- Mahomet and his Successors . London, 1985 .

Johnson (P.) :

- A History of Christianity . Penguin Books, Middlesex, 1982 .

Kennedy (H.) :

- The Prophet and the Age of the Caliphates . London and New York, 1986 .

Krüger (G.) :

- "Monophisitism" , in the "Encyclopedia of Religion and Ethics" . Vol . 8 .

Moss (H.) :

- "The Formation of the East Roman Empire 330 - 717" , an article published in "The Cambridge Medieval History". Vol . IV, part I, Cambridge .
- " The History of the Byzantine Empire : an outline" , an article published in "Byzantium" , ed . N. H. Baynes and H. Moss. Oxford, 1953 .

Nicol (D. M.) :

- "Justinian and his Successors" , an article published in "Byzantium : an Introduction to East Roman Civilization" . Oxford, 1961 .

O' Leary (De Lacy) :

- Arabia before Muhammad . Lahore, 1989 .

Ostrogorsky (G.) :

- History of the Byzantine State . Translated into English from the German by J. Hussey, Oxford, 1968 .

Runciman (S.) :

- History of the Crusades. Penguin Books, Middlesex, 1986.

Saunders (J.) :

- A History of Medieval Islam . London, 1965 .

Shahid (Irfan) :

- "Ghassan", in "The Encyclopedia of Islam" , New Edition .

Sourdel (D.) :

- "Dumat al - Djandal" , in "The Encyclopedia of Islam" , New Edition .

Stratos (A. N.) :

- Byzantium in the Seventh Century . Translated by Marc Ogilvie - Grant, Amsterdam, 1968 .

Sykes (P.) :

- A History of Persia . London, 1958 .

Theophanes :

- Chronographia . Ed. de Boor . Leipzig, 1883 .

Trimingham (J. S.) :

- Christianity among the Arabs in Pre - Islamic Times . Librairie du Liban, 1979 .

Vasiliev (A. A.) :

- History of the Byzantine Empire . Wisconsin, 1952 .

Watt (W. M.) :

- Muhammad at Medina . Oxford, 1956 .
- Muhammad : Prophet and Statesman, Oxford, 1961 .

Whitting (Philip) :

- "Byzantine Art and Architecture" , and article published in "Byzantium : an Introduction" . Oxford, 1981 .

الفهـــــارس

أولاً: فهرس الأعلام

[أ]

[ب]

[ت]

[ف]

[ن]

[هـ]

[و]

[ى]

ثانياً: فهـرس الأماكن والبلدان

[أ]

[ب]

[ت]

[ث]

[ج]

[ح]

[ن]

[هـ]

[و]

[ى]

ثالثاً: فهـرس القبائل والأمم والجماعات

[أ]

[ب]

رابعاً: فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث : الرسول والبيزنطيون من صلح الحديبية حتى سرية مؤتة : ٦هـ (٦٢٨م) - ٨هـ (٦٢٩م)	٧١
مقـــدمة	٧١
أولاً : كتب الرسول إلى الملوك والأمراء	٧٢
ثانياً : علاقة الرسول بالقبائل العربية فى الشام ، ودور عرب الشام فى إشعال فتيل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين	٨٤
الفصل الرابع : سرية مؤتة ٨هـ (٦٢٩م) : ملابساتها - أهدافها - تطوراتها - نتائجها	٨٧
خلفيات مؤتة وملابساتها	٨٧
أهداف مؤتة	٨٩
جيش المسلمين وجيش العدو فى مؤتة وتطورات المعركة	٩٢
مؤتة بين النصر والهزيمة	٩٧
أخطر نتائج مؤتة	١٠١
فى أعقاب مؤتة :	١٠٢
سرية ذات السلاسل	١٠٢
الفصل الخامس : غزوة تبوك بين الفعل ورد الفعل	١٠٩
خلفيات الغزوة وملابساتها	١٠٩
مناقشة أهداف الغزوة	١١١
ترتيبات الغزوة وتطوراتها	١١٢
أهم نتائج تبوك	١٢٠

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع	١٩٩٧ / ٩٠٩٧
الترقيم الدولى I. S. B. N	977 - 10 -1042 - 5

هـــذا الكتاب

بدأ احتكاك المسلمين بالبيـزنطيين (أو الروم كما تسميـهم مصادرنا العربية) منذ العـصر النبوى (أى فى النصف الأول مـن القـرن السـابع الميـلادى) ، واستمر الـصراع بين الجانبين يشتد حـينا ويهدأ حينا آخر إلى حوالى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى حين سقطت القـسطنطينية عاصمـة إمبراطورية الروم على يد السلطان التركى محمد الفاتح .

ورغم الأهمية القصوى التى يمثلها العصر النبوى - والمدنى منه بصفـة خاصة - فى ميـدان العلاقات الإسلامية البيزنطية فـإن هذا العصر لم يحظ بنصيبه الوافى من الدراسة فى هذا المجال .

وهذا الكتـاب يمثل مـحاولة لتـتبع جـذور تلك العلاقـات ورصد تطوراتـها فى تلك الفـترة البـالغة الأهمية ؛ وهو يتصدى - قـدر الجهد - للإجابة عن هذا السؤال المحورى : هل سعى المسلمون إلى إثارة العداء مع دولة الروم واختلقوا الأسباب للدخول فى مواجهة مـعها أو أنهم كانوا فى علاقتـهم بها يقفون موقفا دفاعيا ؟

ومن أجل الإجـابة عن هذا السـؤال كـان من الضرورى دراسة الدور الذى قام به أحلاف الروم من عرب الشام فى التـحرش بالدولة الإسلاميـة الناشئة وما أدّى إليـه ذلك من حدوث عدد من المواجـهات المبكرة بينهم وبين المسلمين ، ثم إلى نزول الروم بعد ذلك فى ميدان الصراع المبـاشر ضد المسلمين ، وهو الصراع الذى كانت مؤتة أخطر مظاهره ، كما كانت غـزوة تبـوك أبلغ تعـبيـر عن إدراك الرسـول ﷺ لخطورته على الكيان الإسلامى الوليد .

ويعرض الـكتاب لأهم آراء البـاحثين المحـدثين حول أبرز القضـايا المثارة ويناقشهـا فى ضوء المصادر الموثّقة وصولا إلى الرأى الذى يمـكن الاطمئنان إليه فى موضوع من أخطر موضوعات التاريخ الإسلامى وهو علاقة المسلمين بالروم فى عصر النبوة .



الدكتور/ عبد الرحمن أحمد سالم

- تخـرج فى كليـة دار العلوم جـامعـة القاهرة عـام ١٩٦٧م، وكُلّف مـعـيـدا بقـسم التـاريخ الإسلامى والحـضارة الإسلامـية بالكلية فى نفس العام.
- حصل على درجة الماجستير فى عام ١٩٧٤ فى موضـوع «التاريخ السـياسى للمـعتـزلة حتى نهـاية القرن الثالث الهجرى».
- أوفد فى بعثة دراسية إلى إنجلترا عـام ١٩٧٦ حـيث حـصل على الدكتوراه فى مـوضوع «العلاقات الساسـية بين الخـلافة العـباسـية والإمـبـراطورية البـيـزنطيـة فى العصر العبـاسى الأول» من مركز الدراسات البيزنطية بكلية الآداب جامعة برمنجهام فى عام ١٩٨٣ .
- يقـوم بتـدريس مـادة التـاريخ الإسـلامى والحضـارة بكليـة دار العلوم.